

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

عصر
لويس الرابع عشر



قصة الحضارة

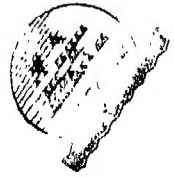
ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر

بسكال وموليير وكروموك وملائن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

١٦٤٨ - ١٧١٥



General Origine
The Library of the
National Library of the Republic of Tunisia

مراجعة
عالم أدبهم

ترجمة
فؤاد أندراوين



تونس

الجزء الأول من المجلد الثامن

الهيئة العامة للكتاب: الإسكندرية	
رقم التصنيف	
رقم التسجيل: ١٩٠٥٨ / ١٦ / ١٤	



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تليكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار ميلاد - بيروت - لبنان

إلى القارئ العزيز

هذا المجلد هو الجزء الثامن في تاريخ نسبت بدايته ، ولن ندرك نهايته أبدا . موضوعه الحضارة ، وتعرفنا لها أنها ذلك النظام الاجتماعى الذى يدعم الإبداع الثقافى ، فهو إذن ينظم أبواب الحكم ، والاقتصاد (أى الزراعة والصناعة والتجارة والمالية) ، والأخلاق ، وآداب السلوك ، والدين ، والفن ، والأدب ، والموسيقى ، والعلم ، والفلسفة . وهدفه التاريخ المتكامل - أى تغطية جميع نواحي النشاط البشرى ما فى منظور واحد ورواية موحدة . وقد حققنا هذا الهدف ولكن فى قصور شديد . ومسرحة أوروبا ، وزمانه يمتد من معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) إلى وفاة لويس الرابع عشر ، الذى غلب حكمه (١٦٤٣ - ١٧١٥) على العصر وسماه باسمه .

أما الموضوع الغالب على هذا الجزء فهو « المناظرة الكبرى » بين الإيمان والعقل . لقد كان الإيمان متربعا على العرش إبان هذه الحقبة ، ولكن العقل كان يجد أصواتا جديدة تفصح عنه فى هوبز ، ولوك ، وليون ، وبيل ، وفونتنيل ، وسينوزا ، و « كان هذا العصر الكلاسيكى من أوله إلى آخره ما أطلقه على ذاته فى ختامه ، أى عصر العقل » (١) وقد خصصنا ثلث الكتاب تقريبا لتلك المغامرة الفكرية التى انطلقت من الخرافة والظلامية والتعصب إلى الدرس والعلم والفلسفة . وقد بذل المؤلفان محاولة لرواية هذا النقاش فى إنصاف رغم انحيازهما الواضح إلى أحد الجانبين ، ومن ثم كان تناولهما المستفيض ، المتعاطف ، لنفر من المنافحين الأكفاء من الإيمان ، أمثال بسكال ، وبوسويه ، وفنيون ، وباركلى ، ومالبرانش ، وليبنتز . وسوف يعيش أبنائنا فصلا جديدا فى صراع المثل هذا ، وهو صراع لا بد لكل انتصار فيه أن يكسب من جديد المرة بعد المرة .

وأملنا أن تقدم للقراء الجزء التاسع الذى يتناول « عصر فولتير »

في ١٩٦٥ ، والجزء العاشر « روسو والثورة » في ١٩٦٨ ، ولقد اعترضتنا عقبات ، بعضها نجم عن ضخامة المادة التي أتاحها لنا القرن الثامن عشر ، وكلها يتطلب الدرس والحيز الكافي . وإنا خلال ذلك راكسنا إلى « القوى العظمى » في ألا تدمر موضوعنا هذا قبل أن تدمرنا .

ول وايريل ديورات

مايو ١٩٦٣

إقرار بالفضل

لقد لقي ربه أحد الناشئين المشاركين اللذين بدأنا معهم « مشروع الكلام » هذا في ١٩٢٦ ، ولن ننسى أبدا روحه النيرة المتألقة . وما زال الثاني صديقا لنا ، وهو لا يفتأ متحمسا ، سمحا ، غفورا . إنه ناشر لم يطغ عمله على شاعريته .

وعسى ألا يفسر انتهازا هذه الفرصة — التي قد تكون الأخيرة — للإعراب عن عرفاننا بمجميل النقاد الكثيرين الذين أتونا بقراء لهذه المجلدات — نقول عسى ألا يفسر هذا بأنه « إحساس قوى بأفضال قادمة » ، فما كنا بغير معونتهم إلا صوتين صارخين في البرية .

ونحن مدينان ديننا كبيرا لا بنتنا إيثلا بذات من جهد مخلص في نسخ مسودتنا الثانية ، التي لم تسكن واضحة تمام الموضوع ، على الآلة الكاتبة نسخا قارب السكال ، ولما أدخلت عليها من تنقيحات صائبة ، ولاخواننا وأخينا — ساره ، وفلورا ، وماري ، وهاري كأوفان — لما قاموا به من تصنيف صابر لنحو أربعين ألف جزاة تحت اثني عشر ألف عنوان ، وللسيدة آن روبرتس بمكتبة لوس أنجيليس العامة ، والآنسة داجني ولجيز بمكتبة هوليوود الإقليمية ، لما قدمت من معونة قيمة في توفير الكتب النادرة لئلا يضيع جميع أرجاء أمريكا ، فما كان لهذه المجلدات أن تسكتب لولا مكتباتنا السخية العظيمة ، وللسيدة فيرا شنيدر ، عضو هيئة التحرير بمؤسسة سيمون وشوستر ، لما لقي هذا المجلد وسابقه على يدها من تحقيق علمي دقيق لم يظفر بمثله في أغلب الظن إلا القليل من المخطوطات .

الكتاب الأول
فرنسا في أوج عظمتها
١٦٤٣ - ١٧١٥

الفصل الأول
الشمس تشرق

١٦٤٣ - ٨٤

١ - مازاران والفرونند: ١٦٤٣ - ٦١

تري ما الذي أمان فرنسا على أن تفرض على أوروبا الغربية منذ ١٦٤٣ ،
سلطانا فيه ما يشبه قوة التنويم ، اتصل في ميدان السياسة حتى ١٧٦٣ ،
وفي ميادين اللغة والأدب والفن حتى ١٨١٥ ؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أوغسطس ملكية إزدادت بمثل هذا
العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثاليين والمعماريين ، أو حظيت بمثل
الإعجاب والمحاكاة الواسعين ، سواء في آداب المجتمع أو الأزياء أو الأفكار
أو الفنون ، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ إلى
١٧١٥ . لقد كان الأجانب يؤمنون باريس وكأنهم يؤمنون مدرسة تهذيبية
تصقل كل ألوان الجمال في الجسم والعقل . وكان الألوف من الايطاليين ،
والألمان ، وحتى الإنجليز ، يؤثرون باريس على أوطانهم .

أن من أسباب هيمنة فرنسا آنئذ ضخامة قواها البشرية . فقد بلغ
سكانها عشرين مليونا من الأنفس في ١٦٦٠ ، في حين لم يزد سكان كل من
أسبانيا والمجتراتا على خمسة ملايين ، وإيطاليا على ستة ، والجمهورية الهولندية
على مليونين . أما الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التي شملت ألمانيا ،
والنمسا ، وبوهيميا ، والمجر ، فقد سكنها واحد وعشرون مليونا تقريبا ،
ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب
الثلاثين ، وانقسمت إلى نيف وأربعمائة دويلة ، شديدة الحرص على « سيادتها » ،

جلها صغير مستضعف ، ولـسـكـل منها حـا كـمـها ، وجيشها ، وعملتها ، وقوانينها ، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين - وعلى نقيض هذا كانت فرنسا بعد ١٦٦٠ أمة متماسكة جغرافياً ، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة ، وهكذا تمخضت جهود ريشليو الأليمة عن مولد « القرن العظيم » .

ولقد تآزر البوربون حيث أخفق الفالوا في ذلك الصراع الطويل الذي نشب بين الهاابسبورج والملوك الفرنسيين . وأخذت أجزاء من الإمبراطورية ، عقداً بعد عقد ، تقع في قبضة فرنسا ، ثم زالت أسبانيا الهاابسبورجية عن كبرياتها وزعامتها في روكروا (١٦٤٣) و صلح البرانس (١٦٥٩) . وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية في العالم المسيحي ، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية ، ومهارات شعبها وولائه ، وخطط قادتها العسكريين ، ومصير ملكها . كذلك كان من الأهمية بمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن ، مضيفاً بذلك وحدة الحكومة والسياسة إلى وحدة العرق والأرض ، وهكذا سنرى فرنسا طوال خمسين عاماً تترعى وتستقدم عباقرة العلم والأدب ، تشيد القصور الشاغرة ، وتجهز الجيوش الضخمة ، وترهب نصف الدنيا وتلهبها . لقد قدر لهذه الصورة أن تكون صورة عظيمة لم تسكد تضارعها من قبل عظمة ، ترسم بكل ضروب الفن وألوانه ، وبدم الرجال أيضاً .

لم تسكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة (١٦٤٣) ، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذي بدأه سلفه ريشليو . ذلك هو جول مازارن الذي كان يسمى في إيطاليا جوليو مازاريني ، وقد ولد في « الأبروتزي » لأبوين صقليين فقيرين ، وتولى اليسوعيون تعليمه في روما ، وخدم البابوات موظفاً دبلوماسياً ، ثم لفت أنظار أوروبا فجأة يوم أنهى الحرب المائتوية (١٦٣٠) بالمفاوضة . لحظة حرجة . فلما أوفده البابا معوثالة في باريس ، ربط مصيره بعبقريّة

ريشليو المسيطرة ، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة الكرد ينالية . وحين حضرت المنية ريشليو ، « أ كبد للملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلا كفؤا لملء مكانه » (١) . واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة .

فلما مات هذا الملك المطيع (١٦٤٣) ظل مازاران متواريا بينما اضطلمت الملكة الأم ، آن النمساوية ، بالوصاية على ولدها ، واحتال لوى دكونديه وجاستون دورليان ، الأميران الملكيان ، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يغتفرا للملكة قط أنها تخطتها واستوزرت ذلك الإيطالي الوسيم ، الذي بلغ الآن الحادية والأربعين . وفي غداة تقلده الوزارة هشت باريس لنبا انتصار روكر والخاصم ، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون ، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء في الدبلوماسية والحرب . وقد تبين ذكاؤه في حسن تخطيطه للسياسات ، والقواد العسكرية ، والمفاوضين . وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا (١٦٤٨) تفوق فرنسا الذي أكسبته إياها الحرب .

على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيتهما ريشليو ، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره . وقام أصله الأجنبي عقبة في طريقه . ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسي وإن كان لسانه إيطاليا ، إلا أن تأكيده لم تحظ قط بالتصديق التام ، فلقد كان رأسه إيطاليا ، وقلبه ملكا له . ولا علم لناكم من هذا القلب اختص به الملكة ، إنه خدمها وخدم أطعاه بغيرة ، واكتسب ودها ، وربما حبها . وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها في مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشرف الاقطاع . وفي سبيل الأثراء تحسباً للمستقبل إن سقط ، جمع المال بحرص الرجل الذي يذكر الفقر أو يخشاه ، فحكمت عليه فرنسا ، التي بدأت تهجى بفضيلة الاعتدال ، بأنه محدث نعمة ، وساءتها لكونته الإيطالية ، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غاليا ، لاسيما بنات أخيه ، اللاتي تطلب حسنن جهازا مجترقا من الخدم أو الحشم . وقد احتقره الكرد بئال رتو ، مع أن رتو هذا لم

يسكن ركنًا ركنًا لفرضية ، فزعم أنه « إنسان قذر ... ومحتال أصيل ... »
وشرير لثيم (٢) ، على أن رتز - بعد أن هزمه مازاران - لم يكن في وضع
يعينه على إنصاف غريمه . وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون اكثراث
للكرامة ، فإنه أنفقه بذوق رفيع ، فلا حجراته بالكاتب والتحف التي
أوصى بها بعد ذلك لفرنسا . وكان ذا أسلوب مريح مهذب يلد السيدات
ويحير الرجال . وقد وصفته امرأة منصفه تدمي مدام دموتفيل ، بأنه :
« يفيض رقة ، بعيد كل البعد عن صرامة » ريشليو (٣) . وكان سريع العفو
عن معارضيه ، سريع النسيان لفضل ذوى الفضل عليه . وأجمع السكك على
أنه لم يدخر جهداً في حكم فرنسا ، ولكن حتى هذا التفاني كان يسيء إلى
بعض الناس ، لأنه كان أحياناً يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في
حجرات انتظاره . وكان كل إنسان في رأيه قابلاً للرشوة ، وكان عديم
الإحساس بالزاهة . أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضرينا صفحا
عن الشائعات التي أُرجمت بأنه جعل من مملكة خليله له . وقد صدم الكثيرين
في البلاط بدعواته الشكاكة عن الدين (٤) ، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد
فشت بعد في المجتمع الفرنسي ، ومن ثم عزوا تسامحه الديني إلى افتقاره
للإيمان (٥) . وكان من أول أعماله تأكيد رسوم نانت ، فسمح للهيجونوت بأن
يعقدوا مجامعهم في سلام . ولم يسكبد أى فرنسى الاضطهاد الديني من
الحكومة المركزية في عهد وزارته .

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس
له لقد كرهه الفلاحون لما أثقل به كواهلهم من ضرائب يستعين بها على
خوض غمار الحرب ، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة ،
وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الاقطاع . وكرهته « البرلمانات »
لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون . وزادت الممكة من كره الناس له
بحظرها توجيه النقد لحكمه . وقد أيدته لأنها ألغت نفسها في وضع تتجدها
فيه جماعتان رأتا في طغولة الملك ، وفي ضعف المرأة الموهوم ، منفذاً إلى

السلطة : الأشراف الذين عللوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية و « البرلمانات » التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليغاركية من المحامين . إزاء هاتين القوتين - « أرستقراطية السيف » العريقة ، و « أرستقراطية الرداء » الأحدث عهدا - التمسست الملكية درهما لها في عناد مازاران المقترن بالمرونة ولدهاء . وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لحلمه والسيطرة عليها ، والمحاولتان تؤولان حرب الفروند .

بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى (١٦٤٨ - ٤٩) محاولاً أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لنوها قد رفعت البرلمان الإنجليزى فوق الملك مصدراً للقانون وحكماً فيه . وكان برلمان باريس ، بعد الملك ، المحكمة العليا لفرنسا ، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانوناً أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريباً محامون) القانون أو الضريبة . وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها ، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها . وأحس أن قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية ، خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابى . ولكن برلمانات فرنسا الاثنى عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبها الأمة كما كانت الحال فى برلمان إنجلترا ، بل هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائية عن آبائهم ، أو عينهم الملك فيها . ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستحالَت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين . وكان فى الأمكان تطوير مجلس طبقات الأمة ، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث - النبلاء ورجال الدين وباقي الشعب - إلى مجلس نيابى يكبح جماح الملكية ، ولكن مجلس الطبقات لم يكن ملك دعوته للانمقاد إلا الملك ، ولم يدعه أى ملك منذ ١٦١٤ ، وإن يدعوه حتى ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية .

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئة نيابية بصورة غير مباشرة ، وثقافة يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة . فترى أومير تالون ، فى

أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التي أقرت الشعب على عهد ريشليو ومازاران إذ يقول :

« لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام . فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وقاء للضرائب . وتمكيننا لنفر من الناس من أن ينعموا في باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار . . فاقده كل شيء إلا نفوسها - وهذه لم تترك لها إلا لأن أحدا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع (٦) .

وفي ١٢ يوليو، انعقد البرلمان في قصر المدالمة مع غيره من محكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لا بد أنها بدت لها ثورية . فقد طالبوا بخفض ربح الضرائب الشخصية كلها ، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر ، وبطرد النظار الملكيين *intendants* الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاة المحليين ، وبألا يحبس شخص أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين . ولو أن هذه المطالب اجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ماسكية دستورية ، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع انجلترا في تطورها السياسي .

بيد أن للملكة الأم ربطتها بالماضي جذور أقوى من النصر بالمستقبل ، إذ لم يكن لها عهد قط بأي شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة ، وقد أحست أن التخلي عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن منفض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها في صرح الحكومة الوطيد ، وإلى تفويض تلك الركيزة السيكلوجية التي يستمد منها التقاليد والعرف ، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة . ثم يالها من سبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التي تتمتع بها أبوه (أوريشليو) ذلك تقاعس عن واجها سوف يوقعها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ . ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه في هذه المطالب الواقعة من هؤلاء القانونيين المتشيطين . ومن ثم أمر في ٢٦ أغسطس بالقبض على بيير برونسيل وغيره

من زعماء البرلمان : بيد أن بروسيل المجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذي أذاعه : « لا ضرائب » فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام الباليه — رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه . وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم ، كما أطلق اسم « الفروند » على هذا التمرد . على أن جان فرانسوا بول دجورندى — الملقب درتز فيما بعد — مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر ، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل . فلما أبت انسحب غضبا ، وعاون على استمعاء الشعب على الحكومة ، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية في محاولة للظفر بقبعة الكردينالية ، ويعاشر ثلاث خليلات .

وفي ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكي مخترقين الحشود والمتاريس ، تشد أزرهم هتافات تصيح « يحى الملك ! إلى الموت يا مازاران ! » ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة ، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل ، فوافقت ، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتكفت هى والملك الصبي فى ضاحية روبل . وأجاب ما زاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا ، ولكنه طاولة فى تنفيذها . وظلت المتاريس فى الشوارع . فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء ، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بما زاران . ثم عاودت الهروب من المدينة فى ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة فى هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان ، حيث توسد الحرير القش ، ورهنت الملكة جواهرها لتشتري الطعام . أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته ، ولم يحب عاصمة ملكه قط .

وفي ٨ يناير أصدر البرلمان فى أوج تمرد مرسوم طرده به ما زاران من حماية القانون واستعدى عالية كل الفرنسيين الصالحين ليطارذوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما . وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال.

الملسكية واستعمالها في أغراض الدفاح العام . ورأى كثيرون من النبلاء في هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم — قضية استردادهم امتيازات الاقطاع ، ولعلمهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة . وانضم إليها كبار الاقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل ، وبوفور ، وبويون ، وحتى أمير كوتى البوربونى الدم ، وأمدوها بالجند وللأل بوجرارة العاطفة . فأقبلت دوقه بويون ودوقه لونجفيل — الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدرى — مع أطفالهما للعيش في الأوتيل دفيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب . وبينما كانت باريس تنقلب إلى معسكر مسلح ، كانت حاملات الألقاب يرقصن في قاعة المدينة ، وواصلت دوقه لونجفيل غرامها بأمر ماركسيك ، الذى لم يكن قد أصبح بعد الدوق دلا روشفوكو ، ولا اعتنق بعد فلسفته السكبية . وفي ٢٨ يناير رفعت الدوقه من معنوية المتمردين إذ ولدت ابناً لمارسيك (٧) ، وأرتبط كثير من الرواديين بكرائم النبيلات فرساناً تابعين لهن ، فكان يشترين دماءهم بابتسامه متلطفة من ثغورهن .

ثم حالف الحظ الملسكة فأنتقد الموقف عداء بين أمير كوتى وأخيه الأكبر لويس الثانى البوربونى ، أمير كوندبه — وهو « كوندبه العظيم » ذاته الذى قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر في روكروا ولنز . وإذا شئخ بأفقه القوى على تمرد المحامين والقوغاء ، فإنه عرض خدماته على الملسكة والمملك . فوكلت إليه في ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمرده — أى ضد أخيه ، وضد أخته دوقه لونجفيل — والعودة بالأسرة الملسكة في أمان إلى الباليه — رويال . وجمع كوندبه الجند ، وحاصر باريس ، واستولى على شارنتون ، الخفر الآمى الحصين . أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية . وكان الطلب غلطة ، ذلك أن ماطفه الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقي . وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشليو وانتصاراته باعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا ،

وبدأوا يتبينون أنهم إنما يستعملون بيادق أفي محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى ، مستضعفة جماعة . وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفدا إلى الملكة المقتربة ، وعرضوا الخضوع لها ، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكتنون لها الحب . أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفوا تاما ، شريطة أن يضعوا السلاح . وسرح البرلمان جنوده ، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة . وأزيلت المتاريس . وعادت آن ، ولويس ، ومازاران إلى قصبة الملك (٢٨ أوغسطس ١٦٤٩) ، والتأم شمل البلاط من جديد ، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئا لم يقع ، اللهم إلا سحابة قد انقشعت . واغتفر كل شيء ، ولم ينس شيء . ووضعت حرب القروند الأولى أوزارها .

ولكن حربا ثانية مالمبت أن نشبت . ذلك أن كونديه أحس أن خدماته تخول له التروؤس على مازاران . فتشاجر الاثنان ، واتصل كونديه بالنبلاء المتمردين يحس نبضهم ، أما مازاران ففي أجرا لحظات حياته أمر بحبس كونديه وكوتى ولونجفيل في فالسين (١٨ يناير ١٦٥٠) . وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا ، وأثارت حركة تمرد فيها ، ثم مضت منها إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية ، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش . خوافق القائد العظيم على أن يقود جيشا أسبانيا ضد مازاران . يقول فولتير : « واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض ، وأبرموا المعاهدات ، ثم خان كل منهم الآخر واحدا إثر واحد ... ومامن رجل لم يغير ولائه غير مرة » (٨) وقال ريتز ذا كرا تلك الفترة « كذا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح » (٩) . وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشفوكو . على أن الكل أعلنوا ولائهم للملك ، الذي لا بد قد ساهل نفسه : أي نوع من الملكية ذاك الذي استحال هشيا بين يديه ؟

وقامت قوة ملكية بمنورة في بوردو انتهت باستسلامها ، وقاد مازاران جيشا إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس ، وهناك هزم تورين

الذي لا يقهر . أماريتز ، التواق إلى الحلول محل وزير المملكة وعشيقتها ، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنقي مازاران . وفقد الكردينال جراته ، فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين (١٣ فبراير ١٦٥١) ، ودفعه الخوف على حياته إلى الهرب إلى برول القريبة من كولونيا . أما كونديه المتعرق للنار من الوزير والمملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كوتش ، وأخته لونجفيل ، ودوق نامور ولاروشفوكو ، في حلف جديد . وفي سبتمبر أعلنوا الحرب ، واستولوا على بوردو ، وأحالوها موقلا للثورة من جديد . ووقع كونديه تحالفا مع أسبانيا ، وتفاوض مع كرومويل ، ووعد بأن يقيم جمهورية في فرنسا .

وفي ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وأخذ مقاليد الحكم في يده . وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة . ورغبة في تهدئة البرلمان أيد بنى مازاران ، ولكنه استجمع شجاعته في نوفمبر ، فاستدعى الوزير ثانية ، وطاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش . أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياء ، ولكن تورين انحار إلى صف الملك . وفي مارس ١٦٥٢ أوفد لويس حامل أختامه موليه ليطالب بولاء مدينة أورليان . فبعت قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك ما لم يعد هو أو ابنته ليستنقرا أهلها .

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات ، وما أكثرهن ، وكأني بها « جان دارك » ثانية أقبلت لتنقذ أورليان . هذه المرأة — آن ماري لويز دورليان — كانت قد رفعت راية العصيان في طفولتها حين بنى ريشليو أباه . وكان جاستون يلقب رسميا بـ « المسيو » باعتباره شقيق لويس الثالث عشر ، أما زوجته ماري بوربون ، دوقة موبانسييه ، فهي « مدام » ذلك العهد ، وابنتهما إذن هي « المده وازيل » ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارغة القوام فقد سميت « الجرااند مده وازيل دموبانسييه » . وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء للال

والنسب، وكانت تقول « اننى أنتهى إلى بيت لا يفعل إلا ما هو جليل نبيل » (١٠). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن صمها، فلما لم تلق تشجيعاً احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت أباهما يسكره أن يخوض المعركة، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولقد ما أنكرت حرمان النساء من الانحراف في سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست الآن درطاً وخوذة، وجمعت من حولها لقيفاً من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها في مروح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها المدينة خشية إغضاب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسللت وبرفتها كونتيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. ومأان أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها النارية. وهكذا رد موليه عن المدينة خاوى الوفاض، وأقسمت أورليان عين الولاء لـ « عذارى » الجديدة.

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليها من الجنوب، وهزم جيشاً ملكياً، وأوشك أن يأمر الملك، والملكة، والكردينال، ولو فعل لـ « مات الشاه » حقيقة لا محالة. وبينما كان جيشه يدن من باريس، حملت الجماهير — وهم « الفرونديون » هنا أيضاً، رفات القديسة جنيفيف راعية المدينة وطافت الشوارع في موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويسقط مازاران. أما الجيراندمدموازيل فقد هزعت من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذب، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه أبى. واقترع الآن تورين وجيش الملك، والتقى بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الياسمين الآن). وكاد تورين يسكب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت ٢ - قصة الحضارة

مأموره على تضويب مدافعه على جنود الملك . ثم أمرت القوم داخل الأسوار ، باسم أيها الغائب ، أن يفتحوا الأبواب رهة ريثما يدخل جيش كونديه ، ثم يغلّقوها في وجه جيش الملك (٢ يوليو ١٦٥٢) . وهكذا كانت المدموازيل بطلا الساعة .

وغدا كونديه سيد باريس ، ولكن الرعوس المتزنة أخذت تنقلب عليه . ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده ، فبدأوا يهجرونه ، وأفلت زمام الجماهير . وفي ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدي مازاران ، وإظهارا لسخطهم اشعلوا النار في المبنى ، وقتلوا ثلاثين من المواطنين . وتعلّلت العمليات الاقتصادية ، وصمت القوضى إمداد المدينة بالطعام ، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا ، وتساءلت الطبقات المالكة : أليست الأوتقراطية الملكية . بل أليس حكم مازاران ، أهون من حكم الرعاع . وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفي طوعا ، تاركا الفرونديين بغير قضية توحد بين صفوفهم . أما ويتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبضة الكردينالية الحمراء التي طالما اشتهاها ، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك .

وفي ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسه سوء . وافتنق الباريسيون بمنظر الملك الصغير ، البالغ من العمر آنئذ أربعة عشر ربيعا ، وسحروهم حسنه وشجاعته ، ورددت الشوارع هتاف الجماهير « يحمى الملك » وما لبث هياج الشعب أن هدا بين عشية وضحاها ، وأعيد النظام لا بفضل القوة ، بل بهالة الملكية ، وهيبة الشرعية ، وإيمان الشعب — الإيمان نصف اللاشعوري — بحق الملوك الإلهي . وماوا في ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس في نفسه من القوة ماشجعه على دعوة مازاران للعودة وتثبيتته مرة أخرى في جميع سلطاته السابقة . ووضمت حرب الفروند الثانية أوزارها .

وفر كونديه إلى بوردو ، وخضع البرلمان في بطاء ووتار ، واعتكف

النبلاء المتمردون في قصورهم الريفية . والتمست مدام لونغفيل العزاء بين راهبات البور - رويال بعد أن ذهب رواء حسنها . ونفيت الجرائد مدموازيل إلى إحدى ضياعها ، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهي تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران ، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها - أي قضى على أملها في الزواج من الملك . وفي عامها الأربعين أحببت أنطوان كومون ، كونت لوزان ، وكان أصغر وأقصر منها كثيراً ، ولكن الملك رفض أن يأذن لهما بهذا الزواج ، فلما عزم عليه يرغم هذا الحظر سجنه لويس عشر سنوات (١٦٧٠ - ٨٠) . وظلت المدموازيل وفية له في شجاعة طوال سجنه ، ولما أفرج عنه تزوجته ، وعاشت معه عيشة مضطربة صاخبة حتى ماتت (١٦٩٣) . وأما ريتز فقد قبض عليه ، ولكنه فر ، ثم نال العفو ، وخدم الملك مبعوثاً دبلوماسياً في روما ، واعتكف في ركن باللورين ، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعي للخلق ، بما في ذلك خلقه هو يقول فيها :

« لم ألب دور الناظر نفسه للدين ، لأنني لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور للزيف ، وحين أعجزني العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بـ مدام بومرو ، وكانت شابة لعوبا ، لها الممدد الكبير من العشاق ، لا في بيتها فحسب ، بل في مكان عبادتها أيضاً ، بحيث كانت صلات غيري للكشفة معها ستارا لصلاتي بها . . . واستقر رأيي على التهادي في خطاياي . . . ولكني كنت مصمماً كل التصميم على القيام بواجبات مهنتي (الدينية) بأمانة ، وعلى بذل قصارى في تخليص نفوس غيري وإن لم أكرث خلاص نفسي » (١١) .

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار ، وماد سيداً على للملكة ، وخادماً للملك ما زال راغباً في التعلم . وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستنتية وكرومويل قاتل ملكها (١٦٥٧) ، الذي أمان على محاربة كوندبه والأسبان بـ ١٦ سنة آلاف جندي .

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر في « معركة الكشبان » (١٣ يونيو ١٦٥٨) . وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنسكرك ، فدخلها لويس في احتفال رسمي مهيب ، ثم نزل عنها لانتجثة طبعا للمعاهدة . وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس (٧ نوفمبر ١٦٥٩) بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها ، فأنتهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من حرب واحدة ، وأرست أساس حرب أخرى . ونزلت أسبانيا عن روسيون ، وأرتوا ، وجرافلين ، وتيونفيل ، لفرنسا ، وتحلت عن جميع مطالبتها في الألزاس ، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر ، بشروط ورطت فيما بعد غرب أوروبا كله في حرب الوراثة الأسبانية . ذلك أنه تعهد بأن يبعث إليها ، خلال ثمانية عشر شهرا ، بصداد قدره ٥٠٠.٠٠٠ كراون ، ولكنه اتزع منها ومن لويس تنازلا عن حقوقها في ولاية العرش الأسباني . وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كوندية شرطا من شروط الصلح ، فلم يكتب لويس بالصفح عن الأمير العنيف ، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه ، ورحب به في بلاطه .

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو — وخلاصته كسر شوكة الهابسبورج ، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة في أوروبا . واعترف الفرنسيون بفضل مازاران في الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظاهر ، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم ، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء في تاريخ فرنسا . ولكن فرنسا التي سرعان ما نسيت خيانة كوندية ، لم تغتفر قط لما زاران جشعه وحرصه . ففي وسط الفاقة التي كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتي مليون من الفرنكات (١٢) . وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية ، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ، ويقرض الملك بالربا ، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أغلى الحلى في العالم (١٣) .

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول ، وألا يتدخل مسائل السياسة العليا لأى من مساعديه إطلاقا (١٤) . وبعد موته (٩ مارس

(١٦٦١) كشف كولبير للملك عن الخبأ الذي أخفى فيه ثروته . فصادرها لويس ، وأتلع بذلك صدر شعبه ، وعدا أغني ملوك زمانه . وهتف ظرفاء باريس لجينو ، طبيب مازاران ، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله ، وقالوا «أفسحو الطريق لنبالته . إنه الطيب الطيب الذي قتل السكردينال» (٢٥).

٣ - الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا برع دمه . فقد كان نصف أسباني من ناحية أمه آن النمساوية ، ورابع إيطالي من ناحية جدته ماري مديتشي . وقد أوقع بالنقن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين ، وفي أخريات عمره كان أكثر شها بجده لأمه ، فيليب الثالث ملك أسبانيا ، منه بجده لأبيه ، هنري الرابع ملك فرنسا ،

سمى عند ولادته (٥ سبتمبر ١٦٣٨) ديودونيه Disudonné أي «عطية الله» ، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبوته فعلا دون عون من الله . وقد أضر بنمو الصبي وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر ، وموت أبيه الباكر ، واضطرابات الفروند الطويلة الأمد . وكثيراً ما لقي الإهمال وسط انضال آن ومازاران المرة بعد المرة للاحتفاظ بالسلطة . وفي تلك الأيام التي لم تكن ظروفها مواتية لأي ملك ، ذاق مرارة الفقر أحياناً في الملابس الرث والطعام القليل . وببدو أن أحدا لم يهتم بتعليمه ، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان همهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذي سيحكمه بالحق الإلهي ، ولا يسأل عنه إلا أمام الله . ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكييتين ، اللتين سترتدان إليه في قوة بعد أن أنهكت فيسه الشهوات وتضائل سناء المجد . ويؤكد لنا سان - سيمون أن لويس « لم يكده يعله أحد القراءة أو الكتابة » وأنه ظل جاهلاً كل

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق . ولكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة . وما من شك في أن لويس لم يظهر ميلا يذكر للكتب ، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصداقته لمولير وبوالوراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب . وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً ، وكتب يقول « إن الإلمام بالأحداث العظيمة التي وقعت في العالم على مدى القرون الكثيرة ، والتي هضمتها العقول القوية النشيطة ، هذا الإلمام يفيد في دعم الحجة في جميع المداولات الهامة » (١٧) وقد جهدت أمه لتربي فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك ، وبقي الكثير من هذا فيه وإن لوئته إرادة طائشة للقوة . كان فتي جاداً ممتثلاً ، يبدو أطيّب من أن يصلح للحكم ، ولكن مازاران صرح بأن في لويس « من الأصالة والكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلاً شريفاً » (١٨) .

في ٧ سبتمبر ١٦٥١ أطل جون إيفلين من مسكن توماس هوبز في باريس على الموكب الذي رافق الملك الصبي ، البالغ الثالثة عشرة ، متجهاً إلى الحفل المقام بمناسبة إنهاء سن قصوره . وقال هذا الإنجليزى في وصفه « مضى أبولو الصغير هذا أكثر الطريق وقبعتة في يده يحى السيدات والمعجبات اللاتي ازدانت النوافذ بهائن وملاً الجوهرة فنهن « يحى الملك » (١٩) وكان في إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران ، لولا أنه كان يحترم ذلك الدهاء المذهب الذي طبع عليه وزيره ، نسمح له بأن يحتفظ بالمقام تسع سنوات أخرى . ومع ذلك فقد اعترف بعد موت الكوردينال قائلاً « لست أدري ماذا كنت صانعاً لو عمر طويلاً » (٢٠) فلما مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس سائلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم ، فأجاب ببساطة قاطعة « إلى » (٢١) ومنذ ذلك التاريخ (٩ مارس ١٦٦١) حتى أول سبتمبر ١٧١٥ تولى حكم فرنسا بنفسه . وبكى الشعب فرحاً إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة في نصف قرن .

ولقد تهللوا فرحا وتبها بحسنه . قال جان دلافونتين حين رآه في ١٦٦٠ ، ولم يكن بالرجل الذى يخدع بسهولة ، « أتظنون أن فى الدنيا ملوكا كثيرين وهبوا هذا الوجه اللئيم وهذا السم الرائع ؟ لا أظن ، ويخيل إلى حين أراه أنني أرى العظمة مجسمة » (٢٢) لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات ، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول . وإذا كان قوى البدن ، متين البنية ، فارساً وراقصاً ماهراً ، ومثاقفاً بارعاً وراويّة خلاب العبارة . فقد ملك جماع الصفات التى تفتن المرأة وتفتح مغاليق قلبها . كتب سان - سيمون وكان يكرهه ، « لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته » (٢٣) . على أن هذا الدوق (الذى لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدوات من سلطة الحكم) اعترف بكياسته وآدابه الملكوية التى أصبحت الآن مدرسة للبلاط ، ولفرنسا عن طريق البلاط ، ولأوروبا عن طريق فرنسا . قال :

« لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطى لويس الرابع عشر ، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس . . . لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط ، فإذا اضطر أن يلوم ، أو يوبخ ، أو يقوم ، وهو أمر نادر ، فى لطف دائماً تقريباً ، لا فى غضب أو صرامة قط . . . إلا فى مناسبة واحدة . وما عرف الناس رجلاً طبع على مثل هذا الأدب الجم . . . أما مع النساء فلم يكن لتأدبه نظير . ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع لها قبعته ، حتى الخادومات اللاتى يعرف أنهن خادومات . فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يغط رأسه إلا بعد أن يفارقهن » (٢٤) .

على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه . لقد كاد يضارع نابليون فى حكمه الثاقب على الرجال ، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء فيعصر الفيلسوف ، أو سياسة أو غسطس الإنسانية البعيدة النظر . وفى هذا يقول سانت - بوف « لم يؤت أكثر من الإدراك السليم ، ولكن حظّه منه كان موفوراً » (٢٥) ولعله خير من الذكاء . ولنستمع إلى سان - سيمون ثانية « كان بطبعه حقيقياً ،

معتدلاً ، حذراً ، سيداً على حركاته ولسانه » (٢٦) . ويقول مونتسكيو : « كانت نفسه أعظم من ذهنه » (٢٧) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عوضاً عن عزه عن قصور أفكاره . أما علمنا بعيوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص (١٦٨٣ — ١٧١٥) ، حين ضيق التعصب أفاقه ، وأفسده النجاح والتملق . هنا نجده مغروراً غرور الممثلين متسكباً كبرياء الآثار الضخمة . وإن كان بعض كبريائه ربما أضماه عليه الرسامون من صوروه ، وبعضه راجعاً إلى فكرته عن منصبه . فإذا كان قد مثل دور « الملك العظيم » ليلعل عذره أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام ، إذ لا بد من وجود مركز للسلطة ، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه السلطة . قال لولده مرة « يبدو لي أن من واجبتنا أن نكون متواضعين من أجل ذواتنا ، متسكبين من أجل المركز الذي نشفله » (٢٨) ولكنه قل أن تواضع — ربما مرة واحدة ، حين لم يجد غضاضة في أن يصحح بوالوله غلطه في أمر يتصل بالدوق الأدبي . وتقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله في اتزان كثير . وعنده أن خير سجايه حبه للمجد . قال إنه « يؤثر الصيت البعيد على كل الأشياء ، بل على الحياة نفسها » (٢٩) ولكن ولعه هذا بالمجد خدم أعداءه لأنه غالى فيه . كتب يقول « أن تهمسنا للمجد la gloire ليس شهوة من هذه الشهوات الهزيلة التي تنطفيء بمجرد تملك النفس لما تشتهي ، فإن عطايه التي لا تنال إلا بالجهد لا تورث السأم أبداً ، ومن كف عن اشتهاؤ المزيد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاء » (٣٠) .

بيد أنه أوقى حظاً من الفضائل الجليلة ، إلى أن جر ولعه بالعظمة والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده . فلقد أعجب بلاطه بعداته ، وتسامعه ، وكرمه ، وضبطه لنفسه . قالت مدام مونتفيل التي كانت تراه كل يوم تقريباً خلال هذه الفترة « في هذا يجب أن تعترف كل اليهود الملكية السابقة . لهذا العهد بتقدمه عليها في استهلاله السعيد » (٣١) وقد لاحظ القريبون منه ذلك الوفاء الذي كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

شواغله ، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه ، وحرصه على صحتهم وتربيتهم — أياً كانت أهمهم . كان أكثر عطفاً على الأفراد منه على الأمم ، في وسعه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه ، وأن يأمر بتدمير البالاتينات ، ولكنه يحزن لموت روبرت أمير البحر الهولندي ، الذي أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية ؛ وقد كلفته الشفقة على الملكة المخلوعة ، زوج - بييمس الثاني ، وعلى ولده ، حرباً كانت أسوأ حروبه .

ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا ، ولحكمها بسلطان مطلق . وكان في استطاعته بالطبع أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا ، وأسعد بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهي . وقد أخبر ولده في مذكراته (*) التي أعدها لإرشاده أن : « الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيدين للصالح العام » وأنهم « خلفاء الله على هذه الأرض » . ولا بد لهم ، لكي يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح ، من سلطة لا حدود لها ، ومن ثم وجب أن يكون لهم « الحرية الكاملة المطلقة في التصرف في جميع الممتلكات سواء ممتلكات رجال الدين أو العلمانيين » (٣٢) . أنه لم يقل (أنا الدولة) L'état, c'est moi ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة . أما الشعب فيلوح أنه لم تسوّه هذه الدعاوى ، التي حجبها هنري الرابع إليه انتقاضاً على الفوضى الاجتماعية ، لا بل إن أفراداه تطلعوا إلى هذا الملك الفتى في ولاء ديني ، واستشعروا عزة الجماعة في أبعته وجبروته ، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الاقطاع من تفتت وغطرسة . وبعد طغيان ريشليو ، وفوضى الفروند ، واختلاسات

(*) واصل لويس على فترات كتابة « ملاحظات يستعان بها في المذكرات » التي بدأها في ١٦٦١ و حتى ١٦٧٩ حين أضاف إليها « تأملات في حرفة الملك » وفيها الكثير مما يتسم بسلامة الادراك على الرغم من إيمانها بنظرية الحكم المطلق ، وقد تبدو أمامها بحوث الفلاسفة في هذا الموضوع قاصرة . والظاهر أنه أملاها على سكرتيرين كسوها ثوباً أدبياً قشيباً . وهي لا تقل ببدارة بالقراءة عن أي أدب في العصر الذي نحن بصدده .

مازاران ، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة المراكزتين .
في حاكم « شرعى » بدا لهم واعدأ بالنظام ، والأمن ، والسلام .
وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ أن يناقش بعض مراسيمه . ركب من فالنسين في ثياب الصيد ، ودخل قاعة البرلمان في حدائه العالى وسوطه بيده ، ثم قال : « إن السكوارث التى جرتها مجالسكم معروفة مشهورة . لذلك آمركم بأن تفضوا هذا المجلس الذى اجتمع ليناقش مراسيمى . سيدى الرئيس الأول ، إني أمنعك من السماح بهذه الاجتماعات ، وأمنع أى فرد منكم بالمطالبة بها . » ثم نقات وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عليا إلى « مجلس خاص » ملكى ، خاضع للملك على الدوام .

وأدخل لويس على مركز النبلاء فى الحكومة تغييرا جذريا . لقد زودوا البلاط والجيش بأبهة المظهر وبريقه ، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية . ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم معظم العزم والإقامة فى البلاط - أ كثرهم فى « أوتيلاتهم » أو قصورهم الباريسية ، وعظماؤهم فى القصور الملكية ضيوفا على الملك ، ومن هنا هذه الأجنحة الشاسعة التى خصصت لهم فى فرساي . فإذا رفضوا قبول الدعوة فلايس لهم أن يتوقعوا أى فضل يؤثرهم به الملك . وأعنى النبلاء من الضرائب ، ولكن فرض عليهم فى الأزمات أن يهرعوا إلى قصورهم الريفية ، وينظموا ويجهزوا أتباعهم ، ويقودوهم للاضمام إلى الجيش . وقد استطابوا الحرب تخففاً من سأم الحياة فى البلاط - حقا كانوا عاطلين كثيرى النفقة ، ولكن بسالتهم فى ساحة القتال أصبحت فرضا ملزما لطبقتهم . ومنعهم العرف والإتيكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشئون المال - وأن جبهوا الرسوم على التجارة المارة بأملاكهم ، واقترضوا فى غير تخرج من أصحاب المصارف . وكانت ضياعهم يزرعها محاصصون (métayers) يدفعون لهم جزءا من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمكوس الإقطاعية . ويفترض

في السيد الاقطاعي أن يحافظ في اقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر . وكان في بعض الأقاليم يؤدي هذه المهمة أداء لا بأس به ، فيكون محل احترام الفلاحين ، وفي بعضها الآخر لا يبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء تافها ، فضلا عن أن فترات غيابه الطويلة في البلاط كانت تقوض تلك الألفة للمهذبة بين السيد وتابعه . وقد حظر لويس الحروب الخاصة التي كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية ، وأنهى — إلى أجل — عادة المبارزة التي انتعشت خلال حرب الفروند ، وتفاقم خطرهما لأن شهود المبارزين ، لا المبارزين الأصليين فحسب ، كانوا يقتتلون ، ويقتلون ، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه . وقد أحصى جرامون عدد من أودت المبارزات بهم في تسع سنوات (١٦٤٣-١٦٥٢) فكانوا تسعمائة (٢٤) . ولعل احد أسباب الحروب المتكررة تلك الرغبة في إيجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال ، ولكبرياتهم داخل وطنهم ، على حساب الأجانب .

أما الإدارة الفعلية لشئون الحكومة فقد آثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكزهم ومن كان في وسعه أن يركن إليهم في دعم سلطة الملك المطلقة (٣٥) . واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصرف شئون الحكم ، يجتمع كل منها برئاسة الملك ، ويعمل في إعداد المعلومات والتوصيات التي يبني عليها الملك قراراته . فكان « مجلس الدولة » المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات في الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة ، وكان « مجلس الرسائل » يصرف شئون الأقاليم ، و « مجلس المالية » ينظر في الضرائب والإيراد والنصرف . واضطلعت مجالس اضافية أخرى بشئون الحرب ، والتجارة ، والدين ، وانزع الحكم المحلي من أيدي النبلاء المستهترين ونيط به النظار المسكينون ، وسخرت الانتخابات البلدية لتأني بعمد يرضى عنهم الملك . ولو أننا سئلنا اليوم رأينا في حكومة شديدة التركيز كهذه لقلنا إنها ظالمة ، وكذلك كانت ، ولكن أغلب الظن أنها أقل ظالما سبعا من حكم الأوليغاركيات البلدية أو النبلاء .

الإقطاعيين . وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية إقليم أوفرن (١٦٦٥)
للتحقيق في استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية في الإقليم ، رحب الناس
بهذا الاستجواب العظيم Lesgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من
الظلم ، وأثلج صدورهم أن يروا « إقطاعيا كبيرا » يضرب عنقه لأنه قتل
فلاحا ، وأشرافا ، أقل منه شأنًا يلقون جزاءهم على ما اقترفوا من أفعال
محظورة أو قاسية (٣٦) . وبمثل هذه الاجراءات حل القانون الملكى محل
القانون الإقطاعى .

ثم نقحت القوانين لتبلغ من النظام والمطبق قصارى ما يتفق
والارستقراطية ، فحكم « قانون لويس » الذى تكون على هذا النحو
(١٦٦٧—١٦٧٣) فرنسا إلى أن جاء « قانون نابليون » (١٨٠٤ — ١٨١٠)
وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان ،
وقد « أسهم بقوة في تقدم الحضارة الفرنسية (٣٧) » وأنشئ جهاز شرطة
ليكبح إجرام باريس وقذارتها . فترى مارك رينيه ، مركز فوابيه
دارجنسون ، الذى خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائدا عاما للشرطة ،
يترك سجلا مشرفا من الأداء العادل الدؤوب لوظيفة عسيرة . وبإشرافه
رصدت شوارع باريس ، ونظفت تنظيفا معتدلا ، وأضيفت بخمسة آلاف مصباح ،
وأمنت تأمينا لا بأس به للمواطنين ، وأصبحت باريس الآن في هذا كاه
متقدمة جدا على أى مدينة أخرى في أوروبا . ولكن القانون أباح الكثير
من أعمال الممجية والطغيان . ونشرت شبكة من الخبزين في أرجاء فرنسا ،
يتجسسون على الكلام كما يتجسسون على الأفعال . وأبيع اعتقال الأشخاص
اعتقالا تعسفيا بمقتضى الأوامر السرية Lettres de cachet التى يصدرها
الملك أو وزرائه ، وسجنهم سنين دون محاكمة ، ودون أن يحاطوا علما
بجريرتهم . وحظر القانون الاتهامات بالسحر ، وأبطل حكم الإعدام عقابا
للتجديف ، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لا تزاع الاعترافات
من المتهمين . وأجاز القانون عقاب عدد كبير من الذنوب بالحكم

على مرتكبيها بتشغيلهم في سفن أسرى الحرب - وكانت سفنا كبيرة وطبيئة يسيرها بالمجاذيف المذنبون موثقين بالسلاسل إلى المقاعد . وخصص ستة رجال لكل مجذاف طوله خمسة عشر قدما . وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التي يحددها ، وأجسادهم عارية إلا من وزرة ، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم مخلوقة ، وأحكامهم طويلة الأمد ، ومن الجائز مدها تعسفا إذا لم يذعنوا للأوامر إذعانا تاما ، فيفرض عليهم رقم أعواما بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم . ولم يخف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافه أو استجداء الصدقات وهم يسرون أزواجاً في أغلالهم .

أما لويس نفسه فوضع فوق القانون ، حرأ في أن يأمر بأي عقوبة لأي ذنب . وفي ١٦٧٤ قضى بأن تجدد أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود في نطاق خمسة أميال من فرساي . وكثيراً ما كان رحيما واسكته كثيراً ما كان صارما قال لولده : « إن مقدار أحمد ودأ من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبي ؛ ولو انني اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شرورا متعاقبة لانهاية لها . ذلك أنه ما إن يضعف الملك في إنفاذ ما أمر به ، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام ... فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا ، التي يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلا من المملك الشرعي (٣٩) .

وكان دائم العكوف على ما سماه « حرفة الملك » *le métier de roi* . يطلب إلى وزرائه أن يوافوه بالتقارير الكثيرة المفصلة ، ولا يدانيه رجل في مملكته اطلاعا على أحوالها . ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه ، وقد نزل أحيانا على رأي مستشاريه . ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه ، شريطة ألا يغيب عنهم أنه الملك - قال مرة لفوبان : « ثابر على أن تكتب إلي بكل ما يعين لك ولا تفتر لك همة ولو لم أفعل دائما ما تشير به » (٤٠) . وكانت عينه على كل شيء - الجيش والبحرية ، والمحاكم ، وبيته ، والمالية ، والكنيسة ، والدراما ، والأدب ، والفنون ، ومع أنه في

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أكفاء مخلصون ، فإن السياسات والقرارات الخطيرة ، والجمع بين شتى نواحي الحكم المعقد في وحدة متسقة - كل هذا كان من صنعه هو . لقد كان ملصكا كل ساعة من ساعات يومه . ولقد كلفه هذا من أمره عنتا . كان هناك من يقوم على خدمته في كل خطوة بخطوها ، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغسيل في كل حركة وسكنة فكانت مبارحته لفراشه وذهابه إليه (إذا كان منفردا) بعض وظائف الدولة . فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمي (lever) استمع إلى القداس ثم أفطر ، ثم مضى إلى قاعة المداولة ، وخرج منها حوالى الواحدة ، فتناول وجبة كبيرة ، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد ، تحيط به بطائنه وخدمته . فإذا فرغ من طعامه تمشى عادة في الحديقة ، أو خرج للصيد ، يرافقه أثرؤه في ذلك اليوم . فإذا عاد أنفق ثلاث ساعات أو أربعا في اجتماعات مجلسه ، ثم لحق بحاشيته في ملاهيهم من السابعة إلى العاشرة - حيث الموسيقى ، ولعب الورق ، والبليارد ، والغزل ، والرقص ، والاستقبالات ، وحفلات الرقص ، وفي فترات من هذا الروتين اليومي « يتحدث إليه من شاء » (٤١) وإن لم يجرؤ على هذا إلا القليلون . « لقد أعطيت رعاياي كلهم ، دون تفرقة ، حرية مخاطبتي في جميع الساعات ، سواء بأشخاصهم أو بملابسهم » (٤٢) وحوالى الساعة العاشرة مساء ، كان الملك يتناول العشاء رسميا مع أبنائه وحفدته ، وأحيانا مع المملكة .

ولقد كان من أسباب التهذيب والتثقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ مليكها لمهام الحكم مواظبا عليها ساعات سبعا أو ثمانى طوال ستة أيام في الأسبوع . كتب السفير الهولندى يقول : (لا يصدق المرء أى سرعة ، وأى وضوح ، أى قدرة على التمييز ، وأى ذكاء يعترف به هذا الملك الشاب أعماله وبفرغ منها ، وذلك في تلفظ كثير مع جميع من يتعامل معهم ، وفي طول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبه أن يقول ، الأمر الذى حبيب فيه كل القلوب) (٤٣) ولقد تأثر على هذا التفانى في تعريف شئون

الحكم طوال أربعة وخمسين عاماً ، لا يسكف عنه حتى وهو يلزم فراش المرض . وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعداداً وافياً . « فما كان ليحسم في أمر عفو الساعة ، ولا دون مشورة » (٤٥) تم أنه يختار مساعدية بقطنة عجيبة ، ولقد ورث بعضهم - ككولبير - من مازاران ، ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم ، حتى موتهم عادة . وكان يبذل لهم كل لطف ومجاملة ، وكل ثقة معقولة ، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم . كنت بعد أن اختاروزرائي لا يفوتني أن أدخل مكاتبهم على غير توقع منهم . . وهكذا أحطت بالآلاف الأشياء التي أفادتني في تحديد طريقي (٤٦) »

وحكمت فرنسا ، في أيام شمسها الصاعدة تلك ، خيراً مما حكمت في أي عهد مضى لغيرهم تركيز السلطة والإدارة ، أو بفضل هذا التركيز ، وبرغم تحكم يد واحدة في عتيد وسط الحكم كلها ، أو بفضل هذا التحكم .

٣ - نيقولا فوكيه : ١٦١٥ - ٨٠

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزتها الاختلاسات في عهد مازاران . وكان نيقولا فوكيه ، الذي شغل منصب « ناظر المالية » منذ ١٦٥٣ ، يدير شئون الضرائب والمصروفات بأصابع حريصة وبدقيرة . فقد قل من عوائق التجارة الداخلية ، وتشطتو التجارة الفرنسية فيما وراء البحار ، واقتسم في احساس بالواجب غنائم منصبه مع ملتزمي الضرائب ومع مازاران . وكان هؤلاء الملتزمون العموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء تخويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغاً محدداً . وقد جبوها بكثير من الجشع الفعّال الذي جعلهم أبغض الأشخاص إلى الناس في المملكة ، وقد أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزماً خلال الثورة الفرنسية . وجع فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين العموميين أضخم ثروة اقتناها فرد في جيله . وفي سنة ١٦٥٧ كلف المعمارى لوى لافو ، والمصور شارل لبرون ،

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لوتز ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الربى الفخيم المتراعى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتمائيل . وقد استخدم للشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل (٤٠) ، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتمائيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلود والفرآن دون تفريق . وروى أن هذه القامات الأنيقة كانت تتسلل إليها لساء من أنبل الأسر ليؤنسهن بشمن غال (٤١) . ويمثل هذا الذوق ، ولكن بشمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنبي ، وموليير ، ولافوتين ، ليجمعهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الفانون في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب . ومثل موليير في حدائق القصر ملهاته (Les Fâcheux) (الثقلان) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار (Quo non ascendam ?) (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للأنسة دلافالير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنمته أمته بأن في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفي سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذه القائد

ورسام المناظر الطبيعية « اندريه لوتير » ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكون الربى العظيم للترامى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل ، وكلف ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧.٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القامات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أهل الأسر ليؤنسهن بثمرن غال » . ويمثل هذا الذوق ، ولكن بثمرن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كوربي ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمع بهم صالونه . ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون في مصدرها . فطلب إلى كوليير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كوليير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب ، ومثل موليير في حدائق القصر ملهاته « Lex Facheux » (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠.٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار « Quo non asceniam ? » (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للأنسة دلا فالير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاذباً مر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعت أمه بأن في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص للملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفي ٩ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد « mouquetaire » هو شارل دباتز ، السيد دارقنيان ، بطل قصة ديماس الأبدي) . وأصبحت

٣ — قصة المضارة

المحاكمة التي اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا في تاريخ المهد . وكأخت مدام دسفينيه ، ولافوتتين ، وغيرهما من أصدقاء فوكيه ، وتوسلوا إلى الملك ليبري ساحته ، غير أن الأوراق التي عثر عليها في قصره الرئفي أدانته . حكمت عليه المحكمة بالنفي ومصادرة أملاكه ، وعدل الملك الحكم إلى السجن مدى الحياة . وظل الوزير الذي كان من قبل رجلا مرححا ، ستة عشر عاما ، يذوى في سجنه بقلعة بنيرول بييدمونت ، ولا يسرى عنه إلا صحبة زوجه الوفية . لقد كان حكيما قاسيا ، ولكنه قلم أظفار الفساد السياسي ، وأندر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز لا يختص به غير الملك .

٤ - كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول : « لقد أشركت كولبير .. مفتشا مع فوكيه لكي أراقبه .. وهو رجل منحه ما استطعت من ثقة ، لأنني كنت عليا بذكائه وجده وأمانته (٥٠) » ، وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تعقبه مدفوعا بالرغبة في الانتقام منه ، ولعل كولبير استشعر شيئا من الحسد للرجل ، ولكن فرنسا ذلك المهد لم تنجب ضربيا لـ كولبير في تفانيه الدؤوب في خدمة الصالح العام . روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت « مولاي ، إني مدين لك بكل شيء ، ولكني أدفع ديني .. باعطائك كولبير (٥١) » .

كان جان بائيست كولبير ابن قماش في رامس ، وابن أخى تاجر غنى ، وإذ كان بورجوازيا بدمه ، اقتصاديا بحيطه ، فقد درب على كراهية القوضى والعجز ، وأعد بفطرته وبطول المرانة لتغيير اقتصاد فرنسا من جهود الفلاحة والثغمت الاقطاعي إلى نظام موحد قوميا ، يشتمل الزراعة والصناعة والتجارة والمال ، يواكب ملكية مركزية ، ويهيء لها الأساس المادي لمعظمها وسطوتها

دخل كولبير ديوان الحربية سكرتيراً صغيراً في العشرين (١٦٣٩) وما لبث أن شق طريقه بمجده إلى حيث استمرى نظر رؤسائه ، فنقل إلى خدمة مازاران ، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال . فلما سقط فوكيه ، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هي إعادة تنظيم مالية الأمة . وفي ١٦٦٤ أضيفت إليه مهمة الإشراف على المبانى ، والمصانع الملكية ، والتجارة ، والفنون الجميلة ؛ وفي ١٦٦٥ عين مراقباً عاماً للمالية ، وفي ١٦٦٩ عين وزيراً للبحرية ، ثم وزيراً للخاصة الملكية . ولم يرق رجل آخر في عهد لويس الرابع عشر يمثل هذه السرعة ، ولا اشتغل بمثل هذه المهمة ، ولا حقق مثل ما حققه من أعمال . بيد أنه لوث أرتقاع بمجاراته أقرباءه ، إذ أغدق الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير ، وغالى في مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته . وكان نهبا للغرور ، يتشبث بأنحداره المزعوم من ملوك اسكتلنده ، وقد يعبث عبثاً منكرراً بالقوانين القائمة تعجلاً لقضاء المصالح ، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها في الجهات العليا . فلما استفحل سلطانه غدا مستبدأ ، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق . وقد استخدم في إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسى نفس الأساليب الدكتاتورية التى استخدمها ريشليو من قبل في إعادة تشكيل الدولة الفرنسية . وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة .

بدأ بفحص أساليب المالىين الذين يجبون الضرائب ، ويزودون الجيش بالسلاح ، والملابس ، والطعام ، ويقدمون القروض للاقطاعيين أو لخزانة الدولة . وكان بعض هؤلاء المصرفيين يعدلون الملك ثراء . فبلغت ثروة صموئيل برنار مثلاً ٣٣.٠٠٠.٠٠٠ رنيه (٥٢) . وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقهم ، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها ، وبالعيش في ترف لا يقوى عليه من لا يملكون غير عراقة النسب . وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى ١٨ ٪ حسب درجة الشك في الوفاء بالقروض . وبناء على طلب كولبير شكل الملك « غرفة عدالة » للتحقيق

في جميع المخالفات المالية التي ارتكبت منذ ١٦٣٥، والتي اقترفها أي شخص أيا كانت صفته أو حالته (٥٣) « وطلب إلى جميع موظفي الخزانة ، وجباة الضرائب ، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم ويدينوا شرعية مكاسبهم ، وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات . وبثت الغرفة موظفيها في طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين . وأودع السجن عدة رجال أغنياء ، وأرسل البعض إلى مراكز تشنيل الأسرى ، وشنق البعض الآخر . وصعقت الطبقات العليا لهذا « الأرباب الكولبيرى » ، أما الطبقات الدنيا فصعقت له استحسانا . ونظم رجال المال في برجنديا حركة تمرد على الوزير ، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح في وجوههم ، ولقيت الحكومة عمثا في إنقاذهم من غضب الشعب . ورد للاخزاة نحو ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ من الفريكات ، وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلا كاملا (٥٤) .

ومضى كولبير يعمل منجلا الوفر في خزانة الدولة . فرفت نصف الموظفين في وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذي اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة الملكية التي تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدي أصحابها واجبات . فطرد عشرون من « سكرتيرى الملك » ليكسبوا قوتهم بطريق آخر . وخفف تخفيضا قاسيا عدد المحامين العامين ، وضباط النظام ، والمستقبلين ، وغيرهم من صغار الموظفين في البلاط الملكي ، وأمر كل موظفي الخزانة بأن يمسكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص . وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل . ثم بسط جباية الضرائب . ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بإلغاء كل الضرائب التي لم تسدد عن المدة ١٦٤٧ — ٥٨ . ثم خفض معدل الضريبة في ١٦٦١ ، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية في ١٦٦٧ لكي يمول « حرب الأيلولة » واسراف فرساي .

يبد أن أسوأ مامنى به من إخفاق كان في احتفاظه بنظام الضرائب

القديم . ولعله لوقبله من أساسه لأحدث من الاخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيراد الدولة . ذلك أن الدولة كانت تمولها أساساً ضريبتان - التالى (الرهوس) والجابيل (الملح) . وكانت ضريبة التالى تقدر فى أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية ، وفى غيرها على أساس الدخل . وقد أءفى منها الأشراف والسكينة ، فوقعت كلها على كواهل « الطبقة الثالثة » - التى تلتظم باقى السكان وكان يطلب إلى كل إقليم أن يحى مبلغاً محدداً ، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر . أما الجابيل فضريبة على الملح . فقد احتسكرت الدولة بيمه ، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دورياً كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة . وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة ، وعشر محصول الفلاح الذى يجب أداؤه للكنيسة . على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير (٥٥) ، وكانت تراعى الرأفة فى جبايتها .

وكانت الزراعة أقل المرافق تأثراً باصلاحات كوليز . إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجوت عن إحاشة عشرين مليوناً من الأنفس يتسكثرون بغير حساب . وكان لكثير من الأزواج عشرون ولداً . ولولا الحرب ، والمجاعة ، والمرض ، وارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال ، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة (٥٦) ، ومع ذلك منى كوليهر الاعفاءات الضريبية للزواج المبكر ، والمكافآت للأسر الكبيرة (ألف جنيه فرنسى للاباء إذا كان لهم أبناء عشرة ، وألفين إذا كانوا اثنى عشر ولداً (٥٧) .) بئذ ذلك بدلا من أن يعمل على زيادة خصوة القرية . وقد احتج على تسكثرا الأديان لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا (٥٨) . على أن نسبة المواليد فى فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس ، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر . ولم يكن حتى فى هذه الحال لم تقتل الحرب ما يكفى لحفظ التوازن بين المواليد والطعام ، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب . وكان نقص المحصول سنتين متتاليتين كفيلا بإحداث المجاعة ، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع بكميات سد العجز فى إقليم من الإقليم فى آخر . ولم تحمل سنة ثمن مجاعة . فى

مكان ما بفرنسا (٥٩) وكانت السنوات ١٦٤٨ - ٥١ ، ١٦٦٠ - ٦٢ ، ١٦٩٣ - ٩٤ ، و ١٧٠٩ - ١٠) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعا ، حين بلغت نسبة الموتى من السكان في بعض الأقاليم ثلاثين في المائة . وفي ١٦٦٢ استورد الملك القمح وباعه للفقراء بثمن بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (٦٠) .

وخفف التشريع بعض مآسى الريف ، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وفاء للدين ولو كان ديننا للتاج . وأسست مزارع للاستيلاء تتمهد أنراس الفلاح مجانا ، ومنع الصيادون من اختراق الحقول للبذورة بالحلب ، وقدمت الاعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضي المهجورة ويزرعونها . ولكن هذه الملطفات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة — مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة التربة ، والافتقار إلى الاختراعات الآلية . على أن فلاحي أوروبا على بكرة أبيهم كانوا يلقون مثل هذا العنت ، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالا من نظرائهم في انجلترا أو ألمانيا (٦١) .

لقد ضحى كولبير بالزراعة قربانا للصناعة ولكي يطعم سكان المدن المنكائين ، وجيوش الملك المتعاظمة ، حظر رفع سعر الغلال بما يتناسب وغيرها من الخمامات . وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التي تبتهى التمتع أن تملك موارد كافية وجيشا من الجند الأشداء المجهزين تجهيزا حسنا ؛ فطبعة الفلاحين المتمرسه بالمهاق تزود البلاد بمشاة أقوياء ، والصناعة والتجارة الناميتان لا بد أن توفر الثروة والأدوات . ومن هنا كان هدف كولبير الذي لم ينن دونه هو أن يشجع الصناعة ، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف ، فلا بد أن تحمي الصناعات الوطنية بالرسوم الجمركية التي تبعد المنافسة الخطرة من خارج البلاد . وجريا على السياسات الاقتصادية التي انتهجها صلي وريشليو ، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية — إلا أقلها شأنًا — لسيطرة الدولة النقابية : فكانت كل صناعة ، بطوائفها ، ومالياتها

ومعلميها ، وصبيتها ، وعمالها اليوميين ، تؤلف نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات ، والأسعار ، والأجور والبيوع . وأرسى المعايير الرفيعة لكل صناعة أملا في كسب الأسواق الأجنبية بمجودة التصميم والصقل في المنتجات الفرنسية . وقد آمن هو ولويس بأن التذوق الأرسقراطي للاناقة يدعم الحرف السكالية ويحسنها ، ومن ثم وجد الصاغة ، والنقاشون ، وتجارو الأثاث ، ونساجو الأقمشة المرسومة ، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد .

وأهم كولبير مصنع جوبلان في باريس تأميا تاما ، وجعله نموذجا في الأسلوب والتنظيم . وشجع المشروعات الجديدة بالاعفاء الضريبية ، والقروض التي تمنحها الدولة ، وخفض سعر الفائدة إلى ٥٪ ، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها . وقدم الحوافز لمهرة الصناعات الأجنبى حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا ، فاستوطن صناع الزجاج البنادقة في سان - جوبان ؛ وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد ؛ وأنشأ بروتستانتى هولندى في أبفيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفّل له حرية العبادة ورأس المال الذى اقترضته إياه الدولة . فما وافى عام ١٦٦٩ حتى بلغ عدد الأنوال في فرنسا ٤٤٠٠٠ ، وكان في تور وحدها ٢٠٠٠ نساج . وقد زرعت فرنسا أشجار توتها ، وكانت آتخذ مهبورة بأقمشتها الحريرية . وتضاعفت مصانع النسيج لتلبى حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة . وهكذا اتسعت الصناعات الفرنسية سريعا بفضل هذه الحوافز . وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية ، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية في الاستثمار ، والتجهيز ، والإدارة . وصادفت رسالة التصنيع التي آمن بها كولبير هوى في نفس الملك ، ففقد الورش ، وسمح بأن تحتم المنتجات الفاخرة بنهاية السلاح الملكى ، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعى ، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين .

وشجعت الدولة التعليم العلمى والتقنى أو وفرتة للشعب . وغدت الورش

في اللوفر ، والتويلري ، ومصانع الجوبلان ، وأحواض سفن البحرية ، مدارس يتعلم فيها الصبية من الصناعات . وسبق كولبير موسوعة ديدرو ، إذ احتضن موسوعة للفنون والحرف ، ووصفها مصورا لكل الآلات المعروفة (٦٢) . ونشرت أكاديمية العلوم بحوثا عن الآلات والفنون الميكانيكية ، وسجلت « صحيفة العلماء » تقنيات صناعية جديدة . وقد أخذ العجب بيرو - وهو يبنى الواجهة الشرقية للوفر - حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر تزن ١٠٠.٠٠٠ كيلو (١٠٠ طن) (٦٣) . على أن كولبير عارض إدخال الآلات التي ينجم عنها تعطل العمال (٦٤) .

وإذ كان شديد الولع بالنظام والكفاية ، فقد أُمم تنظيم الصناعة بواسطة الحكومات أو الطوائف الصناعية . وتوسع في هذا التنظيم توسعا أو شك أن يكون خاتما . وراحت مثاث من الأوامر تصف أساليب الصناعة ، وحجم المنتجات ولونها ونوعها ، وساعات العمل وظروفه ؛ وأنشئت اللجان في جميع قاعات المدن لفحص العيوب في إنتاج الحرف والمصانع المحلية . وعرضت ملائمة عينات من الصنعة للمعينة وإلى جوارها اسم الصانع أو المدير . فإذا عايد المخالف إلى مخالفته وبخ في اجتماع للطائفة فإن عاد ثالثة شد إلى عمود تشهيرا به وتنكيلا (٦٥) . وشغل كل ذكر قادر على العمل ، وجند الإيتام من ملاجئهم ليخدموا في المصانع ، وأخذ المتسولون من الشوارع إلى المصانع ، وقال كولبير للملك في اغتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض المال في المصانع .

وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكري . فالنكسل وعدم الكفاية ، والشتم ، والأحاديث المايية ، والعصيان ، والسكر ، والاختلاف إلى الحانات ، ومعاشرة الخليلات ، وعدم الخشوع في الكنيسة - كل أولئك يجب أن يعاقبه رب العمل ، وبالجلد أحيانا . أما ساعات العمل فطويلة - وقد تبلغ اثنتي عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين أو أربعين دقيقة لتناول الطعام . وأما الأجور فضئيلة ، يدفع جزء منها أحيانا سلبا يحدد

رب العمل أسماها . وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومي الذي يتقاضاه مهرة الصناع في المدن الكبيرة فكان اثني عشر سوا (ثلاثين سنتا) في اليوم ، ولكن السوا الواحد كان يشتري رطلا من الخبز (٦٦) . واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التي تعفى العمال من العمل ، وبقي من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوما ، فكان مجموع أيام الراحة في السنة تسعين (٦٧) . وحرمت الاضرابات ، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم ، وقد سجن بعض العمال في روشفور لأنهم شكوا ضالة أجورهم . ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال ، وارتفعت موارد الدولة ، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها في العصور الوسطى (٦٨) . لقد أخضعت فرنسا للنظام المصارم في الصناعة كما أخضعت في الحرب .

أما في مجال التجارة ، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة في جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغي أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتي داخل الأمة ، وأنه ما دام الذهب والفضة عظمى القيمة بوصفهما وسيطين في المبادلة ، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تكفل للأمة « توازنا تجاريا في صالحها » أي زيادة في الصادرات على الواردات ، ومن ثم تدفقا للفضة والذهب إلى البلاد . وبهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا ، وأنجلترا ، والأقاليم المتحدة - وكلها لم تكن تربتها تحوى ذهباً ، أن تحصل على حاجاتها ، وأن تمون جيوشها من الحرب . وهذه هي « المركنتلية » mercantilism . ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها ، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها في عصر كثير الحروب . ولقد طبقت على الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التي كانت في العصور الوسطى تطبق على السكوميون . ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل السكوميون وحدة الإنتاج والحكم . إذن فبمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمكيناً لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها في الأسواق الأجنبية . وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد ، ويجب أن يكون جزاء أرباب العمل وفيما

حفزنا لهم على الاضطلاع بالمشروعات الصناعية لصنع السلع ، لاسيما السكاليات ،
التي لا تنفع لها في الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء عائد
كبير ، ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة لإغراء للمقاولين باقتراض
رأس المال ، وهكذا نرى طبيعة التنافس التي قطر عليها الإنسان ، في تلك
الغاية التي لا تخضع لقانون والتي تصطرع فيها الدول ، قد كيفت اقتصادها
الوطني وفق فرص الحرب وحاجاتها . فالسلام ليس إلا حربا بوسائل أخرى .
إذن فوظيفة التجارة في رأى كولبير (بل في رأى صلي وريشليو
وكر وموبل أيضا) تصدير السلع المصنوعة نظير المعادن النفيس أو الخيامات .
ومن ثم نراه في ١٦٦٤ ، ثم في ١٦٦٧ ، يرفع الرسوم على الواردات التي
هددت بأن تنافس في فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية
في الحرب ، فلما استمر جلب هذه الواردات حظرها بتاتا ، وفرض رسوم
تصدير باهظة على المواد الضرورية ، ولكنه خفض الضريبة على تصدير
السكاليات .

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية . وقد وجد أن
التجارة الفرنسية تعترض سيرها الموقوفات من الحواجز والتعريفات الإقليمية
والبلدية والعزبية . من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش ، أو من
سويسرة إلى باريس ، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة ، ومن
أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين . وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس ،
يوم كان كل إقليم بطمح إلى الاكتفاء الذاتي وبمجاهد في حماية صناعاته ،
وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعي أو تنازع
الكومونات . أما وقد توحدت فرنسا سياسيا الآن ، فقد غدت هذه
المكوس الداخلية عقبة كبؤودا في طريق الاقتصاد القومي وحاول كولبير
بمرسوم أصدره في ١٦٦٤ أن يلغى جميع المكوس الداخلية ، ولكن للقاومة
كانت عنيدة ، ففي نصف فرنسا استمرت المكوس ، وظل بعضها إلى عهد
الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة . وكاد كولبير أن يقضى على

الجهد الذى بذله لتوسع التجارى بإصداره اللوائح المقدمة التى استهدفت اصلاح مافسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحيانا . قال (هو . أو أحد نقاده) « أن الحرية روح التجارة ، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم » .

(Il faut Laisser faire les hommes) (٦٩) ، هنا عبارة قدر لها أن .

تصنع التاريخ .

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلى . فبدأ مجموعة من الطرق الرئيسية للملكية ، وكانت حربية فى هدفها الأول ؛ ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة . كان السفر بالبر لا يزال شاقا بطيئا . مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام فى رحلة بالمركة من باريس إلى ضيعتها فى فيتره بربتاني . وبناء على اقتراح من بيربول دريكيه ، استخدم كولبير اثني عشر ألف رجل فى حفر قناة لا مجدوك الكبرى ، التى بلغ طولها ١٦٢ ميلا ، وارتفعت أحيانا إلى ٨٣٠ قدما فوق سطح البحر ، ولم يحل عام ١٦٨١ إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج بسكاي عن طريق الرون والقناة . والجارون ، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا .

وكان كولبير ينظر بين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الآلاف العشرين التى تمخر العباب ، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستائة . ومن ثم بنى شيئا فشيئا البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها ٢٢٠ بعد أن كانت لاتتجاوز العشرين ، وأصلح للرافى وأحواض السفن ، وألزم الرجال فى غير هواة بالانخراط فى سلك البحرية ، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بجزر الهند الغربية ، والشرقية ، وبحر للشرق ، والبحار الشمالية . ومنح هذه الشركات امتيازات الحماية ، ولكن هنا أيضاً عطلتها اللوائح التى فرضها عليها تعطيلاً مدصرا . ومع ذلك نمت التجارة الخارجية ، ونافست البضائع الفرنسية للنتجات الهولندية أو الإنجليزية فى البحر السكاربي ، والشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى . وغدت مارسيليا

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ما أصابها من اضطعلال لقلة السفن الفرنسية . وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير (١٦٨١) قانونا بحريا للسفن والتجارة الفرنسيين ، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقتة . ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار . وبارك اشتراك فرنسا في تجارة الرقيق ، ولكنه جاهد ليلطف من قسوتها باللوائح الرحيمة (٧٠) .

وقد شجع الارتياح الجغرافى وإنشاء المستعمرات ، أملا فى أن يبيحها السلع المصنوعة نظير خاماتها ، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع فى الحرب . وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلا فى كندا ، وغرب أفريقيا ، وجزر الهند الغربية ، وفى طريقهم إلى داخل مدغشقر ، والهند ، وسيلان . وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى (١٦٧١ — ٧٣) . وأسس كاديك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت . واستكشف لاسال المسبى فى ١٦٧٢ (بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق فى الأقاليم التى يفتحها) ، وهبط فيه فى مركب هزيل ، فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات . واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك . فسيطرت فرنسا على وادى سانت لورنس والمسبى فى قلب أمريكا الشمالية .

جملة العقول — ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير ، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده فى سبيل العلم والأدب والفن — أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم ماسجله التاريخ تفانيا فى العمل وسعة فى الإبتشار . فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهبا واحدا مثل ذهنه صنع من جديد على هذا النحو دولة بهذه العظيمة فى نواح بهذه الكثيرة . صحيح أن هذه اللوائح والنظم كانت مرعجة ، وقد نفرت الناس من كولبير ، ولكنها شككت القلوب الاقتصادية لفرنسا الحديثة . ولم يقل نابليون أكثر من مواصلة جهود

كولبير ومراجعتها سواء في الحكم أو القانون . وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء ما لم تعرفه من قبل . ثم انحسر هذا الثراء لعيوب النظام ، وأخطاء الملك . وقد احتج كولبير على أسراف الملك والبلاط ، وعلى آفة الحرب التي كانت تنجر في جسد فرنسا في شيخوخته ، ولكن التعاريف العالية التي فرضها ، شأنها في هذا شأن ولع لويس بالسطوة والمجد — هي التي التي أفضت إلى بعض هذه الحروب . وندد غرماء فرنسا البحريون بإفقال موانئها في وجه بضائعهم . ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء اصلاحات كولبير ، بل أن رجال الأعمال الذين أثرتهم هذه الاصلاحات اتهموه بأن لوائحه عوقت التطور . قال أحدهم للوزير « لقد وجدت العربية مقلوبة على أحد جنبها ، فقلبتها على الآخر » (٧١) فلما مات (في سبتمبر ١٦٨٣) رجلا محطما مهزوما ، اضطر ذووه إلى دفن جثمانه ليلا مخافة أن يسبه الناس في الشوارع (٧٢) .

٥ - الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحلة . وكان اللباس شعبية للمركز الاجتماعي . فهو في أوساط القوم غاية في البساطة — سترة سوداء تغطي في تواضع القميص والسراويل والسيقان . أما في الصفوة فهو بهي فاخر ، وهو في الرجال أبهى وأفخر منه في النساء . فكانت القبعات كبيرة لينة ، لها حاشية عريضة مزركشة بمجديلة من ذهب ، تمال إلى أعلى في جانب أو ثلاثة جوانب ، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدني . وحين ارتقى لويس العرش نبذ — ونبذ من بعده البلاط — تلك الباروكات التي أشاع زيتها أبوه الأصلع ، فقد كانت تلافيف شعر الملك الشاب السكستنائي أروع وأبهى من أن تحبأ ، ولكن حين بدأ شعره ينجل بعد ١٦٧٠ ، اتخذ الشعر للمستعار ، وما لبث أن توج كل رأس — أيا كان طموح حامله — وسواء في فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا ، بقمص مستعارة مبدرة تنسدل

إلى السكتين أو ما تحتهما، وتجعل كل الرجال يبدون سواسية إلا لضعفائهم .
 أما الإحى فحلفت ، وأما الفوارب فاحتفل بها ، ومدت القفازات إلى مافوق
 الرسغ وزينت ، وارتدى الجنسان فراء اليدين في الجو البارد . واستميض
 عن طوق الرقبة للكشكش العالى بلفاع حربرى يعقد هينا حول العنق .
 وأخذ يحمل محل الصدر ثوب طويل مزخرف ، وزين الفخذان بسر اويل
 « كيلوت » تمتد إلى الركبتين وتقل بمشابك أو تعقد بأشرطة عندهما ،
 ثم تغطى هذه الثياب — إلا من أمام — بسترة ملتفة تنتهى أكامها
 بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدنتلا . واختص القانون النبلاء
 بتحلية ثيابهم بوشى من الذهب أو بالأحجار الكريمة ، ولكن ذوى
 اليسار من أى طبقة نجاهلوا هذا القانون . أما الجوارب الطويلة فكانت عادة
 من الحرير ، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى
 لحفلات الرقص .

أما النساء المهنذبات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتفق وفضائلهن .
 وكانت صدارتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج في
 كتاب رابليه ، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة . وأما التنورة
 للطوقة والأكام المنفوخة فولت مع ريشليو . وحفلى الأرواب بالتطريز
 والألوان المشرقة ، وكست الأحذية العالية المبهجة الأقدام المتعبة ، وربط
 الشعر بالأشرطة ، وصرع ، وعطر ، وجمد ، فى تأاق . . وظهرت أولى
 مجلات الأزياء فى ١٦٧٢ .

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والرخامة ، وأن بقيت جلافت
 كثيرة تحت أبهة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار . فكان الرجال
 يمسقون على أرض الحجر ، ويبولون على سلم اللوفر^(٧٣) وقد ينقلب للأراح
 وحفيا أو بذيثا . ولكن الحديث كان زشيقا مهذبا ، ولو دار حول
 الفسيولوجيا والجنس . وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

والحديث ، قيتكلمون في عبارة واضحة سليمة ، ويتشكبون الحشو والخذلقة ، ويتناولون جميع الموضوعات مهما اشد صمقها بمرح خفيف روحا وعبارة . وكان الاحتداد في الجدل من سوء الأدب . وأما آدب المائدة فأخذت تتحسن . كان الملك يأكل بأصابعه طوال حياته ، ولكن استعمال الشوك كان قد راج . وشاع استعمال نحو ١٦٦٠ فوطة للمائدة . ولم يعد من المستساغ أن يسمح الضيوف أصابعهم في غطاء المائدة .

أما الفضائل الإجتماعية فلم تكن ممتازة في هذا العصر — عصر الاتيكييت والبروتوكول . وتضائل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا . وكانت الأخلاق أسلم ما تكون في الطبقات الوسطى حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك ، وحفزته الرغبة في الارتقاء . وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو L'honnête homme وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين ، بل الرجل الشريف ، الذي يجمع بين كرم النشأة والعادات وبين حسن السلوك . أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان . فقد استشرت الرشوة في المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسيه الملكى ، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدرا من مصادر إيراد الدولة . وانبعث الجريمة من جشع الأغنياء ، وفقر الفقراء ، والتفجرات الغاضبة في جميع الطبقات . وآية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوازان أو المركيزة برانفلييه ، وكتاتهما حذفت تحضير السموم الطويلة المفعول ، وشاع القتل بالسم شيوعا اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل في قضاياها^(٧٤) . أما كاترين مونفوازان فقد مارست الطب ، والتوليد ، والسحر ، وساعدت كاهنا مرتدأ في ترتيب « القداس الأسود » الخماسا لمعونة الشيطان ، وكانت تدبر اجهاض النساء وتبيع السموم وأشربة الغرام . ومن زبائنها أوليمب مانتشيني ، ابنة أخت مازاران ، والكونتيسة جراهون ، ومدام دموتيسبان خليعة الملك وفي ١٦٧٩ غصت لجنة نشاط «لافوازان» . ووجدت الأدلة على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد الخاشية ، الأمر

الذى حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق (٧٥) . وأحرقت لانوازان.
حية (١٦٨٠) .

ويدخل فى أخلاق الأفراد انحرافاتهم العادية . وقد نص القانون على عقاب اللواط بالإعدام ، وما كانت أمة تتخذ أهبتهما للحرب ، وتدفع الإغارات على الأطفال ، لتسمح بانحراف الفرائز الجنسية عن جادة الإنسال ، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة فى وقت كان فيه شقيق الملك لوطيا يشار إليه بالبنان ، يأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونه فوق القانون . أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف رومانسى من أعباء الزواج ، لامبر يدعو الزواج . وقد رأوا أن اقتناء الثروة . أو حمايتها ، أو نقلها ، أهم فى الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر . ولما كانت معظم زيجات الطبقة الارستقراطية لا تعدو أن تكون ترتيبات لتنظيم الملكية ، فإن المجتمع الفرنسى أغضى عن التمسرى ، فكان لكل قادر تقريبا خليصة ، وكاد الرجال يفاخرون بغرامياتهم مفاخرتهم بمعاركهم الحربية . أما المرأة فتشعر أنها مهجورة وشبوة إذا لم يلاحقها من الرجال سوى زوجها ، وكان بعض الخائنين من الأزواج يغضون عن خیانات زوجاتهم . يقول شخص فى مسرحية لموايير : « أفى الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه فى هذا البلد (١٧٦) » فى هذا المناخ السكبي نشأت أمثال لاروشفوكو . وكان القوم يحتقرون البغاء إذا تجرد من الكياسة ، ولكن امرأة كنينون دلاسلكو ، جملة بالآدب والظرف ، استطاعت أن تحظى بشهرة تدانى شهرة الملك .

كان أبوها نبیلا حمر الفكر ، ومبارزا بارما . وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة ، ولكنها (إذا صدقنا ابنها) « مجردة من شاعر الحس وقد ولدت ثلاثة أطفال وهى لا تكاد تلحظ الأمر (٧٧) » . ومع أن نينون لم يتح لها التعليم المنهجى ، فإنها التفتت من المصارف قدرا

لا يستهان به ، فتعلت الكلام بالإيطالية والأسبانية ، ربما لتستعين بهما في هذه التجارة الدولية ، وقرأت موتيني وشارون ، بل قرأت ديكرت ، وأخذت عن أبيها تشككه . وقد جعلت مناقشتها حول الدين في فترة لاحقة مدام دسفينيه ترتعد (٧٨) . قالت نينون « إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك في هذه الدنيا كما ينبغي ، فتلک علامة إما على ضيق عقله ، أو على فساد قلبه » (٧٩) . وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريباً ، ولكنها بدلا من هذا انزلت إلى البغاء وهي لا تتجاوز الخامسة عشرة (١٦٣٥) . وقالت في استهتار « إن الحب طائفة لا تنطوي على أى التزام خلقى » (٨٠) ، فلما خلعت العذار وجهرت بفوضاها الجنسية ، أمرت آن المساوية بحبسها في دير للنساء . وروى أنها فتنت راهبات الدير بظرفها وحيويتها ، واستمتعت بحبسها كأنها فرصة للاشتجاء . وفي ١٦٥٧ أفرج عنها بأمر الملك .

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيراً من مجرد المحظية ، حتى إنها سرعان ما ضمت إلى لفيف المعجبين بها عدداً كبيراً من أبرز الرجال في فرنسا ، ومنهم نفر من الحاشية (٨١) ، من الملحن لولى إلى كونديه العظيم ذاته . وكانت تجيد العزف على الهاربسيكورد ، وتحسن الغناء ، يقصدها لولى ليجرب ألحانه الجديدة . وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل سفينيه — زوج كاتبة الرسائل اللطيفة ، وابنها ، وحفيدها (٨٢) . وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتمسون ودها . قالت « لم يتشاجر على عشاقى قط ، فقد كانوا يثقون في قلبي ، وكان كل منهم ينتظر دوره » (٨٣) .

وفي ١٦٥٧ افتتحت صالونها ، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب ، وأحياناً زوجاتهم ، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقبل من ذكاء أى امرأة في جيلها أو ذكاء أكثر الرجال ، فلقد طالعهم فيها عقل مثيراً من خلف وجه فينوس . يقول فيها قاض صارم هو سيافى — سيخون :

٤ — قصة المضارة

« كان من المفيد لإنسان أن تستقبله في جبالونها نظراً إلى الاتصالات التي يكونها عن هذا الطريق . ولم يدر في جبالونها أى لعب للقمار ، ولا ضحك عال ، ولا مجادلات ، ولا حديث في الدين أو السياسة ، بل دار الكثير من الحديث الذكي الرشيق .. وأنباء الغرام ، ولكن دون فضح أو تشهير . كان كله حديثاً مهذباً خفيفاً محسباً ، وكانت هي نفسها تغزو الحديث بذكائها وعلمها الغزير (٨٤) » .

وأخيراً أثارت فضول الملك نفسه ، فطلب إلى مدام دما نتينون أن تدعوها إلى القصر ، واستمع إليها من وراء ستار ، فافتتن بها ، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها . وكانت في هذه الفترة (١٦٧٧ ؟) قد كسبت ما يشبه الاحترام ، وخلصت عليها أمانتها البسيطة وأيادها الكثيرة سمحة أشرف ، فسكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين ، واثقين دائماً من إمكان استردادها حين يشاءون ، ولاحظت باريس كيف كانت نينون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريباً حين أقعده الشلل ، وكيف كانت تأتيه بأطياب الطعام التي يعجز عن دفع ثمنها .

ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً ، حتى سانت إفريمون التسعيني ، الذي كانت رسائله التي يبعث بها من إنجلترا عزاء لشيخوختها . كتبت له تقول : أحياناً أضيق بعمل نفس الأشياء دائماً ، ويمعجني السويسريون الذين يلتقون بأنفسهم في النهر لهذا السبب (٨٥) . « وكانت تضيق بالتجاعيد . « إذا كان ثاماً أن يبتلى الله المرأة بالعضون ، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها (٨٦) » . فلما دنت منيتها ، تنافس اليسوعيون والجانسينيون على شرف هدايتها للإيمان ، فاستسلمت لهم في لطف ، وماتت في أحضان الكنيسة (١٧٠٥) (٨٧) . ولم تترك في وصيتها سوى عشرة إيكوات لجنازتها ، حتى تكون أبسط ما يستطاع ، ولكن « أطلب في تواضع إلى المسيو آرويه ، — وهو وكيلها — « أن يسمح لي بأن أتترك لابنه ، الذي

يتلقى العلم عند اليسوعيين ، ألف غرنك ليشتري بها كتيباً (٨٨) . واشتري
الابن الكتب ، وقرأها ، وأصبح فولتير .

إن أروع السحر الذي توج هامة المجتمع الفرنسي هو أن حافظ الجنس امتد
إلى الذهن ، وأن النساء تذهبن ليضفن الذكاء إلى الجمال . وأن الرجال يروهن
النساء على السلوك المؤدب ، والذوق السليم ، والحديث المهذب ، وفي هذا
كان القرن (الممتد من ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠) في فرنسا أوج الحضارة . في ذلك
المجتمع كثرت النساء الذكيات كثيرة لم تعهد من قبل ، فإذا جعن إلى الذكاء
فتنة الوجه أو الجسد ، أو سحر الاهتمام الناشئ عن الرقة واللفظ ، أصبحن
قوة تهذيب عارمة . وكانت الصالونات تدرب الرجال على الحساسية لرقة
الأنثى ، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر . وفي هذه اللقاءات طور فن
الحديث حتى بلغ شأواً لم يبلغه من قبل ولا من بعد — فن تبادل الأفكار
دون مغالاة أو خصومة ، بل في مجاملة ، وتسامح ، ووضوح ، وخفة ،
ورشاقة . ولعل هذا الفن كان أقرب إلى السكال في عهد لويس الرابع عشر
منه في أيام فولتير — أقل ألمعية وظرفاً ، ولكن أكثر مادة ومودة .
كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول « بعد الغداء مضينا إلى السمر في ألفت
غابات الدنيا ، وظللنا هناك إلى السادسة ، مشغلين بمختلف ألوان الحديث ،
البالغ المعطف ، والرقة ، واللفظ ، والكرم ، مما مس شغاف قلبي (٨٩) »
وقد عزا كثير من الرجال الفضل في تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا
التبادل والاتصال الاجتماعي بين الجنسين (٩٠) .

وفي الغرفة الزرقاء بالأوتيل درامبويه كان أول الصالونات يسلمع بهائه
الآخر . أمه كوندية وإن لم يلعب فيه ، وأمه كورنير ، ولاروشفوكو ،
والسيدتان لافيت ودسفينيه ، ودوقة لونجفيل ، والجراند مدموازيل .
هناك أرست النساء للتحدثات les femmes précieuses قواعد السلوك
الدهيق والحديث المصقول . ولكن حرب العروبة قطعت هذه اللقاءات ،
ورحلت مدام درامبويه إلى الريف ، ومع أن « أوتيلها » (قصرها) فتج بعد

ذلك أبوابه ثمانية لمبقرى فرنسا (مولير) ، فإن باكورة تمثيلياته *Les Précieuses ridicules* (المتعذلات المضحكات) (١٦٥٩) كانت ضربة قاضية عليه . وطوى أول الصالونات المشهورة يموت مؤسسته في ١٦٦٥ .

وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى ، في بيوت السيدات دلا سابليير ، ودلامبير ، ودسكوديرى — وآخرهن أشهر كتاب الرواية في هذا العصر ، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء ، والفلك ، والرياضة ، والفلسفة . في صالونات كهذه زكت النساء العالمات *femmes savantes* اللاتي أثرن سخرية مولير في ١٦٧٢ . ولكن كل هجاء ليس إلا نصف الحقيقة ، ولعل مولير في لحظاته الفلسفية كان يقرب بحق النساء في أن يشاركن في حياة جيلهن الفكرية . فساء فرنسا ، أكثر حتى من كتابها وفنانيها ، هن تاج حضارتها ، والمفخرة العظمى لتاريخها .

٦ - بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا . وفي ١٦٦٤ كان البلاط يضم نحو ستمائة شخص : الأسرة المالكة ، وكبار النبلاء ، والمبعوثين الأجانب ، والخدم والحشم . وقد زاد العدد في أوج اكتمال فرساي إلى عشرة آلاف من الأنفس (٩١) ، ولكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلفوا إلى القصر بين الحين والحين ، وجميع المرفهين والأتباع ، والفنانين والمؤلفين الذين وقع عليهم اختيار الملك ليكافئهم . وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تفوقها غير شهوة الطعام والجنس ، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة لا تنسى ، جذيرة بأن يبذل في سبيلها نصف مدخرات العمر .

وبعض السر في بهاء البلاط كان في الأثاث المترف الذي ازدادت به الغرف ، وبعضه في لباس الحاشية ، وبعضه في حفلات الترفيه البالغة الفخامة ، وبعضه في جمال النساء وسيت الرجال الذين اجتذبهم بريق المال ، والشهرة ، والسلطان . ومن النساء الشهيرات — كالسيدتين دسفينيه ودلافايت — من لم يختلفن

إلى البلاط إلا نادرا لانحيازهن إلى قضية القروند ، ولكن بقي منهن عند
يكفى لإيهاج ملك بالغ الحساسية لمفاتن المرأة . وتبدو المرأة في اللوحات التي
وصلت إلينا من هذا العصر على شيء من البدانة ، يبرز لها من صدرها ،
ولكن من الواضح أن الرجال كان يعجبهم دفء الشحم واللحم فيمن
يعشقون من النساء .

أما أخلاقيات البلاط فكانت الزنا المحتشم ، والإسراف في اللباس
والقمار ، والدسائس العنيفة جريا وراء الصيت والمنصب ، وهذا كله يخطو
على إيقاع من السلوك الخارجي الدمث ، والآداب الرشيقة ، والمرح الإلزامي .
وضرب الملك المثل في بدعة اللباس الغالي ، لا سيما في استقبالات السفراء ،
فقداه وهو يستقبل مبعوثي سيام يرتدي عباءة موشاة بالذهب ومرصعة
الأطراف بالماس ، بلغت تكاليفها ١٢٥٠٠٠٠٠ ر. جنيه فرنسي (٩٢) ،
ومثل هذا المظهر كان جزءا من سيكولوجية الحكم . وأفنى الأشراف
ونسائهم نصف دخل ضياعهم في الثياب والخدم والآثاث ، وكان على أقلهم
شأن أن يستخدم أحد عشر خادما ومركتين ، أما الأثرياء فكان لهم من
الاتباع خمسة وسبعون في بيوتهم ، ومن الخليل أربعون في مرابطتهم (٩٣) .
وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظورا ، فغدا لعب الورق للقامرة أم
خروب الترفيه في البلاط . وهنا أيضا كان لويس القدوة لحاشيته ، فقامر بمبالغ
كبيرة ، تستحته إلى ذلك خليلته مونتسبان ، التي خسرت وكسبت أربعة
ملايين من الفرنكات في لعب ليلة واحدة (٩٤) . وسرى هذا الهوس
من البلاط إلى الشعب . كتب لا برويير يقول : « إن الألوف يخربون بيوتهم
بالقمار ، وهو لعبة رهيبية ... ينوي لاعبا القضاء المبرم على غريمه ،
وينتشي بشهوة الكسب (٩٥) » .

وقد أفضى التنافس على الخطوة عند الملك ، أو على وظيفه مجزية ،
أو على مكان في القراش الملكي ، إلى جـو من الشبهات ، والافتراءات ،
وتبادل الخصومات الحادة . قال لوفيس : « في كل مرة أعين إنسانا في وظيفه

شافرة ، أسخط مائة شخص ، وأجمل شخصاً ما كرا للجميل (٩٦) . وكان القوم يتشاحنون على أمكنة الصدارة في المائدة ، أو على القيام على خدمة الملك ، وحتى سان — سيمون أقلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لسكسبور خمس خطوات في أحد اللواكب ، وقد اضطر لويس إلى نفي ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أسراء أجاب . وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول ، وقد عيس مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة ماطلا من اللقب تتقدم دوقة في مجلسها (٩٧) . ولا ريب في أن ضرباً من الترتيب المقرر كان ضرورياً لمنع ستمائة من الأنفس المغرورة المزهوة بأسباب التشریف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض ، وقد أثني الزوار على ذلك المظهر المتسق الذي بدت فيه الحاشية الضخمة . ومن قصور الملك ، واستقبالاته ، وحفلات ترفيهه ، سرى دستور الإتيكيت ، ومعايير لاسلوك والدوق ، إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وأصبحت هذه كلها جزءاً من التراث الأوربي .

وأراد الملك أن يمنع الملل من أن يتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات ، ذلك الملل الذي قد يحمل البعض على قتل الملك ، غناط الفنانين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه — من مباريات بين الفرسان ، وزحلات صيد ، ومباريات تنس وبلياردو ، وجماعات سباحة أو نزهة في الزوارق ، وحفلات غداء أو عشاء ، ورقص وحفلات راقصة ، وحفلات تنسكزية ، ومراقص باليه ، وأوبرات ، وحفلات موسيقية ، وتمثيليات . وبدت فرسانى وكأنها جنة الله في أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية في القناة ، والأصوات والآلات تعمدو بالموسيقى ، والمشاغل تمين القمر والنجوم على إضاءة المشهد . وهل في الدنيا أفخم ولا أكرم للأنفاس من حفلات الرقص الرسمية ، حين تعكس قاعة المرايا في مراياها الهائلة رشاقة الرجال والنساء وخفتهم وهم يخطرون في رقصات ضخمة نجت آلاف الأنواء ؟ لقد أراد الملك أن يحتفل بمولد ابنه البكر ، الدوقان ،

(١٦٦٤) فأقام حفلة باليه في الميدان المنبسط أمام التويلرى ، حضرها خمسة عشر ألف شخص . وقد دمر كومون ١٨٧١ القصر ، ولكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى قصر كاروزل Carrousel (أى ساحة الرقص الدائرى السريع) .

لقد أحب لويس الرقص ، وأشاد به ، واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم (٩٨) ، وأسّس في باريس (١٦٦١) الأكاديمية الملكية للرقص . وكان يشارك بشخصه في رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه . وشغل الملحنون في بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه ، وهناك تطورت المتتالية التي حذق استخدامها بيرسيل في إنجلتره وآل باخ في ألمانيا . ولم يبلغ الرقص صوراً رشيقة متسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية .

وفي ١٦٤٥ استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا في باريس . وقطع موت الكردينال هذا الاستهلال ، ولكن حين شب الملك أنفأ أكاديمية الأوبرا (١٦٦٩) ، وكلف بيير بيران بتقديم أوبرات في عدة مدن فرنسية ، ابتداء من باريس في ١٦٧١ . فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه الميسرف على المناظر والآلات ، نقل لويس « امتياز أكاديميات الموسيقى » إلى جان باتيست لولى Lully ، فالبث هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه .

وكان هو أيضاً هبة من هبات إيطاليا . فقد أتى به الشماليه جيز صبيا فلاحاً في السابعة من فلورنسة إلى فرنسا في ١٦٤٦ ، « هدية » لابنة أخته ، الجراند مدموازيل ، التي استخدمته في مطبخها مساعداً صغيراً (Soumarmon) . وهناك ضايق زملاؤه الخدم بالقرين على المكان ، ولكن المدموازيل تبينت موهبته وأتته بمعلم . وما لبث أن عرف في فرقة الموسيقى الملكية ذات الأربع والعشرين كماناً . واستلطفه لويس ، فأعطاه

بمجموعة صغيرة من الموسيقيين يقودها . وبفضل هذا الأوركسترا الوترى الصغير تعلم القيادة والتلحين — للموسيقى الرقص ، والأغاني ، والسكان المنفرد والكنشانات ، والموسيقى الكنسية ، ولثلاثين لحنا أوركستريا للباليه ، وعشرين أوبرا . وقد صادق مولير ، وتعاون معه في عدة باليهات ، ولحن فواصل موسيقية قصيرة لبعض تمثيليات مولير .

وكان نجاحه رجل بلاط يضارع انتصاراته موسيقيا . ففي ١٦٧٢ ، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان في الحصول على احتكار الأوبرا في باريس . وقد وجد في فيليب كينو Outnault مؤلفا لسلطات الأوبرا وشاعرا أيضا . فأخرجها معا سلسلة من الأوبرات كانت ثورة في الموسيقى الفرنسية . ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط في فرساي ، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذي بنى من قبل اللوى في شارع سانت — أونوريه ، واجتذبتهم في كثرة جعلت الشوارع تحتنق بالمركبات ، فاضطر الرواد في كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام ، وفي الوحل غالبا ، خشية أن يفوتهم الفصل الأول ، وقد استهجن بالوالو الأوبرا زاعما أنها ضرب من التخنث المضعف (٩٩) ، ولكن الملك منح أكاديمية الموسيقى مرسوما (١٦٧٢) ، وأذن له « سادة والسيدات بالفتاء في عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون في ذلك غض » من أقدارهم (١٠٠) . ورفع لويس لوى إلى مقام النبالة سكرتيرا للملك ، وشكا سكرتيرون آخرون من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى ، ولكن لويس قال للوى ، « لقد شرفهم لم لا أنت بوضعي عبقريا بين زميرتهم (١٠١) » . وحالف التوفيق لوى في كل شيء حتى ١٦٨٧ ، حين ضرب قدمه صدقة — وهو يقود فرقته — بعصا القيادة ، وأساء طبيب دجال علاج جرحه ، ففتعن ، ومات المؤلف الفوار في الثامنة والأربعين . ومازالت الأوبرا الفرنسية تشعر بتأثيره إلى اليوم .

بقى اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهد الفخم ، وهو اسم أسرة كوبران ، التي كانت مثلاً آخر على الوراثة في الفن ، والتي أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان ، واحتسرت من ١٦٥٠ إلى ١٨٢٦ الأرغن العظيم في كنيسة سان جرفيه ، وقد شغل فرنسوا كوبران « الكبير » ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً ، كذلك كان « عازف أرغن الملك » في كنيسة الملك الصغيرة بفرساي ، وكان أشهر عازفي الهاربسيكورد في ذلك « القرن العظيم » . وقد درس يوهان سبستيان باخ ألحانه التي وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة ، وأثر البحث الذي وضعه باسم *L'art de toucher le clavecin* (وهو الاسم الفرنسي لمقابله الانجليزي Clavichord) في بحث ذلك الألماني العظيم المسمى « السكلافير المعتدل » ... ترى ؛ أ كانت للموسيقى في دم آل كوبران ، أم في بيتهم فقط ، لعل الوراثة الاجتماعية ، لا البيولوجية ، هي التي تصنع الحضارة .

٧ — نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر ، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن في معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هذا ، أن العرف اقتضاهم أن يضعوا بعيولهم الشخصية ليعقدوا زيجات تجلب منفعة سياسية للدولة ، ومن ثم كان المجتمع — والكنيسة أحياناً كثيرة — يفضيان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام بعيداً عن الرباط الزوجي . ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزواج حب ، فقد استهواه جمال ماري مانشيبي ابنة أخت مازاران ، وظرفها ، فرجاً أمه والكبر دبنال أن يسمح له بالزواج منها (١٦٥٨) ، ولكن آن النسائية وبخته لأنه سمح للعاطفة بأن تتدخل في شؤون السياسة ، أما مازاران فقد أبعد ماري آسفاً لتزوج رجلاً من آل كولونا ، ثم راح الوزير الداحية يستخدم نفوذه الخفي ليحصل على

عروس لويس هي ماريا تريزا ، ابنة فيليب الرابع . أفليس من الجائز ، إذ أنه انقطع نسل الذكور في الملوك الأسبان ، أن تأتي هذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا ؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا في ١٦٦٠ ، وكلاهما في الثانية والعشرين ، في كل البهاء والبذخ الذي سحر دافعي الضرائب .

أما ماريا تريزا فكانت امرأة متسكبة ، ورعة فاضلة ، وقد أطاعت قدوتها ونفذها على إصلاح أخلاقيات البلاط ، على الأقل بين حاشيتها ، ولكن النظام الصارم الذي نشأت عليه جعلها مكتئبة متبلدة ، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجماً في الوقت الذي ترمق فيه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أحميت له ستة أطفال ، لم يتجاوز الطفولة منهم غير واحد هو الدوفن ، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس ، في نفس سنة زواجهما ، في زوجة أخيه هنرييتا آن ، جميع المفاتيح التي تجمل الأنوثة الغضة .

أما هنرييتا هذه فهي ابنة تشارلز الأول ملك إنجلترا ، وكانت أمها هنريتا ماريا « ابنة هنري الرابع ملك فرنسا » قد قاست زوجها مأساة الحرب الأهلية ، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشارلز في أكسفورد ، فرت ملكة إنجلترا إلى أكستر ، وهناك ، حين اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت ، ولدت (١٦٤٤) « أميرة صغيرة جميلة » . وراح أعوان البرلمان يتمقبون الأم المريضة ، ففرت ثائبة ، وتسالت إلى ساحل البحر ، حيث استقبلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهد من المدافع الانجليزية . أما الطفلة التي تركتها أمها في رعاية الليدي آن دولكيت ، فقد عاشت عامين في مخبئها بإنجلترا قبل أن تهرب هي أيضاً عبر المانش في

(١) روت مدام دمونتسبان . التي لم تخل من تحيز في مذكراتها ، كيف أهدى أمير أفريقي قزماً زنجياً لماري ، وكيف ولدت ماري « بنتاً جميلة صحيحة الجسم ، سوداء من قرة رأسها إلى أخمص قدمها » وهزت الملكة هذا اللون إلى خوفها من القزم خلال حملها ، وأذاعت « غاريت » باريس أن الفتاة ماتت عقب ولادتها ، ولكن يبدو أنها عاشت ، وربتها أسرة ملونه ، وأصبحت راهبة . (١٠٧) .

أمان ، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التي جاءت بها حرب القرون . ففي يناير ١٦٤٠ شاركت أمها وأن الفمساوية في هروبهما من باريس المملوءة بالمتاريس إلى سان — جرمان ، وفي ذلك الشهر جاء نياً — أخفى عنها ولا ريب حيناً — بأن أباهما ضرب عنقه أنصار كرومويل « ذؤو الروس المستديرة » المنتصرون فلما خفت خدة القرون ، قامت أم الأميرة هنرييتا على تربيتها في جو من الدعة والتقوى ، وعاشت كلتاها حتى رأتا تشارل الثاني يرد إلى العرش الإنجليزى (١٦٦٠) ، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة ، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر ، « مسيو » فيليب دوق أورليان ، وأصبحت تلقب بالـ « مدام » .

أما « المسيو » فكان رجلاً قصيراً مكور البطن ، يلبس حذاءً طالياً ، ولوعاً بحلى الأنثى ، وأجساد الذكور ، شجاعاً كأي فارس في ساحة الوغى . ولكنه مزوق ، معطر ، موشح ، مرصع بالجواهر كأشد النساء غروراً ، في هذا البلد الذي كان أكثر بلاد الله غروراً . وقد أحزن هنرييتا وأخجلها أن ترى زوجها يؤثر على محبتها صحبة شفالبيه اللورين ، وشفالبيه شاتيون . ووقع في غرامها كل إنسان تقريباً ، لا لجمالها المش فشب — مع أنها عدت أجمل مخلوق في البلاط (١٠٣) — ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لروحها الرقيقة اللطيفة ، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم . وللنسيم النضر المنعش الذي حملته أينما ذهبت ، وقد وصفها راسين بـ « الحكيم في كل جميل (١٠٤) » — وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة .

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تسيغها فتوته وذوقه ، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما في خلقها من « حلاوة وضياء » (١٠٥) استشعر المتعة المتزايدة في وجودها ، وأبهجه أن يراقصها ، ويمارحها ، ويدبر الألعاب معها ، ويصاحبها في الغمشى في البستان في فونتينبلو .

أو ركوب الزورق في القناة ، حتى زحمت باريس كلها أنها غدت خليلته ، ورأت في هذا انتقاما عادلا من « ملك سدوم » (١٠٦) ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم . فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبها ، أما هي ، التي بذلت إخلاصها في الحب لأخويها تشارلز وجيمس ، فقد قبلت الملك أخا آخر ، واتخذت من ربط الثلاثة جميعا برباط التحالف أو المودة رسالة لها في الحياة .

ففي سنة ١٦٧٠ ، وبناء على طلب لويس ، عبرت المائش إلى إنجلترا لتتقنع تشارلز بالانضمام إلى فرنسا ضد هولندية ، لا بل لتحضه على الجهر بكنيلكته . وقد وعد بهذا في معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) ، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكحلة بالنصر ، ولسكن ماضت أيام على وصولها إلى قصرها في سان — كلو حتى أصابها مرض شديد ، فظنت أنها سممت ، وكذلك اعتقدت باريس كلها ، وهرع الملك والملكة إلى فراشها . وكذلك فعل « الميسو » النادم ، وكونديه ، وتورين ، ومدام دي لا فاييت ، ومدموازيل دموبانسييه ، وألتي بوسويه ليصلي معها ، وأخيرا في ٣٠ يونيو ، انتهى عذابها ، وكشف فحص جثتها عن أن موتها لم يكن بالدم بل بالالتهاب الالتهابي (١٠٧) ، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الرموس المتوجة ، وألتي بوسويه فوق جثمانها في كنيسة سان — دني عظة جنازية رجعت أصداؤها القرون .

وهنرييتا هي التي أعطت للملك أولى خليلاته الأكثر علانية . وقد ولدت هذه المرأة ، واسمها لويز دي لا فايير ، في مدينة تورام ١٦٤٤ ، وتلقت في إيمان مستسلم ذلك التعليم الديني الذي قامت عليه أمها وخالها الكاهن ، الذي أصبح فيما بعد أسقفا لنايت ، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها ، فتزوجت أمها من جديد ، وكان الزوج رئيسا لخدم جاستون دوق أورليان ، فحصل للويز على وظيفه وصيفة لبنات الدوق ، فلما

مات جاستون ، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب ، أخذ لويز معه وصيفة شرف هنرييتا (١٦٦١) . وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة . وبهرها بهاؤه وسلطانه وسحر شخصيته ، فوقعت في غرامه كما وقعت عشرات النساء ، ولكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً .

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد ، كانت رقيقة الصلابة وبها عرج خفيف ، « وليس لها صدر يؤبه به » على حد قول أحد ناقدتها ، وكانت نحيفة إلى حد مخيف ، ولكن ضعفها هذا كان في ذاته فتنة ، لأنه أورتها تواضعاً ودماثة في الطبع أسر الجميع حتى النساء ، ولفتت هنرييتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التي أرجفت بأنها هي ذاتها خليلته ، وأفلحت المخططة فوق ما أرادت ، فقد جذبت لويس هذه الفتاة الخجول ذات السبعة عشر ربيعاً ، التي كان البون شاسعاً بينهما وبين النبيلات المتفطرسات المدوانيات اللاتي يحطن به في بلاطه . وذات يوم وجدها وحيدة في حدائق فونتنبلو ، فقدم نفسه إليها ، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً . وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه ، ولكنها قاومت إلفاته طويلاً ، وناشدته ألا يحملها على خيانة هنرييتا والملكة ، ولكن ما وافى شهر أغسطس ١٦٦١ حتى كانت قد غدت خليلته ، لقد كان كل شيء يبدو حسناً مادام يرضى مشيئة الملك .

ثم وقع الملك بدوره في غرامها ، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا الفرخ الخجول ، وخرجاً في نزعات خلوية كالأطفال ، ورقصاً في المراقص ، وطفراً مرحاً في حفلات الباليه ، وكانت إذا خرجت إلى جواره في الصيد تنسى ما في طبعها من إحجام وتردد ، وتركب في تهور واندفاع « فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها » (١٠٨) على حد قول الدوق دأنجيان . على أنها لم تستغل انتصارها ، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك في الدسائس . وظلت متواضعة رغم زناها ، وكانت تمجّل من وضعها ، وقد تمذبت حين

قدمها الملك إلى الملكة ، وولدت له عدة أطفال ، مات اثنان منهم في تاريخ مبكر ، أما الطفلان الثالث والرابع ، اللذان تقررت شرعيتهما بمرسوم ملكي ، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا ، والمدموازيل دبلوا الرائعة الجمال . وخلال أزمات الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجل من وجهها تجتذب الملك ، ولم تحل سنة ١٦٦٧ حتى تعلق قلبه بدمام دمونتسبان ، وبدأت لويز تفكر في التكفير عن آثامها بقضاء ما بقي من عمرها في دير للراهبات .

وآنس لويس هذا الميل فيها ، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقي ، وفكر في الحفاظ عليها في دنياء مخلع لقب الدوقية عليها ، ولكنه بين اشتغاله بحب دمونتسبان ، واستغراقه في الحرب ، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته ، أما هي فلم تأبه في البلاط بإنسان غيره . وفي ١٦٧١ تخلت عن ثروتها ، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب ، وتسللت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء ، وهربت إلى دير القديسة ماري — د — شايو ، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه ، وإذ كانت لا تزال عذراء غريبة بعقلها ، فقد ارتضت أن تعود إلى البلاط . وظلت هناك ثلاث سنين أخرى ، ممزقة بين حبها للملك وشوقها للتطهر والسلام الدينيين ، وكانت تمارس في القصر تقشف الحياة الديرية ، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها ، ودخلت ديراً للراهبات السكرمليات الخافيات في شارع دانفير (١٦٧٤) ، وتسمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد ، وعاشت هناك في توبة الزهاد ما بقي لها من صرطوال ستة وثلاثين عاماً ، قالت : « إن نفسي شديدة القناعة ، بالغة السكينة ، لأنني أعبد جود الإله » (١٠٩) .

أما خليفتها في الخطوة لدى الملك فلا تنظر من الناس بمثل هذا الفقران العام . فقد قدمت فرنسواز أتيناييس. روتشوار البلاط في ١٦٦١ ، وخدمت الملكة وصيفة شرف ، وتزوجت المركز دمونتسبان (١٦٦٣) . ويزعم

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا ، أما الآخرين فاختارها (١١٠) .
وكان لها غداث مجمدة شقراء مرصعة باللآلئ ، وعينان أبيتان ناعستان ،
وشفتان شهوانيتان ، وثر ضاحك ، ويدان ملاطفتان ، وبشرة في لون
الزئبق ونسيجه — كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون ، وكذلك
صورها هنري جاسكار في لوحة مشهورة . وكانت تقيية ، تحفظ أيام الصوم
دون تهاون ، وتختلف إلى الكنيسة في تعبد وتكرار ، لها طبع حاد وذكاء
بتار ، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدى .

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة على اقتناص
للملك (١١١) . ولكن سان - سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد
من سرعة نبض الملك رجت زوجها في أن يعود بها فوراً إلى بواتو (١١٢) .
ولكنه أبى ، واثقا من سلطانه عليها ، متعلقاً بعبير البلاط . وذات ليلة في
كومبيين ، ذهبت لتنام في حجرة مخصصة عادة للملك . وحاول برهة أن ينام
في حجرة مجاورة ، ولكنّه وجد في هذا مشقة ، وأخيراً استولى على حجرته
وعليها (١٦٦٧) . أما المركيز فحين بلغه الأمر لبس ثوب التزل ، وجلل
مركبته بالسواد ، وزين أركانها بالقرون . وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق
بين المركيز والمركيزة ، وأرسل إليه ١٠٠.٠٠٠ ايكو ، وأمره بالرحيل عن
باريس ، وابتسم البلاط الذي تجرد تماماً من الخلق الكريم .

وظلت مدام دمونتسبان محظية للملك سبعة عشر عاماً . وقد أعطت
لويس مالم تستطع لافالير - أعطته الحديث الذكي والحيوية اللثيرة . وكانت
تفاخر بأنها هي وتبلد الحس لا يمكن أن يجتمعا في مكان واحد وزمان
واحد ، وهو قول صحيح . وقد أنجبت للملك ستة أطفال - أحبهم
وشكر لها صنيعها ، ولكنّه لم يستطع أن يقاوم إغراء النوم من حين إلى حين
مع مدام دسوينز أو مع الأنسة الشابة دسكوراى دبروسيل ، التي خلع عليها
لقب دوقة فونتانج . وقد حدث هذه الانحرافات بدمام دمونتسبان إلى

التماس نصيحة للشعوذات في أمر الأشربة السحريه أو غيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك ، ولكن القصة التي زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هي في أغلب الظن أسطورة روجها أعداؤها (١١٣) .

وقد جني عليها أطفالها . ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم ، وزكى لها بعضهم مدام سكارون ، فاستخدمتها ، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤيه أطفاله . أما مدام سكارون هذه ، واسمها قبل الزواج فرنسواز دوبينيه ، فكانت حفيدة تيودور أجريبا دوبينيه ، المساعد الهيجونوتي لهنري الرابع ، وقد ولدت بسجن بنيور في بواتو ، حيث كان أبوها يقضى فترة من فترات سجنه الكثيرة عقابا له على جرائم مختلفة ، وصمدت كاثوليكية ، وربيت بين القوضى والفقير الخيمين على أسرة منقسمة . وعطف عليها بعض البروتستنت وأطعموها وثبتوها في العقيدة البروتستنتية تثبيتا جعلها تولى ظهرها للمذبح الكاثوليكي . فلما بلغت التاسعة أخذها أبوها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذي أدبته به أمها . ومات الأب بعد عام (١٦٤٥) ، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا . وفي ١٦٤٩ أودعت فرنسواز ديلا للراهبات بعد أن عادت إلى الكاثوليكية ، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنشد ، وتسكسب قوتها بأداء الأعمال الحقةرة . ولعلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون .

وأما بول هذا فكان كاتباً مشهوراً ، وظريفاً لامعاً ، مشلولاً شللاً كاد يكون تاماً ، مشوها تشويهاً بشعاً . وإذ كان ابنالهام نابه ، فقد توقع النجاح في حياته العملية ، ولكن أباه الأرملة تزوج ثانية ، وبذت الزوجة الجديدة بول ، فلم يظفر من أبيه إلا بمعاش ضئيل لا يكفيه إلا للترفيه ليلة عن ماريون ديغورم وغيرها من النبيلات . ثم أصيب بالزهرى ، وأسلم نفسه لأحد الدجالين ، وتماطى العقاقير القوية التي أطلقت جهازه العصبي . وأخيراً اشتد به الفلل حتى كاد يصجزه إلا عن تحريك يديه . وقد وصف نفسه في هزم

العبارات : « سأصف لك نفسى أيها القارىء على قدر استطاعى . لقد كان جسمى حسن التكوين رغم قصر قامتى . ولكن العلة قصرتنى بقدم كامل . ورأسى أكبر قليلا مما يناسب جسمى . ووجهى ممتلئ ، أما جسدى فبشكل عظمى . وبصرى لا بأس به ، ولكن عيني بارزتان ، وإحداهما منخفضة عن الأخرى . وقد كونت ساقى وفخذاى أول الأمر زاوية منفرجة ، ثم قائمة ، وأخيرا حادة ، وتكون فخذاى وجسمى زاوية حادة أخرى ، وانحناء رأسى فوق معدتى يجعلنى أقرب إلى حرف Z . وقد انكش ذراعى كما انكش ساقى ، وكذلك فعلت أصابعى . جملة القول أننى خلاصة للتماسة البشرية (١٤٤) » .

وقد نمزى عن تماسته تلك بتأليفه « رواية مضحكة » عن منشرد (١٦٤٩) لقيت نجاحا كبيرا ، وبعرضه هزليات ساخرة صاخبة الفكاهة ، فاضحة النكتة . وأكرمه باريس لأنه احتفظ بمرجه وسط آلامه ، وأجرى عليه مازاران وآن التماسوية معاشين فقد الحق فيهما لتأييده للفروند ، كسب كثيرا ، وأنفق أكثر ، وتورط غير مرة فى الدين . وكان — وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعه — يرأس فى حيوية وعلم غزير صالونا من أشهر صالونات باريس . فلما تكاثرت ديونه ، كان يتقاضى ضيوفه بمن طعامهم ، ومع ذلك كانوا يأتون .

ترى من يتزوج رجلا كهذا ؟ فى سنة ١٦٥٢ ، كانت فرنسواز دوبينيه التى بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإئناق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات . وقدم صديق هذه الفتاة إلى سكارون ، فاستقبلها فى كرم مؤلم ، وعرض أن يدفع نفقات طعامها وسكنها فى الدير ، لكنى يعقبا من نذر الرهينة ، ولكنها أبت . وأخيرا عرض أن يتزوجها ، وأوضح لها بجلاء أنه لا يستطيع أن يطالبها بحقوق الزوج . فقبلته ، وخدمته ممرضة وسكرتيرة ، وقامت بدور للضيقة

٥ — قصة الحضارة

في صالونه ، وتظاهرت بأنها لا تسمع توريات الضيوف . وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك في الحديث . وقد خلعت على اجتماعات سكارون درجة من الاحترام كلفت لجذب الألسنة دسكودري ، ومدام دسفينيه بين آن وآخر ، وكان من زوار الصالون قبل ذلك نينون ، وجرامون ، وسانت — إفرمون . وفي رسائل نينون المانع إلى أن مدام سكارون لظفت من عذاب هذا الزواج البريء من الجنس بعلاقة غرام ، ولكن نينون ذكرت أيضاً أنها « كانت فاضلة لضعف عقلها . لقد أردت شفائها ، ولكنها كانت تخاف الله أكثر مما يجب (١١٥) » . وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس ، المتعطشة دون وعى منها لأمثلة لسلوك الكريم . ولما اشتد عليه شلله تيبست حتى أصابته وامتنعت حركتها ، فعجز عن أن يقلب صفحة أو يعسك قلمها . فسكالت تقرأ له ، وتكتب ما يمليه عليها ، وتقوم على كل حاجاته . وقبل أن يموت (١٦٦٠) كتب قبريته التي قال فيها :

« إن الراقد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد ، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة . فيا أيها العابر لا تمحدث ضجيجاً وإياك إياك أن توقظه ، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون المسكين » .

ولم يخلف لزوجته غير الدائنين . وألقيت « الأرملة سكارون » في خضم الفقر مرة أخرى وهي بعد شابهة في الخامسة والعشرين . واتمست من الملكة الأم أن تجدد معاشها الذي ألغى ، فرتبت لها آن ألف جنيه في العام . واتخذت فرانسواز حجرة في دير ، وتواضعت في عيشها وملبسها ، وارتضت القيام بعشئ المهام الصغيرة في البيوت الميسورة (١١٧) . وفي ١٦٦٧ أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهي على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيته . ورفضت فرانسواز ، ولكنها قبلت حين أيد لويس الطلب . وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور .

وتعلمت أن تحبهم ، وكانوا يرون فيها أما لهم ، أما الملك الذى ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها ، فقد انتهى إلى الإعجاب بها ، وأثر فيه ما بدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حجبها للتصل عليه . وقال إنها تعرف كيف تحب ، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبها (١١٨) . وفى ١٦٧٣ قررت شرعية الأطفال ، ولم يعد فرضا على مدام سكارون أن تتستر ، فقبلت فى البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان . ووهبها الملك ٢٠٠.٠٠٠ جنيه دعما لمركزها الجديد . فاشتريت بالمال ضيعة فى مانتنون قرب شارتر . ولم تمش فيها قط ، ولكن الضيعة أعطتها لقباً جديداً ، وهو المركيزة دمانتون .

وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً ، ولعلها أدارت رأسها حيناً . وآلت على نفسها أن تنصع مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإثم التى تحياها . وساءت النصيحة مونتسبان ، وظنت أن مانتنون تكيد لها لالحول محلها ، والحق أن لويس كان آتئذ ، فى ١٦٥٧ ، قد أخذ يضيق بغضبات مونتسبان ، ويمجد لذة فى التحدث إلى المركيزة الجديدة . ولعل الأسقف بوسويه ، بالتواطؤ مع الملك ، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة ما لم يطرد محظيته . فأمرها بأن تبرح القصر ، ففعلت ، وتناول لويس القربان ، وتعنف حيناً واستحسن مدام دمانتون مسلكه ، دون أن يكون لها قصد أعمى فيما يبدو (١١٩) ، لأنها رحلت بعد قليل مع صبي عليل (من أبناء مونتسبان) هو الدوق دمين تلتمس له الشفاء فى حمامات باريج الكبرى باقليم البرانس . وانطلق لويس إلى حروبه ، ثم عاد وقد اشتد به الجوع ، وضرب بإنذار بوسويه عرض الحائط ، ودعا مونتسبان ليعود إلى جناحها فى فرساي . وهناك ارتضى بين ذراعيها المشتاقين ، فحبلت ثانية .

أما مانتنون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذى شفى مما ألم به ، ولكن راعها أن تراه غارقاً فى عدة علاقات

آثمة في وقت واحد . وفي ١٦٧٩ اختتم آثامه مع مونتسبان بتعيينها مشرفة على بيت للملكة — وكانت تلك إحدى القطاعات الكثيرة التي جرح بها شمو مارى تريز . وثار مونتسبان وبكت ، ولكنه عزاها بالهبات السفينة . وبعد عام تسلمت مانتنون وظيفته بمائة — هي الوصيفة للخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه) ، وكان الوحيد الباقي على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين . وكثير تردد الملك الآن على الدوفينه للتحدث إلى مانتنون . وما من شك في أنه أراد أن يجعل للركيزة خليفة له ، وأنها ردت عن نفسها — لا بل إنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويعود نائباً إلى الملكة (١٢٠) . فأذن لها ولبوسويه ، وفي ١٦٨١ ، وبعد عشرين عاماً من مغالبة النساء ، أصبح زوجاً مثالياً . أما الملكة التي وطنت نفسها منذ أمد بعيد على تقبل خياناته ، بل على تقبل خليلاته ، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لعمري فقط ، لأنها ماتت عام ١٦٨٣ .

وطني لويس أن مانتنون سترضى الآن بأن تكون خليلته ، ولكنها قابله بصد لبق ، فهو الزواج وإلا فلا (١٢١) . وفي تاريخ لا يعرف على التحديد ، ولكنه على الأرجح في ١٦٨٤ ، تزوجها ، وكان في السابعة والأربعين ، وهي في الخمسين . وكان ارتباطا غير متكافئ ، لا يصيب الطرف الأدنى فيه أي رتبة جديدة ولا حقوق وراثية . ولقي مستشارو الملك عنقا في ثنيه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتتويجها ملكة ، وذكروا له ما سيكون من تدمير الأسرة للملكة والحاشية إذا وجدوا أنهم ينعنون احتراماً لمربية . وعليه لم يعلن نبأ الزواج ، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط . أما سان — سيمون ، للثبث أبداً بالنظام الطبقي ، فرأى أنه زواج غفيف (١٢٢) ، ولكنه كان خير رباط وأسمده للملك ، والوحيد الذي رعى عهده فيما يبدو . ولقد اقتضاء نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن في حب المرأة لزوجها ما يكفيه عن غيرها من النساء .

٨ - الملك يمضى إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة في أوروبا . فالإمبراطورية أوهنها ما أصاب ألمانيا من إعياء وانقسام فضلا عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين . وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها في ثمانين عاما من الحرب العقيم التي خاضتها في الأراضي المنخفضة . وانجلترا ، بعد ١٦٦٠ ، ربطتها بمعجلة فرنسا المعونات السرية للملكها . كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً منقسما أصابه الضعف ، ولكن ما أتت سنة ١٦٦٧ حتى كانت جراح الفروند قد برئت ، وغدت فرنسا أمة موحدة . وقام أثناء ذلك رجال أفذاذ اضطلموا بإعادة بناء الجيوش الفرنسية ، كوفوا ، عبقرى التنظيم والضبط العسكريين ، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار ، وكالفائدين للغواريين كونديه وتورين . وبدأ للملك الشاب الذي يتملقه رجاله أن قد آن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية — وهي الراين ، والألب ، والبرانس ، والبحر .

فليبدا بالراين إذن . لقد كان الهولنديون يتسلطون عليه ، فلا بد إذن من إخضاعهم ، ثم ردهم بعد قليل إلى العقيدة التي كانت حليفا للملوك طوال ألف عام . فإذا بسطت فرنسا سلطاتها على مصاب النهر العظيم الكثيرة دانت لها كل أرض الراين ، وبسطة سلطاتها على نصف التجارة الألمانية . ولكن الأراضي المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) تقف عقبة في الطريق ، فلا بد إذن من فتحها . وكان فيليب الرابع عند موته في ١٦٦٥ قد خلف الأراضي المنخفضة الأسبانية لشارل الثاني ، ولده من زواجه الثاني . ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه . فاستند إلى عرف قديم أخذت به أيزو وبرابانت ، يقضى بتفضيل أبناء الزوجة الأولى في الميراث على أبناء الثانية . وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى ، وبمقتضى حق الأيلولة أو الوراثة هذا — *Ius devolutionis* — تراث ماري تريز الأراضي

للنخضة الأسبانية . صحيح ان ماري نزلت عند زواجها عن حقها في الوراثة ، ولكن هذا التخلي كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقها لفرنسا ، وهو ٥٠٠.٠٠٠ كراون ذهبي (١٢٣) . وهذا الصداق لم يؤد ، إذن . . . ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطقي ، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأيلولة (الوراثة الأسبانية) . فلنترك مذكرات الملك للاعب الشطرنج هذا يمسك اللثام عن دوافعه :

« لقد أتاح لي موت ملك أسبانيا وحرب الإنجليز مع الهولنديين (١٦٦٥) في وقت واحد فرصتين هامتين لخوض الحرب : محاربة أسبانيا رسمياً وراء حقوق آل آل ، ومحاربة إنجلترا دفاعاً عن الهولنديين . . . وسرني أن أرى في لحظة هاتين الحربين ميداناً فسيحاً قد يتيح لي فرصة عظيمة للتفوق . وكان الكثيرون من الرجال البواسل ، الذين آاست فيهم التفاني في خدمتي ، يتوسلون إلى على الدوام أن أهني لهم الفرصة لإظهار بسالتهم . . . يضاف إلى هذا أنني مادمت مضطراً على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير ، فإنه انفع لي ان ألقى به في الأراضي المنخفضة من أن أطمعه على حسابي . . . وتحت ستار الحرب مع إنجلترا أستطيع ترتيب قواتي وهيئة غابراتي (أي جهاز الجاسوسية) لأبدأ مغامرتي في هولندا بنجاح أعظم (١٢٤) . »

تلك هي النظرة الملصكية إلى الحرب ، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة أو أكثر أمناً أو أوفر دخلاً ، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة ، وقد تتيح منصرفات للفرار للتصارعة ، وقد تيسر للجيش العالي النفقة أن يطعم على غذاء بلد أجنبي ، وقد تحسن موقف الدولة في الحرب القادمة . أما عن أرواح البشر التي ستحصدها الحرب ، فإن الناس لا بد أن يموتوا على أي حال وما أسخف أن يموت الرجل حتف أنفه ، ويقضى بطلاً بطيئة ماوية ، وأي ميته أفضل للرجال من الموت في خدار المعركة على ساحة الجدد ، وفي سبيل الوطن ؟ وعليه ففي ٢٤ مايو ١٦٦٧ عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية . فلم تصادف مقاومة فعالة ، وكان عدد الفرنسيين ٥٠.٠٠٠ ••

مقاتل ، والأسبان ٨٠٠٠ . وما لبث الملك أن دخل شارلوا ، وتورييه ، وكورترية ، ودويه ، وليل ، وكأنه يدخلها في موكب نصر ، وحصن فوبان المدن المفتوحة ، أما لوفوا فقد جهز المؤن في كل خطوة ، حتى الصحف الفغنية للضباط في معسكراتهم أو خنادقهم . وضمت إلى فرنسا أرتوا ، وإينو ، وفلاندر الولوية ، واستغاثت أسبانيا بالامبراطور ليوبولد الأول ، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الامبراطورية الأسبانية فيما بينهما ، ووافق ليوبولد ، فأمسك أى معونة عن أسبانيا . وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرانك — كونتيه أيضاً ، وهو الإقليم الواقع حول بزاسون ، بين برجنديّة وسويسرا . وكان ولاية تتبع أسبانيا ، ولكنه شوكة في جنب فرنسا . وفي فبراير ١٦٦٨ هبط جيش فرنسي عدته عشرون ألف مقاتل على فرانك — كونتيه بقيادة كونديه ، وحالفه النصر في كل مكان ، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألانت القواد المحليين . وقاد لويس بنفسه حصار دول ، فسقطت بعد أربعة أيام . ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرانك .. كونتيه كلها . فقفل إلى باريس مكللاً بالغار .

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحدود ، ذلك أن « الأقاليم المتحدة » أقنعت السويد وإنجلترا بالانضمام إليها في حلف ثلاثي ضد فرنسا (يوليو ١٦٦٨) وتبينت الدول الثلاث أن حريتها السياسية أو التجارية ستدوى إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين . ورأى لويس أنه تعجل السير إلى هدفه ؛ ذلك أن الاتفاق السري الذي أبرمه مع ليوبولد كان ينص على أن تؤول إلى فرنسا كل الأراضي للنخفظة وفرانك — كونتيه عند موت شارل الثاني ملك أسبانيا ، وبدأ أنه لن ينقضى طام أو نحوه حتى يموت شارل العليل ، فلعله كان خيراً لفرنسا أن تعريث حتى تقع الثمرة في حجرها بهدوء . وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المنسكون إنجلترا والسويد ، فأنتهت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) وردت فرنسا فرانك — كونتيه إلى أسبانيا ، ولكنها احتفظت بشارلوا ، ودويه ، وتورييه ،

وأودينارد ، وليل ، وآرمانتيير ؛ وكورتويه . وهكذا استبقى لويس لنفسه نصف الغنيمة .

ولكنه في ١٦٧٢ طاود زحفه على الراين ، وتكشف الآن هدفه الحقيقي — وهو هولندية لا فلاندر . وسنلقى بنظرة على هذه المأساة في فصل لاحق من زاوية الهولنديين ، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولاهاي قبل أن يقفه فتح سدود البحر . ولكن أوروبا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجديد لتوازن القوى . ففي أكتوبر ١٦٧٢ انضم الإمبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج في « حلف عظيم » ، وانضمت إليه أسبانيا واللوين في ١٦٧٣ ، ثم الدنمرك والبالايتين ودوقية برزويك — لوبيبورج في ١٦٧٤ ، وفي ذلك العام أكره البرلمان الانجليزي ملكه الموالى لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين .

وواجه لويس ببسالة هذا الانتقام الذي عوقبت به كبرياؤه ، فنجني المزيد من الضرائب برغم شكاوى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا ، وبني أسطولا ، وزاد جيوشه إلى ١٨٠.٠٠٠ مقاتل . وفي يونيو ١٦٧٤ وجه قوة منها لمحاصرة بزانسون ثمانية ، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانك — كوثيه من جديد . وخلال ذلك قاد تورين في حملة من أروع حملاته وأقساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الإمبراطورية . ودحر البالايتين واللوين وجزءاً من الإلثاس ليحول بين العدو وبين إيطاليهم جنده ، وتكرر على طوال الراين ذلك الخراب الذي أحدثته من قبل حرب الثلاثين . وفي ٢٧ يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولزباخ في بادن ، ودفن بأمر لويس في كنيسة سان — دني باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك ، وهو عليم بأن تلك الميتة الواحدة تعدل عشر هزائم . وحل « كوندية العظيم » محل تورين بعد ما حقق من انتصارات دامية في الأراضي المنخفضة ، فطرده جيوش الإمبراطورية من الإلثاس ، ثم اعتكف ذلك « الأمير » بعد أن دوخته سنون من الشهوات والحرب ، مؤثراً حياة الفلسفة

والحكم في شانتى . واضطلع لويس الآن بالحملة في الأراضي المنخفضة ، فحاصر فالنسين ، وكامبرى ، وسانتومير ، وغنت ، وإيبر ، واستولى عليها كلها (١٦٧٧ — ٧٨) . وهلك فرنسا ملكها قائداً مظفراً .

ولكن العبء الذى أثقل به كاهل شعبه لم يمدحتملاً . فنشبت الثورات في برردو وبرتنى ، وكان الفلاحون في جنوب فرنسا يتضورون جوعاً ، والشعب في الدوفينية يقتات على الخبز المصنوع من ثمر البلوط والجذور (١٢٥) فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة (١١ أغسطس ١٦٧٨) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الأراضي التى استولت عليها فرنسا منها ، وخفضت الرسوم التى أقصت المنتجات الهولندية عن فرنسا . وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا ، التى تفككت الآن أوصالها ، بأن تتخلى له عن فراش — كوتيه ، واثنى عشرة مدينة دفعت بمحدود فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الأراضي المنخفضة الأسبانية . واحتفظت فرنسا بمقتضى معاهدة مع الامبراطور بمدنيتين استراتيجيتين هما برايزاخ وفرايبورج — ايم — برايسجاو ، وبقيت الألزاس والورين في قبضتها . وكانت هاتان للمعاهدتان — نيميغن (١٦٧٨ — ٧٩) وسان — جرمان — آن — ليه (١٦٧٩) نصراً للأقاليم المتحدة ، ولكنهما لم تكونا هزيمة للويس ، فلقد فاز على الامبراطورية وأسبانيا ، ووصل في أماكن — هنا وهناك — إلى الراين الذى طالما اشتهى الوصول إليه .

على أنه احتفظ بحيشه الضخم رغم هذا الصلح ، موقناً أن الجيش القائم قوة تعزز الدبلوماسية . واستناداً إلى تلك القوة من ورأه ، واستغلاً غزياً لانصراف الامبراطور إلى قتال العثمانيين الراحقين ، أتمشأ في الألزاس ، وفراش — كوتيه ، وبرائسجاو « غرقاً لإعادة الاتحاد » ، تطالب ببعض مناطق الحدود التى كانت تمتلكها فيما مضى ، واحتل الجنود الفرنسيون بهذه المناطق ، وأغرقت مدينة ستراسبورج العظيمة ، التى لين موظفيها إغداق الرشا عليهم ، بأن تعترف بـ لويس ملكاً عليها (١٦٨١) . وفي نفس

العام ، وبوسائل مماثلة ، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازالى وحصنها ، وكانت تتحكم في الطريق بين سافوا وميلانو^(*) . فلما تلسكات أسبانيا في تسليم مدن الأراضى المنخفضة ، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر وبرايات ، وتغلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز ، وابتلع في طريقه دوقية لكسمبورج (يونيو ١٦٨٤) . واعترفت أسبانيا والامبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريجنسبورج (١٥ أغسطس) ، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آتشد . وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس في الواقع سلطته إلى الراين . فبحق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية .

ذلك كان الأوج الذي بلغه « الملك الشمس » فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع في الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان . وأقيمت المهرجانات الضخمة الغالية احتفالاً بانتصارات الملك . ولقبه مجلس باريس رسمياً بلويس العظيم . (١٦٨٠) ورسمه لبرون في صورة إله على أقبية فرساي ، وزعم لاهوتي أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله (١٢٧) . أما جماهير الشعب فقد مجدت حاكمها وسط فقرها المدقع ، وتاهت فخراً بمنمته الواضحة ، وأطراه حتى الأجانب ، لأنهم رأوا في حملاته شيئاً من للنطق الجغرافى ، وحياء الفيلسوف لايدنر « ذلك الأمير العظيم الذى هو مفخرة زماننا غسير منازع ، والذى ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً (١٧٨) » ، وإلى الشمال من جبال الألب والبراس ، وإلى الغرب من القستولا ، بدأت كل أوروبا للثقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه . لقد بلغت الشمس الأوج .

(*) لعل « الرجل ذا القناع الحديدى » هو الكونت مايبولى الذى باع لأسبانيا (١٦٧٩) سر المفاوضات بين لويس ودوق ميلانو . وقد تكهن البعض بأنه هو ذاته ماركيبولى ، السجين الفامش الذى أخفى وجهه خلف قناع من المخمل (لا الحديد) ، والذى مات في الباستيل في ١٧٠٣ (١٢٦)

الفصل الثاني

بوتقة الإيمان

١٦٤٣ - ١٧١٥

١ - الملك والكنيسة

ينزع المؤرخ - كما ينزع الصحفي - إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التي يرسمها ، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث . ولكن وراء أحكام قرننا ، ووزرائها ، وحاشيتها ، ومحظياتها ، ومقاتليها ، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء ، يزجرون أبناءهم ويحبونهم ، يأثمون ويعترفون بأنهم ، يلهون ويتشاجرون ، يذهبون إلى أفعالهم متناقضين وإلى اللواخير متسترين ، وإلى الصلاة متواضعين متذللين . وكان طلب الخلاص الأبدي يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومي ، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذبلت شهوة الحياة ، وصحن الكنيسة الظليل يربح هنية من وطيس الصراع . وكانت أساطير المعجزات شعر الجماهير ، والقداس مسرحية خلاصهم المعزية ، وسمت الرسالة التي يحملها الكاهن بقلوب القراء المهزومين ولو كان هو ذاته رجلا دينوياً جشعاً . وظلت الكنيسة المنافس للدولة ركيزة للمجتمع والسلطة ، لأنه بالرجاء أذعن الناس في صبر للعمل الشاق ، والقانون ، والحرب .

وعرف كبار الأكليروس الكاثوليك أهميتهم في معجزة النظام ، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمة وبهاء البسائط . وخالف الأساقفة ورؤساء الأساقفة في ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كوندية ، ومونبسنيه .

يوسفينييه ، وداعب المثات من الآباء — أنصاف المكرسين ، أنصاف المتزوجين — داعبوا النساء والأفكار . على أنه يمكن القول بوجه عام أن عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلاقهم كانت خيراً مما عهدناه خلال قرون قبل ذلك ، ربما بحافز من منافسة القساوسة الهيجونوت^(١) .

لم تسكن أديار الراهبات « مراتع الرذيلة » التي صورها جنون خاق الأساطير ، المنبعث من الكراهية للدين . فالكثير منها كان صوامع للورع الصادق ، الزاهد أحياناً ، كدير الكرمليات الذي اعتكفت فيه لويزدلا فالير ، وبعضها الآخر كان ملاذاً لشابات الأسر الكريمة اللاتي لم يجدن أباً وهن لهن أزواجاً أو مهوراً ، أو اللاتي افتقرن إيماناً ، أو أسأن إلى حاكم أو ملك . في أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجاً في استقبال زائر من العالم الخارجي ، أو في مراقبة بعضهن البعض ، أو في قراءة الأدب الديوى ، أو في تخفيف سأمهن بلعب البليارد أو الورق . وبإصلاح دير من هذه جعلت جاكين آرنو دير البور — رويال أشهر دير في تاريخ فرنسا .

على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المتفرق عن الطرق الديرية ، فالكثير منها أرخى نظمته ، وطاش حياة التبطل ، والعبادة الصورية ، والالحاف في التسول . وقد أصلح « أرمان جان درانسيه » دير نوردام دلا تراب بنور منديا ، وأسس الطريقة الترابية الصارمة التي مازالت حية في صمت . ودخل اليسوعيون دخولاً أنشط في حياة فرنسا وتاريخها . كانوا في بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريبة باعتبارهم مدافعين عن قتل الملك ، أما في نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك — نعم أنهم كانوا خبراء في علم النفس . فحين أسست الراهبة مارجريت ماري ألاكوك بوحى من رؤيا صوفية تراءت لها (١٦٧٥) جمعية منقطعة للعبادة العلنية لـ « قلب يسوع المقدس » ، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منفذاً وحافزاً للتقوى الجماهير . وفي الوقت نفسه يسروا الدين للخطاة إذسلموا بأن

الخطيئة في طبيعة البشر ، ووضعوا علم « الإفتاء » سبيلا للتخفيف من عسر الوصايا العشر وللتلطيف من عصاب تأنيب الضمير ، وما لبث أن اشتد الطلب عليهم آباء اعتراف للخطاة ، واكتسبوا سلطة « مرشدي الضمائر » ، لاسيما بين النساء اللاتي سدن المجتمع الفرنسي ، واللاتي أثرن أحيانا في السياسة القومية للبلاد .

ولم يكن لكلمة « الافتاء » في القرن السابع عشر ذلك المدلول المبهين الذي الصقته بها رسائل بسكال الأقليمية . فقد كان يفترض في كل قسيس ، بوصفه أب اعتراف أو مرشدا روحيا ، أن يعرف بالضبط ما الذي يجب أن يعتبر خطيئة مميتة ، أو خطيئة هينة ، أو لا خطيئة على الإطلاق ، وكان عليه أن يستمد لتطبيق علمه ، والملازمة بين حكمه ، ونصحه ، والعقوبة الكنسية التي يشير بها ، وبين الحالة للمائلة أمامه (Casus) . وكان معلوم الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن ، في التمييزات الخلقية ، بتفصيل مستفيض في الأجزاء القانونية من التلمود ، وحذا حذوهم التشريع والطب النفسى العصريان . وقبل أن تنشأ جماعة اليسوعيون بزمن مديد ، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة في الافتاء لإرشاد السكاهن في أمر للمبدأ الخلقى والتطبيق الاعترافى . ففي أى الحالات مثلا يجوز أن يبدى على حرفية القانون الخلقى روحه أو قصده ؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو يسرق أو يقتل ، أو يحنث بوعد حثا معقولا ، أو يلتك يمينا ، أو حتى ينكر العقيدة ؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلقى تفسيراً صارما ، ورأوا أن الصرامة أجدى في المدى الطويل من التساهل . ولكن غير هؤلاء — ولا سيما اليسوعيين مولينا ، وإسكوبار ، وتوليدو ، وبوزيباوم — حذبوا دستوراً أخلاقيا متسامحا ، وحضوا على ضرورة التماس العذر للطبيعة البشرية ، ومؤثرات البيئة ، والجهل بالقانون ، والمشقة البالغة في الامتثال الحرفى لقانون ، وعنف سوراة العاطفة . عنفا شبيها بالجنون ، وسائر الظروف

التي تعطل حرية الإرادة، وتيسيرا لهذه الأخلاقيات البينة، وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح — ومؤداه أنه إذا استحسن حجة معروف في اللاهوت الخلقى رأيا بعينه، جاز لكاهن الاعتراف أن يحكم طبقاً لهذا الرأى إذا استصوب ذلك، ولو عارضته كثرة الخبراء. (وكانت كلمة *Probabilis* تعني في ذلك الوقت للمستحسن، أو الذى يسمح بالاستحصان^(٢)). يضاف إلى هذا، في رأى بعض المفتين اليسوعيين، أنه من المباح أحيانا أن يكذب الإنسان، أو يمسك عن قول الحق بـ «تحفظ عقلى»؛ مثال ذلك أن للمسيحى الأسير، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه. ثم إن أخلاقية حمل ما، في رأى إسكوبار، ليست في الفعل نفسه، التى ليس في ذاته أخلاقيا أولا أخلاق، بل في نية الفاعل الخلقية، فليس هناك خطيئة مالم يكن هناك خروج واع، مختار، عن القانون الخلقى.

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقا معقولا رحيا بين القواعد التي يغلب عليها زهد العصر الوسيط، وبين مجتمع اكتشف مشروعية اللذة. ولكن اليسوعيين في فرنسا بصفة خاصة، وفي إيطاليا بدرجة أقل، طوروا الافتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية مبنا حمل رجالا جادين كبسكال في باريس، وساربنى في البندقية، وكثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك، ومنهم عدة يسوعيين^(٣) — حمل هؤلاء جميعا على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاما من المسيحية لخطيئة. وصدى هذا التراخي اليسوعى مع العالم والجسد مشاعر هييجو موت فرنسا الذين ورنوا دستور كالفن الخلقى الصارم. وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها — وهى الجاسنية — رفعت في دير البور — رويال لواء أخلاقية شبه كالفنية، في حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فرنسا والأدب الفرنسى قرنا كاملا. وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى المعركة، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين. وتطبيقه للدين لم يكن مزمنا. وفي ١٦٧٤ اضطلع الأب لاشيز بالأشراف

على ضمير الملك ، وقد وصفه فولتير بأنه « رجل هادئ الطبع يسهل عنده التوفيق دائما »^(٤) وقد شغل المركز المكنين وثلاثين سنة ، غفر خلالها كل شيء وحظي بحبة كل إنسان . وقد قال لويس عنه « بلغ من طيبته أنني كنت أحيانا ألومه عليها »^(٥) . ولكن بطريقته الهادئة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك ، وأمان على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر اللطاف ، وإلى طاعة البابا .

ذلك أن لويس لم يسكن دائما « بابويا » صادقا . كان متدينا على طريقته الرسمية ، ونذر أن قصر في حضور القداس اليومي^(٦) . قال لولده في مذكراته :

« . . . واصلت تدريبات التقوى التي نشأتني عليها أمي ، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذي نلته ، ومن جهة لأكسب محبة شعبى . . . والحق يابني أننا لا نفتقر إلى عرفان الجليل والأنصاف نجس ، بل إلى الحكمة والفضيلة أيضا ، حين نقصر في عبادته تعالى ، الذي لسنا إلا نوابا له . وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذي يستحقه »^(٧) .

على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية . ذلك أن لويس ورث التقليد « العالي » بمقتضى تفويض بورج البرجاني (١٤٨٣) وكونكوردا فرسوا الأول (١٥١٦) - ذلك التقليد الذي أقر حق ملوك فرنسا في تعيين أساقفه فرنسا ورؤساء أديارها ، وتحديد دخولهم ، والتعيين في جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول في الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه . وقد آمن لويس أنه خليفة لله أو ممثله في فرنسا ، وأن خضوعه للبابا (بوصفه هو أيضا خليفة لله) يجب أن يقتصر على شئون العقيدة والأخلاق ، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يعطعوا الملك في كل أمر يتصل بالهولة الفرنسية .

واستنكر فريق من الأكليروس هذه الدهوى - وهم المناصرون للسيادة

البابوية المطلقة — وأبدوا سلطان البابوات المطلق على الملوك والجامع وتمييز الأساقفة ، ولكن الغالبية — وهم الحزب الغالى — دافعوا عن استقلال الملك الكامل فى الأمور الزمنية ، وأنكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكونى ، ورأوا فى الروغان من سيطرة روما منفعة للكليروس الفرنسى . وصرح أمير كونديه أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستنتى لكان رجال الأكايروس الفرنسى أول من يتبعه (٨) . وفى ١٦٦٣ أصدرت السوربون — وهى كلية اللاهوت فى جامعة باريس — ست مواد تؤكد الموقف الغالى . واتخذت « البرلمانات » الفرنسية ذات الموقف ، وأيدت لويس فى دعواه بحقه فى أن يقرر أى المراسيم البابوية ينبغى نشره وقبوله فى فرنسا . وفى ١٦٧٨ احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية ، وحرّم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفا قاوم هذه النزعة . ودعا الملك مجمعا من الأكايروس ، كلهم تقريبا من اختياره . وفى مارس ١٦٨٢ أعاد المجمع تأكيد مواد السوربون الست ، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة ، التى كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما :

١ — للبابا سلطان فى الأمور الروحية ، وليس له سلطان عزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم .

٢ — للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا .

٣ — الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها .

٤ — لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة .

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع ، ورفض التنصيب القانونى لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد . وإذ كان لويس لا يمين إلا أمثال هؤلاء المرشحين ، فقد شغرت فى ١٦٨٨ نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القانونيين . على أن الشيخوخة ومدام دمانتون كانا قد الانا جاب الملك ، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد . وفى ١٦٩٣ سمح لويس

لمرشحيه إن ينكروا المزارد ، وأقر البابا أنوسنت الثاني عشر حق الملك في
القيينات الأسقفية ، وأصبح لويس من جديد « الملك المسيحي جداً »
. Rex Christianissimus

٢ - البور - رويال : ١٢٠٤ - ١٦٢٦

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث
التي اضطرر بها حكم لويس . فقد فاقها عمقا ذلك الصراع الذي احتدم بين
الكاثوليكية السنية التي دانت بها الدولة والأكليروس ، وكاثوليكية
الجانسينيين والبور - رويال القريبة من البروتستانتية ، وكان أعمق هذه
المسرحيات وأشدّها فجعية هو القضاء على الهيغونوت في فرنسا . ولكن
ما هو البور - رويال هذا ، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله في التاريخ
الفرنسي ؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة السيسترسية Cistercian على نحو
مئة عشر ميلاً من باريس وستة أميال من فرساي ، في مكان وطيء تكثفه
المستنقعات ، وصفته مدام دسفينيه بأنه « واد رهيب ، هو بالضبط
المكان الذي يجد فيه الإنسان خلاصه (٩) » . أسس حوالي ١٢٠٤ ، ونجا
بشق الانفس من التقلبات الكثيرة التي تعرض لها في حرب مائة العام
والحروب الدينية . وقد اضطلع نظامه وتناقضت راهبانه ، ولعل الدير كان
يخفى عن الانظار لولا أنه خضع لرأسه جاكين آرنو ، وجرد للدفاع عنه
قلم بلير بسكال .

لقد صنع أنطوان آرنو الأول (١٥٦٠ - ١٦١٩) التاريخ ببلاغته
ووفرة ذريته . ففي ١٥٩٣ ، بعد أن حاول باريير اغتيال هنري الرابع ،
وجه آرنو إلى برلمان باريس خطاباً غاضباً طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا .
ولم يمتنعوا عنه بعدها ، وكانوا ينظرون بعين نقادة منذرة بالشر إلى مآثرهم
به أسرته في البور - رويال . وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه -
البالغين نيفاً وعشرين - دور في قصة ذلك الدير . فقد عينت جاكين آرنو
٦ - فمه الحضارة

مساعدة لرئيسة دير البور — رويال وهى فى العاشرة (١٥٩٨) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان ، البالغة ستة أعوام ، رئيسة لدير سان — سير . وكان التعيينان بأمر هنرى الرابع ، وثبتهما مرسومان بابويان أمكن الحصول عليهما بتزيف صهر الفتاتين (١٠) . ولعل أباهما القس لابنتيه هاتين الوظيفتين بديلا عن العثور على زوجين ومهرين لهما .

فلما أصبحت جا كلين ، بوصفها الأم آنجليك ، رئيسة إمامية للبور — رويال (١٦٠٢) لم تجد غير أرخى النظم بين راهباته الثلاث عشرة ، فقد كانت كل منهن تحتفظ بثروتها ، وتكشف شعرها ، وتستعمل مستحضرات التجميل ، وتتبع أحدث الأزياء . وقبل أن تناولن الأسرار المقدسة ، ولم يستمعن لأكثر من سبع عظات خلال ثلاثين عاما (١١) . فلما ازداد وعى الرئيسة الشابة بالحياة التى ألزمتها إياها أبواها ، سخطت ونوت الهروب (١٦٠٧) . « فسكرت فى مغادرة البور — رويال والعودة إلى العالم — دون إحاطة أبى أو أمى بنيتى ، لأهرب من هذا الدير الذى لا يطاق ، ولأتزوج » . (١٢) ومرضت ، لحملت إلى بيتها ، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى عادت إلى البور — رويال عقب إبلالها وهى مصهمة على الوفاء بنذورها الديرية حبا فى أمها . على أنها أوصت بشد من عظام الحوت لتحتفظ لقوامها بنحافته (١٣) . وظلت تخفى نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت فى عيد القيامة عام ١٦٠٨ عظة ألقاها راهب كبوشى عن آلام المسيح ، وكانت يومها فى ميعة الصبا . قالت تروى الحدث فيما بعد « خلال هذه العظة لمسنى الله لمسة جعلتنى أحس منذ تلك اللحظة بأننى أسعد حالا فى حياة الرهبنة . ولا أدري أى شىء كنت أحجم من فعله الله إذا واصل تعالى هذه الحركة التى منحتنى إياها نعمته (١٤) » . ذلك ، فى لغتها ، كان « أول عمل للنعمة » (أى اللطف الإلهى) .

وفى أول نوفمبر من ذلك العام ملأها عظة أخرى — هى « ثانى أعمال

النعمة ، شعورا بالخزي من شدة تراخيها وتراخي راهباتها في الوفاء بما نذرن من فقر وعزلة . وإذ كانت ممزقة بين حبها للراهبات ورغبتها في فرض نظام الطريقة السسترسية ، فقد رأت عليها السكاية ، ومارست ألوانا من التقشف لم يقو عليها جسدها ، فأصابها الحمى . ولابد أنها كانت لطيفة محببة إلى النفوس ، وآية ذلك أنه حين سألتها الراهبات عن السر في حزنها ، وصارحتهن برغبتها في أن يرجعن إلى التزام نظام رهبتهن بمخاضه ، ارتضين حكمها ، وجمعن كل ممتلكاتهن الخاصة ، وأخذن العهد على أنفسهن بالفقر الدائم .

أما الخطوة الثانية ، وهي اعتزال العالم ، فسكان أشد إيلا ما . فقد حظرت الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير ، أو يستقبلن الزوار — حتى أقرب الأقرباء — دون إذن صريح ، فإذا استقبلنهم في قاعة الاستقبال دون غيرها . وشكون مما سيكلفهن هذا من عناء شديد . ولكي تعطين القدوة الحسنة المشددة لعزائمن صممت ألا ترى أبويها في زيارتهما التالية إلا من نافذة ذات شبك أو « شيش » في الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وحجرات الدير . فلما حضر أبواها راعهما أنها لا تريد التحدث إليهما إلا من خلال هذا الشباك . . وأصبح « يوم الشباك » *journee du guichet* (٢٥ سبتمبر ١٦٠٩) يوما مشهورا في الأدب الدائر حول البور — رويال .

وهذا غضب الأسرة المقصاة ، وتأثر أفرادها بورع الأم أنجليك (التي بلغت الآن الثامنة عشرة) تأثرا حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت آر نو على دخول البور — رويال . ففي ١٦١٨ ، أخذت شقيقتهما آن أوجنى على نفسها عهد الرهبنة . ولحقتهما شقيقات أخريات بمد قليل — كاترين ، ومارى ، ومادليز . وفي ١٦٢٩ ، جثت أمهن الأرملة عند قدمي الأم أنجليك ملتزمة قبورها مبتدئة في الرهبنة ثم أخذت العهد في الوقت المناسب ، وعاشت في تواضع وسعادة

تحت رئاسة ابنتها ، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم . وقد حمدت الله وهي تحتضر (١٦٤١) لأنها قدمت متما من بناتها للحياة الدينية . ودخلت خمس من حفيداتها البور — رويال في فترة لاحقة . وأصبح ابنها رويير وثلاثة من حفيدتها « متوحدين » هناك ، وأصبح ألمع أبنائها ، وهو الطوان آرنو الثاني ، عضو السوربون ، فيلسوف البور — رويال ولاهوتيه . وإنما ليأخذنا العجب لهذه الخصوبة ، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا العمق في التعبد والولاء والإيمان (*) .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة — ودا إلى نظام الرهبنة السرسية الكامل . حفظت الراهبات ، اللاتي بلغ عددهن الآن ستا وثلاثين ، جميع الأصوام بدقة تامة ، ومارسن الصمت فترات طويلة ، واستيقظن في الثانية صباحا لترتيل تسبحة الصباح ، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران من مالهن المشترك . وسرت الإصلاحات من البور — رويال ، وأرسلت الراهبات اللاتي دربن فيه الأديار في جميع أرجاء فرنسا لحضما على العودة إلى سابق نظمها . من ذلك أن ديرا في موبويسون كان شديد الإنحلال ، وقد استعمله هنري الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابرييل دستريه ، وكانت رئيسته محاطة ببناتها غير الشرعيات ، وكان الراهبات يخادرن دبرهن دون قيد ليلقين ويراقصن رهبان دير مجاور (١٦) . وفي ١٦١٨ طلب رؤساء الأم أنجليك إليها أن تحمل محل رئيسة دير موبويسون ، ومكثت هناك خمس سنوات ، فلما عادت إلى البور — رويال تبعتها اثنتان وثلاثون راهبة إلى الدير الأم الذي أبعث منه نور الإصلاح .

وفي ١٦٢٦ ظهر وباء الملاريا في البور — رويال ، وإذ نبه بعضهم أنجليك

(*) لاحظ سانت — بيث أن « مدة شابات من بينهن راهبات البور — رويال كن قد أصبن بالجدرى فتشوهت وجوههن في سن مبكرة » ، وأضاف في خبث « لا أرهدن أقول أننا لا نهب الله إلا ما فقد قيمته في هذه الدنيا » (١٥) .

إلى مافى جوالدير الرطب من خطر ، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل
بباريس . وهناك ، وتحت تأثير الجاسنية ، دخلن معركة مع التاريخية مع
اليسوعيين والملك . وسرعان ما احتل « المتوحدون » المباني المهجورة
المتهدمة في البور - رويال - دى - شان ، وكانوا رجالا رغبوا في أن
يحيا حياة أقرب إلى الحياة الديرية وان لم يندروا أنفسهم الرهينة . ووجد
على المكان نفر من آل آرنو - أنطوان الثاني ، وأخوه روبير آرنوداندي ،
وابن أختيه أنطوان لوميتير وسيمون لوميتير دسريكور ، وحفيده إسحاق
لموى ساسي ، وانضم إليهم بعض رجال الكنيسة ، أمثال بيير نيكول
وأنطوان سانجلان ، لابل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون
دبونشانو . وراحوا يصرفون معاميات المستنعمات ، ويحفرون الخنادق ،
ويرمون المباني ، ويمنون بالبساتين والحدائق . وكانوا - جماعة أو فرادى -
يمارسون ألوانا من الفنون ، ويصومون ، ويرتلون ، ويصلون ، ويلبسون
لباس الفلاحين ، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم في البرد القارس . وكانوا
يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ، وقد ألفوا كتباً فيها
تعبداً وتمقة ، وأحد هذه الكتب ، وسمه « فن التفكير » ، وهو من
تأليف نيكول وآرنو الصغير ، ظل كتيباً محبباً في المنطق حتى
القرن العشرين .

وفي ١٦٣٨ افتتح المتوحدون « مدارس صغيرة » دعوا إليها أمانلا
اختاروهم من سن التاسعة أو العاشرة ، وعلموهم الفرنسية ، واللاتينية ،
واليونانية ، والنواحي السنية في فلسفة ديكرت . وطلب إليهم أن يجتنبوا
الرقص والمسرح (وكلاهما وافق عليه اليسوعيون) ، وان يصلوا كثيراً ،
ولكن ليس للقديسين ، ولم تكن هناك صور دينية في الكنيسة الصغيرة
التي يسمعون فيها القداس . وفي البور - رويال - دى - شان ، والبور -
رويال - د - بارى ، أصبح اعتراض تقوى آل آرنو على قساد البلاط ،

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسانية الصارمة على تيسير اليسوعيين للمسيحية حتى توائم الطبيعة البشرية .

٣ — الجانسون واليسوعيون

كان كورنيليس جانسن هولندياً ، ولد في ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكين ، ولكنه تأثر تأثراً عميقاً باللاهوت الأوغسطيني الذي دان به جيرانه الكالفينيون . فلما التحق بجامعة لوفان الكاثوليكية (١٦٠٢) وجدها مضطربة بمجدل عنيف بين الحزب اليسوعي أو السكولاستي ، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التي نادى بها ميخائيل بايوس في الجبرية والنعمة الإلهية . وانحاز جانسن إلى الأوغسطينيين . وفي الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذاً ، قبل جانسن دعوة وجهها إليه زميل يدهى جانس دوفرجييه دهوران ليعيش معه في بايون . وقد درسا القديس يواس والقديس أوغسطين ، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الكاثوليكية ضد الكالفنيين الهولنديين والهييجرنوت الفرنسيين هو الاقتداء بأوغسطين في تشديده على النعمة الإلهية والجبرية ، وتأصيل دستور أخلاق صارم بين الأكايروس والعلمانيين الكاثوليك ، يفضح الانحلال المنتشر في البلاط والأديار ، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة اللينة .

وفي ١٦١٦ ، بينما كان جانسن رئيساً لبيت للطلاب الهولنديين في لوفان ، هاجم لاهوت اليسوعيين في حرية الإرادة ، وبشربيورتانية صوفية قريبة من التقوية التي كانت بسبيل التشكل في هولندا ، وإنجلترا ، وألمانيا . ثم واصل الحزب أستاذاً لتفسير الكتاب المقدس بلوفان ، وأساقفاً لأير . وترك عند موته (١٦٣٨) رسالة كبيرة — لم ينجزها تماماً — عنوانها « أوغسطينوس » ، ما لبثت بعد نشرها في ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج العقائدي

للهور — رويال ، ومشار الجدل في اللاهوت الكاثوليكي الفرنسي طوال قرن تقريبا .

ومع أن الكتاب اختتم بلمحة خضوع لكنيسة روما ، فإن كالفيني الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها (١٧) . فقد قبل جانسن الجبرية قبولاً تاماً كما قبلها أوغسطين ولوتر وكالفن من قبل . حتى قبل أن يخلق الله العالم ، اختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغي أن يخلصوا ، وقرر من ينبغي أن يهلكوا ؛ وأعمال البشر الصالحة ، وإن تسكن ذات قيمة ، لا يمكن أن تسكبهم الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية ، وقيلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أبكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين ، ولكنها تركتها تتوارى في خلفية تعليمها ، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة ، التي بدا أنها شرط لاغنى عنه — منطقياً — للمسئولية الخلقية والفكرة الخطيئة . ولكن إرادة الإنسان في رأى جانسن ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم . وأصبحت طبيعته الإنسان الآن فاسدة فساداً يعجزه عن تخلص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التي اكتسبها بموت المسيح . أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يغالى في دور الأعمال الصالحة في نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ، ذلك الموت الذي افتدى الخطاة ، أمراً لا ضرورة له تقريبا . ثم يبه إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، فالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الواثق المسلم ، تماماً كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد وصلت هذه الأفكار إلى الهور — رويال بطريق دوفرجيه ، الذي كان أثناء ذلك قد أصبح رئيساً لدير سان — سيران . وقد وفد مسيودسان — سيران ، كما سمى الآن ، على باريس وهو يتقد غيرة وتحملاً

لإصلاح اللاهوت والأخلاق ، وليستبدل التقوى الباطنة بالتدين الظاهر وسرعان ما قبل مرشدا روحيا للراهبات في البور — رويال — دباري ، وللمتوحدين في البور — رويال دي — شان (١٦٣٦) ، وغدت هذه المؤسسة المزروجة صوت الجانسية ونموذجها الأمثل في فرنسا . أما ريشليو فقد رأى في هذا المصلح رجلا متمعصبا مثيرا للقلق ، فاعتقله في فانسين (١٦٣٨) . وفي ١٦٤٢ أفرج عن سان — سيران ، ولكنه مات بالفالج بعد سنة .

وقد ظل بلهم الكثيرين من آل آرنو حتى وهو في سجنه . فنشر آرنو الثاني « آرنو الكبير » في ١٦٤٣ رسالة في « كثرة تناول الأسرار المقدسة » واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين . ولم يذكر اسمهم صراحة ، ولكنه ندد بفكرة أحس بأن بعض الكهنة الاعتراف يتساحون فيها ، وهي أن في قدرة الخطي أن يسكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف وتناول القربان . وشعر اليسوعيون بأنهم المفصودون بهذا الهجوم ، فشددوا النكير على آل آرنو . وتوقع أنطوان المتعصب ، فرحل عن باريس إلى البور — رويال — دي — شان . وفي ١٦٤٨ رحلت الراهبات أيضا عن العاصمة وقد روعتهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم . وأُخلى المتوحدون المسكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج .

كان البابا أوربان الثامن قد أدان (١٦٤٢) العقيدة العامة التي انطوى عليها كتاب جانسن « أوغسطينوس » . وفي ١٦٤٩ طلب أستاذ في السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا في الكتاب رغم أنها تحظى برواج شديد . وأحيل الأمر إلى إوسنت العاشر ، وانتهر اليسوعيون الفرصة ليقنعوا البابا بما تنطوى عليه الجانسية من أخطار بوصفها لاهوتا كالفنيا يتخفى في ثوب كاثوليكي . وأخيرا حملوه على إصدار مرسوم Cum occasione (٣١ مايو ١٦٥٣) ، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من كتاب « أوغسطينوس » :

١ - هناك تعاليم الهية يعجز الصالحون عن طاعتها عجزا مطلقا رغم إرادتهم .

٢ - لا يستطيع إنسان أن يقاوم تأثير السحمة الإلهية .

٣ - لكي تكون أعمال البشر أهلا أو غير أهل للمكافأة والتقدير لا يشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة ، بل يكفي أن تكون بلا ضغط أو كبت .

٤ - هذه الهرطقة ، الشبيهة بهرطقة بيلاجيوس ، مؤداها السماح لإرادة الإنسان بأن تمنع قوة مقاومة النعمة ، أو الامتنال لتأثيرها .

• - كل من زعم أن المسيح مات ، أو سفك دمه ، للبشر جميعا ، هو شبيه بيلاجيوس (١٨) .

هذه القضايا لم تؤخذ حرفيا من كتاب « أوغسطينوس » ، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تلخيصا لتعليم هذا الكتاب . وهي كخلاصة فيها قدر لا بأس به من الانصاف (١٩) ، ولكن الجانسينيين احتجوا بأن القضايا ، بهذا الوصف ، لا توجد عند جانسن - وإن كان آرنو قد أُلْمِعَ في خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين . وفي غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيها يبدو .

وكان أنطوان آرنو مقاتلا بالفطرة . فأقر بمصمة البابا في أمور الإيمان والأخلاق ، لافي الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة ؛ ومن الحقائق الواقعة أنه أنكر أن جانسن قرر هذه القضايا المحكوم بإداتها . وفي ١٦٥٥ عاد إلى مقابلة اليسوعيين في عقر دارهم بنشره « رسائل إلى دوق وبييل » ، وقد هاجم فيها الأساليب التي زعم أنها أساليب اليسوعيين في كرمي الاعتراف ورحبت السور . بن بافتراح بطرده . فأعد دفاعه ، وقرأه على أصحابه في البور - رويال . فلم يقع من شيوخهم موقعا ذا بال ، وكان أحدهم

مريدا جديدا بدعى بلينز بسكال . فأتجه إليه آرنو وأهاب به قائلا : « أنت أيها الشاب ، لم لا تكتب شيئا (٢٠) ؟ » واعتكف بسكال في حجراته ، وكتب أول « رسائله الإقليمية » وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين . وينبغي أن نستمع إلى بسكال في شيء من الإسهاب ، لأنه لم يكن أعظم كتاب النثر الفرنسي فحسب ، بل ألمع المدافعين عن الدين في عصر العقل بأكله .

٤ - بسكال : ١٦٢٣ - ٦٢

١ - بسكال الإنسان

كان أبوه إتيين بسكال رئيسا لمحكمة المعاوين بسكايرون - فيران في وسط فرنسا الجنوبي . وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين ، خلفته فضلا عنه أخذا أكبر منه تدعى جلبرت وأخرى أصغر تدعى جاكين . وانتقلت الأسرة إلى باريس حين بلغ بلينز الثامنة . وكان إتيين يدرس الهندسة والفيزياء ، وقد اتراح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندي ، وميرسين ، وديسكارت . وكان بلينز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم ، فأصبح في الفترة الأولى من حياته حاشقا للعلم . فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام المتذبذبة . وخیل للأب أن ولع الصبي بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته الأخرى ، فحظر عليه حينئذ أن يعنى في عكوفه على الرياضيات . ولكن حدث يوما - فيما روى - أن إتيين وجده يكتب على الحائط بقطعة من الفحم البرهان على أن زوايا الثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين (٢١) ، وبمدها ممح للغلام أن يدرس اقليدس . وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بحثا في القطاعات المخروطية فقد أكثره ، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة في ذلك العلم ، وما زالت تحمل اسمه . وحين عرضت مخطوطة البحث على ديسكارت أبى أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب .

في ذلك العام (١٦٣٩) لعبت أخته الجميلة جاكلين دوراً مثيراً في حياة الأسرة ، وكانت آتت في الثالثة عشرة . ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال في السندات البلدية ، وخفض ريشليو نسبة الفائدة التي تؤدي عن هذه السندات ، فالتقده إيتين ، وهدد الكردينال بالقبض عليه ، فاختبأ في أوفرني . ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات ، وقامت بعض الفتيات — ومنهن جاكلين — بتمثيل مسرحية سكوديري « الحب الظالم » أمامه ، فشرح تمثيلها صدره ، واغتنت هي الفرصة وتوسلت إليه أن يصفح عن أبيها ، ففعل ، وعينه ناظراً ملكياً في روان عاصمة نورمندي ، وإليها انتقلت الأسرة في ١٦٤١ .

وهناك اخترع بلير أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن في كونسرفتوار الفنون والصنائع بباريس ، وكان يومها في التاسعة عشرة . أما المبدأ الذي قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفر ، ويحرك كل منها ليدور عشر دورة نظير كل دورة كاملة للترس الذي إلى يمينه ، ويظهر كل منها رقه الأعلى في ثقب عند القمة . ولم تسكن الآلة تستطيع غير الجمع ، ولا كانت عملية من الناحية التجارية ، ولكنها قربت من بداية تطور ينير اليوم دهشة العالم . وأهدى بسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد ، مشفوعة بخطاب اطراء بليغ جداً ، فدعته إلى قصرها ، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك للناس الهيب .

وكان العالم الشاب المتحمس شديد الاهتمام بالتجارب التي نشرها تورتشيلي عن وزن الهواء ، وطرأت على خاطر بسكال فكرة كان فيها مستقلاً عن تورتشيلي ، ولكن ربما استوحاها من اقتراح لديسكارت (٢٢) ، ومؤداها أن الزئبق في أنبوبة تورتشيلي يرتفع إلى مستويات مختلفة في أماكن مختلفة ، حسب اختلاف الضغط الجوي . فطلب إلى زوج أخته في أوفرني أن يحمل أنبوبة زئبق إلى قمة جبل ، وبلاحظ أي فرق — على مختلف

المستويات — في ارتفاع الزئبق في الجزء المقفل من أنبوبة فتتح طرفها الآخر لضغط الهواء. وفعل فلوران بيريه كما طلب إليه ، في ١٩ سبتمبر ١٦٤٨ ارتقى مع بعض أصحابه « بوى ددوم » ، الذي يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون — فيران ، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة في الأنبوبة ، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين ، وهلمت أوربا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمته .

وتلقى بسكال بفضل شهرته عالمياً (١٦٤٨) نداءً مشيراً من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً لرياضيات الحظ أو الصدفة ، فقبل التحدى ، واشترك مع فخره في وضع حساب الاحتمالات ، الذي ينتفع به الآن كثيراً في جداول التأمين من المرض والموت . ولم تبد عليه في هذه المرحلة من نموه أى بادرة بأنه سينقل يوماً ما ولاه من العلم إلى الدين ، أو يفقد إيمانه في المنطق والتجريب ، وواصل العمل عشر سنين في المعضلات العلمية لاسيما الرياضية منها ، وفي تاريخ متأخر (١٦٥٨) عرض جائزة من مجهول في تربيعة الدويرى — وهو الخط المنحنى الذى تحدته نقطة على دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو . وتقدم بالحلول واليس ، وهو بجنز ، ورن ، وغيرهم ، ونشر بسكال بعد ذلك حله ، تحت اسم مستعار ، وأعقب ذلك جدل سلك فيه المتنافسون ، ومنهم بسكال ، مسائل لم يقسم بالكثير من الفلسفة .

وتسلط على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان ، المرض والجنانسية . ذلك أنه منذ كان فى فى الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بغير ألم . وفي ١٦٤٧ أقعدته إصابة بالشلل لم يستطع بسببها المشى إلا إذا توكأ على عكازين . كان رأسه يصدع ، وأمعاؤه تلتهب ، وساقاه وقدماه دائماً البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنظيم دورته الدموية . وكان يلبس الجوارب الطويلة المتقوعة في البراندى النعاس لدفء قدميه .

وكان مما حمله على الانتقال إلى باريس مع جاكلين أن يجد علاجاً طبياً أفضل ، وتحسنت صحته ، ولكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم . فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد عمقها على الأيام حتى أثرت في خلقه وفلسفته ، فبات سريع الإنفعال ، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر العاتى ، وقل أن أشرق وجهه بابتسامة (٢٢) .

وكان أبوه طيله حياته كاثوليسكياً تقياً بل صار مأوسط شواغله العلمية ، وقد علم أبناءه أن الإيمان الديني أنمن ما يملكون ، وأنه شئ بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التفكير الضعيفة التى يملكها البشر . وفى روان أصيب الأب بمحرج خطير فعالجته طبيب جانسنى بنجاح ، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسنية ، فلما انتقل بليز وجاكلين إلى العاصمة كثر اختلافهما إلى القداس فى البور — رويال — د — بارى ، ورغبت جاكلين فى دخول الدير راهبة ، ولكن أباها لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية ، ولكنه مات عام ١٦٥١ ، وما لبثت جاكلين أن ترهبت فى البور — رويال — دى — شان ، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنىها عن عزمها .

وتنازعا حيناً على تقسيم ميراثهما ، فلما سوى النزاع وجد بليز نفسه رجلاً غنياً حراً - . وتلك حال مجافية لحياة التقوى ، فاتخذ لنفسه بيتاً فاخر الأثاث ، واستكثر من الخدم ، وجاب باريس فى مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة (٢٤) . وأعطاه شفاؤه المؤقت شعوراً خداعاً بالنشاط والخفة حرقه من التقوى إلى اللذة . وعلمنا ألا تنفسه على تلك السنوات القليلة التى قضاهـا « فى العالم » (١٦٤٨ — ٥٤) ، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعابها وحسانها ، ويطارد فى برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة ، وصفها بـ « سافر الريف » (٢٥) . وحوالى هذه الفترة كتب « أحاديث فى آلام الحب » ويلوح أنه فسكر فى الزواج — الذى سيصفه فى تاريخ لاحق بأنه « أحط ظروف الحياة المباحة لمسيحي » (٢٦) . وكان بعض أصحابه

خجرة جمعوا بين الحربتين ، حرية الأخلاق وحرية الفكر ، ولعلمهم هم الدين
أثاروا اهتمام بسكال بمونثيني ، الذي تغلغل الآن « مقالاته » في حياته .
وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الديني .

ووبخته جاكلين حين نعى إليها عبثه الجديد ، وصلت لأجل صلاح حاله .
وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له .
ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البون دى بوى جسر تيللى ، جمعت
الطويل واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين . وكادت العربى أن تتبع الطويل ،
ولسكن العنان انقطع لحسن الحظ ، وتملقت المركبة بنصفها فوق الحافة .
وخرج منها بسكال وأصحابه ، ولسكن الفيلسوف للمرهف الحس أغمى عليه
لفرط خوفه من الموت الدائم ، وظل برهة ضائبا عن رشده . فلما أفاق شعر
بأنه رأى الله فى رؤيا . وفى نشوة من الخوف والندم وعرفان الجليل سجل رؤياه
على رق راح بحمله منذ تلك اللحظة مخيطا فى بطانة سترته : « السنة ١٦٥٤
بعد الميلاد ، الاثنين ١٣ نوفمبر ٠٠٠ من نحو السادسة والنصف مساء إلى
النصف بحد منتصف الليل . أن الاله القديم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله
يعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء . اليقين ، اليقين ، الوجدان ، الفرح ،
السلام . إله يسوع المسيح . . . لن يحده الإنسان إلا بالطرق التى يعلمها
الإنجيل . باسم النفس الإنسانية ، أيتها الآب العادل ، أن العالم لم يعرفك
قط ، ولسكنى عرفتك . إنه الفرح ، الفرح ، دموع الفرح . . . يا إلهى ،
هل أنت تاركى ؟ يسوع المسيح . . . لقد فصلت عنه ، وهربت منه ، وتخلّيت
عنه ، وصلبته . ليتنى لا أفارقة أبداً ، إنها المصالحة الحلوة الكاملة (٢٧) » .

وعاود زيارته للبور — رويال ولجاكلين ، وشرح صدرها بحالته
النفسية الجديدة ، حالة التواضع والتوبة . واستمع إلى عظات أنطوان
سانجلان . وفى ديسمبر ١٦٥٤ أصبح عضوا فى جماعة البور — رويال (٢٨) .
وفى يناير كان له هناك حديث طويل مع سامى ، الذى آلى على نفسه أن

يقنعه بسطحية العلم وعقم الفلذمة . وآنس آرنو ونيكول من العضو الجديد
حماسة في الاهتداء وبراعة في التعبير الأدبي تبدوان وكأنهما اداة وضعتها
العناية في أيدي الجماعة للدفاع عن البور — رويال ضد أعدائه . فطلبوا إليه
أن يخص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصويو الجاسنية
على انها خطيئة . وأستجاب للطلب في ذكاء وقوة بلغا مبلغا جعل جماعة
اليسوعيين تشكوا إلى اليوم من وخز بسكال الأليم .

ج - الرسائل الأقليمية

في ٢٣ و ٢٦ يناير ١٩٥٦ نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه
« رسائل كتبها لوى دمونتالت » (وهو اسم مستعار) « إلى صديق في
الأقاليم » وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين ، عن أخلاقياتهم وسياساتهم . وكان
إطارها ذكيا ، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق في الأقاليم عن
المسائل الخلقية واللاهوتية التي كانت يومئذ تثير الأوساط العسكرية والدينية
في العاصمة . وقد زود آرنو ونيكول بسكال بالحقائق والمراجع . أما هو
فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبي الذي استشرف مستوى جديدا في النثر
الفرنسي ، فقد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل
الدينيا وتهذيبه .

أما الرسائل الأولى فقد التمس التأييد العام لآراء الجاسنيين في النعمة
الالهية والخلاص ، وهي الآراء التي دافع عنها آرنو من قبل ، وقد قصد بها
أن تؤثر في السوربون لتعارض الاقتراح بطرد آرنو . وقد فشلت في هذا ،
إذ جرد آرنو رسميا من لقبه وطرد (٣٩ يناير) . وحفز الفشل بسكال
وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء
اعترافهم من تحلل ، وما يشوب فتاوام من ثغرات . وقد نقبا في مؤلفات
إيسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا بمبادئ « الاحتمالية » و « التوجيه
باليه » و « التحفظ العقلي » ، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

اللاهوت المسيحي وعباده الصينيين لأسلافهم (٢٩) - وإن لم يتهما اليسوعيين. صراحة بتبرير الوسائط لبوغي الغايات . وكان هذا المهدي يزداد حماسة كلما توالى الرسائل وكشف له آرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار . وبعد الرسالة العاشرة أطلع عن أ كذبوبة الباريسي كاتب الرسائل للإقليم ، وأماط اللثام عن شخصه ، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً في بلاغة تضطرم سخطا ، وذكاء يفيض نهكاً . وكان ينفق أحياناً عشرين يوماً في تحرير رسالة واحدة ، ثم يهرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور . وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بعذر فريد في بابه ، إذ قال « لم يتسع لي الوقت لاختصارها » (٣٠) . وفي الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة (٢٤ مارس ١٦٥٧) تحدى البابا نفسه . ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) تنديداً آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة لخطأ ، كما أخطأ في حالة جاليليو (٣١) (وذلك شعور بسكال) . وأدان البابا الرسائل (٦ سبتمبر ١٦٥٧) ولسكن فراسا المثقفة كلها قراءتها .

أكانت الرسائل منصفة لليسوعيين ؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقلاً أميناً ؟ قال عقلاني مثقف « صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحياناً دون موجب ، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة ، وأن ضغط الفقرات الطويلة في جمل قصيرة يشعرك في بعض الحالات بأن في هذا إجحافاً بالمؤلف » ثم يقول « ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبياً » (٣٢) وهناك لأن إجماع على أن المختارات دقيقة في جوهرها (٣٣) على أنه لا بد من التسليم بأن بسكال انتزع أشد فقرات بعض المقتنين إزطاجاً وشبهة من سياقها ، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأى فيه غلو كثير ، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتآمرون على هدم أخلاق العالم المسيحي . وقد أطرى فولتير براعة الرسائل بوصفها أدباً ، ولسكن رأى أن « السكتاب كله مبني على أساس زائف . فقد نسب المؤلف في حذق إلى الجماعة اليسوعية

كلها الآراء المتطرفة التي قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك (٣٤) ، الذين خالفهم كثير من اليسوعيين . وأسف دالمبير لأن بسكال لم يتهكم بالجانسينيين أيضا ، لأن « تعاليم جانسن وسان سيران المروجة كانت تتيح على الأقل مجالا للسخرية لا يقل عما أتاحته التعاليم الطيبة التي نادى بها موليا وتامبوران وفاسكويز (٣٥) » .

وكان تأثير « الرسائل » هائلا . صحيح أنها لم تخضع لتوها شوكة اليسوعيين — ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك — ولكنها فضحت شطط المفتين فضحا حمل الاسكندر السابع نفسه على إدانة « التحلل » ، رغم مواصلته معارضة الجانسينية ، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى (١٦٦٥ -- ٦٦) (٣٦) . و « الرسائل » هي التي أضفت على كلمة الافتاء الديني « Casuistry » مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التي تدافع عن الأفعال أو الأفسكار الخاطئة . ثم إنها أضافت آية من آيات الأسلوب إلى ذخيرة الأدب الفرنسي . وكان فولتير قد عاش قرنا قبل فولتير . فهنا ذكاه فولتير المرح ، وتهكمه البشار ، وفسكاهته الشكاكة ، وقدمه العنيف ، وفي الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم ، الذي أنقذ فولتير من أن يسكون موسوعة سخرية وتهكم . وقد وصف فولتير نفسه الكتاب بأنه « خير ما كتب وظهر في فرنسا إلى الآن » ، وكان رأى أنفذ النقد قاطبة وأكثرهم رهافة وتمييزا أن بسكال « ابتكر النثر الرائع في فرنسا (٣٨) » . وحين سئل بوسويه أى كتاب كان يؤثر أن يؤول لو لم يؤلف كتابه قال ، إنه رسائل بسكال الإقليمية (٣٩) .

ح — في الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس في ١٩٥٦ ليشراف على نشر « الرسائل » ، وطاش هناك طوال السنوات الست الباقية من عمره . على أنه لم يهجر العالم ، ففي سنة ٧ - قصة الحضارة

موته ذاتها شارك في تنظيم خدمة منتظمة بالمركات في العاصمة - وهي
البذرة لشبكة الأمنوبيسات الحالية . ولكن حدثين وقعاه جددًا تقواه ،
وحمله على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به في الأدب والدين . ذلك
أنه في ١٥ مارس ١٦٥٧ حصل اليسوعيون من الملكة الأم على أمر بإغلاق
مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء في البور - رويال .
وأطيع الأمر في هدوء ، وأرسل الأطفال - وكان من بينهم راسين - إلى
بيوت الأصدقاء ، وتفرق المعلمون محزونين . وبعد تسعة أيام (وهو تاريخ
صدور آخر الرسائل الإقليمية) وقع ما بدا معجزة في كنيسة دير الراهبات
الذي تكدر صفوه . ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات ،
واسمها مارجريت بيريه ، كانت تشكو من ناسور دمعي مؤلم يرشح صديدا
كريها من العينين والأنف . وأهدى أحد أقرباء الأم أنجليك للبور - رويال
شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذي عذب به المسيح .
وفي ٢٤ مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن في احتفال مهيب وسعد
ترتيل الزامير . ولثمت كل منهن الأثر المقدس بدورها ، ولما رأت إحداهن
مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحة الفتاة . وروى أن
مارجريت أعربت ذلك للمساء عن دهشتها لأن عينها لم تعد تؤلمها ، وأدهش
أمها ألا ترى أثرا للناسور ، وقرر طبيب دعى لفحص الفتاة أن الصديد
والورم قد اختفيا . وأذاع هو ، لا الراهبات ، نبأ هذا الذي سماه شفاه
معجزا . ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على علم سابق بناسور مارجريت
بيانا قرروا فيه أن معجزة - في رأيهم - قد حدثت . وبحث موظفو الاسقفية
الأمر ، وانتهوا إلى نفس النتيجة ، وأذنوا بإقامة قداس شكر لله
في البور - رويال . وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة
ويقبلوها ، وهلت باريس الكاثوليكية كلها للمعجزة ، وأمرت الملكة
الأم بالكف عن كل اضطهاد للراهبات . وطاد المتوحدون إلى ليجرانج .
(في عام ١٧٢٨ أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

على أن عصر المعجزات لم ينته) . أما بسكال فقد صنع لنفسه شعار نبالة كان عبارة عن عين يحيط بها إكاييل من الشوك ، وقد كتب عليه : *Solo cui credidit* — « أعرف من صدقت (٤٠) » .

وعكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني يكون بمثابة وصيته الأخيرة . ولكن قصارى ما وجد في نفسه القدرة عليه : هو أن يدون في إيجاز خواطر منفصلة يجمع بينها في ترتيب اجتهدى ولكنه قوى . ثم عاودته أوجاعه القديمة (١٦٥٨) ، في شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضفى على هذه اللذكريات تسلسلا متماسكا أو شكلا بنائيا . فلما مات قام صديقه الدوق دروايه وعلماء البور — رويال بتحرير ونشر هذه المادة وسموها « خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل (١٦٧٠) » . وقد خشوا أن تفضى هذه « الخواطر » المبتورة التي خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى ، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشككية ، وأدخلوا تعديلا على بعض ما بقى مخافة أن يسيء إلى الملك أو الكنيسة لأن اضطهاد البور — رويال كان قد توقف في تلك الفترة ، وكره المحررون تجديد الجدل . ولم تنشر « خواطر » بسكال *Pensées* في نصها الكامل الموثوق إلا في القرن التاسع عشر .

ولو شئنا أن نغامر بفرض ترتيب عليها لجمعنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيق . ونحن نشعر ثانياً — إذ نصغى إلى بسكال — باللطمة الهائلة التي كان فلك كوبرنيق وجاليليو يكيلها للمسيحية التقليدية :

« ليتأمل الإنسان الطبيعة كلها في جلالها الكامل السامى ، ليقص عن بصره الأشياء الوضيعة التي تحيط به ، ولينظر إلى ذلك النور للتوهج الذي وضع كأنه مصباح أبدى ينير العالم ، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التي يرسمها ذلك النجم ، وليأخذه العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التي تتحرك في قبة السماء .

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد ، فليجأ وزه الخيال . . . فكل هذا العالم المرنى ليس إلا عنصرا لا يدرك في صدر الطبيعة العظيم . ولا يستطيع أى تفكير أن يمتد إلى هذا المدى . . . إنها كرة لانهاية مركزها في كل مكان ، ومحيطها في غير مكان (٤٢) . هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر قدرة الله ، حتى أن خيالنا يتوه في هذا الخاطر .

ثم يضيف بسكال في سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفيه ، « ان الصمت الأبدى الذى ياف هذا الفضاء الانهائى يخيفنى (٤٣) » .

ولكن هناك لانهاية أخرى — وتلك هى لانهاية صغر الذرة « التى لا تقبل الانشطار ، وقبولها النظرى للانقسام قبولا لاحدله ، فهما كانت ضالة الحد الأدنى الذى نخزل به أى شىء ، فإننا لأنك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضا له أجزاء أصغر منه . وعقلنا يتذبذب في حيرة وارتياح بين الشاسع غير المحدود ، والدقيق غير المحدود .

« إن من يتأمل نفسه على هذا النحو تخيفه نفسه ، وإذا أدرك أنه معلق . . . بين هاويتي الانهائية والعدم ، ارتعد فرقا . . . وبات أميل إلى تأمل هذه العجائب في صمت منه إلى ارتيادها بغرور . فما الإنسان في الطبيعة ، بعد كل شىء . . . ؟ انه العدم إذا قيس بغير المحدود ، وهو كل شىء إذا قيس بالعدم ، إنه وسط بين العدم والكل . وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين ، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها ، يلتهما سر لاسبيل إلى استكناهها ، وهو عاجز على السواء عن رؤية العدم الذى أخذ منه ، والانهائى الذى يغمره (٤٤) . » (٤٥)

(٥) يقول سانت ييف « ليس فى اللغة الفرنسية منجات أروع من المخطوط البسيطة الصارمة التى تحتويها هذه الصورة التى لانظير لها » (٤٥) .

ظالم إذن ما هو إلا ادعاء غبي . فهو مبني على العقل ، المبني على الحواس ، التي نتخذ عنها بعشرات الطرق . وهو محدود بالحدود الضيقة التي تعمل حواسنا داخلها ، وبقتصر عمر الجسد قصيراً قابلاً للفساد . وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم — أو يعطى أساساً مكيناً للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فكيف بأدراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين ، فضلاً عن فهمه لله . وفي العرف ، لا بل في الخيال والأسطورة ، حكمة أكثر مما في العقل و « أحكم العقول يتخذ تلك المبادئ » ، التي أدخلها خيال الإنسان بتمجّل في كل مكان ، مبادئ له (٤٦) . وهناك نوحان من الحكمة : حكمة الجماهير البسيطة « الجاهلة » ، التي تعيش بحكمه التقاليد الموروثة والخيال (أي الطقوس والأساطير) ، وحكمة الحكيم الذي نفذ إلى صميم العلم والفلسه ليذكر جهله (٤٧) . إذن « لا شيء » أروح للعقل من أن ينبذ العقل » و « الاستحقاق بالفلسفه ملاك الفيلسوف الأصيل (٤٨) » .

ومن ثم رأى بسكال أنه من الحكمة إقامة الدين على العقل ، كما حاول حتى بعض الجانسينيين ، أن يفعلوا . فالعقل لا يستطيع أن يثبت وجود الله ، ولا الخلود ، لأن الأدلة في الحالين شديدة التناقض . كذلك لا يصلح الكتاب المقدس أساساً نهائياً للإيمان ، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة ، وربما كان للشبهوات التي يفسرها الاتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة (٤٩) . أضف إلى ذلك أن الله في الكتاب المقدس يتكلم بالأرقام ، التي يضللنا مدلولها الحرفي ، والتي لا يدرك معناها الحقيقي إلا من وهبوا النعمة الإلهية . « أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله ما لم نؤمن بهذا المبدأ ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعنى البعض وينير بصائر البعض (٥٠) . (وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسى قلب فرعون) .

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلفتتنا . فنذا الذي يستطيع أن يفهم ، في الإنسان ، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

للماذية وذهن واضح اللامادية ؟ « فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعي المادة نفسها (٥١) » . إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم — « وأي مادة تستطيع أن تفعل هذا (٥٢) ؟ » . وطبيعة الإنسان ، التي يتزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً ، تسكر التناقض بين العقل والجسد ، وتذكرنا بالكبير الذي زعمت الأساطير اليونانية أنه غرزة لها رأس أسد وذيل ثعبان .

« يا لهذا الإنسان من كبير ! ياله من بدعة ، ووحش ، وفوضى ، وتناقض ، ومعجزة ! هذا الحكم في كل الأشياء ، ونموذج الغباء في الأرض ، مستودع الحق ، وبالوعة الضلال والشك ، مفخرة السكون ونفايته . فثمنا الذي يحل لنا هذا اللغز المعقد (٥٤) ؟ » .

ان الإنسان — من الناحية الخلقية — لغز فامض . فكل ضروب الأقوم تبدو مستترة فيه . « ما الإنسان إلا مخلوق خداع للآخر ، كذوب ، منافق ، مع نفسه ومع غيره (٥٥) » . « كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً ، ولن تجد أربعة أصدقاء في العالم (٥٦) » . « ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالقدرة (٥٧) » ثم يا لغوره الذي لا قرار له ولا شبع ، « ما كنا المركب البحر أبداً لولا حلمنا بأننا سوف نروى قصتنا . . . أننا نفقد الحياة مختبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا . . . وكل الناس ، حتى الفلاسفة ، يتحدثون أن يكون لهم معجبون (٥٨) » . ومع ذلك فإن من جوانب عظيمة الإنسان أنه من شره ، وكرهه ، وغروره ، أنشأ دستوراً من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره ، واشتق من شهوته مثلاً أعلى في الحب (٥٩) .

وشقاء الإنسان لغز آخر . فلم شقي السكون هذا الشقاء العلويل اينجب نوطا من الخليقة شديد الهاشقة في سعادته ، كثير التعرض الألم في كل عصب ، وللحزن في كل حب ، وللموت في كل حياة ؟ ومع ذلك فإن « جلال الإنسان عظيم في معرفته أنه شقي (٦٠) » .

« ما لإنسان إلا قصبة ، وهي أوهى ما في الطبيعة ، ولكنه قصبة مفكرة .

والسكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لكي يسحقه ، فنفخة بخار ، أو قطرة ماء ، تكفى لقتله — ولكنه ، بعد أن يسحقه السكون ، لا يزال أنبل من هذا الذى يقتله ، لأنه يعرف أنه مفارق الحياة ، أما السكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان (٦١) .

وليس من هذه الألغاز لغز يجد في العقل جواباً له . ولو ركننا إلى العقل وحده لحكنا على أنفسنا بـ « بيرووية » تتشكك في كل شيء إلا الألم والموت ، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تكون تبريراً عقلانياً للهزيمة . ولكننا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل — أن يسكن ، ويتعذب ، ويموت ، بمسد أن ينجب آخرين ليسكنوا ، ويتعذبوا ، ويموتوا ، جيلاً بعد جيل ، في افتقار للهدف ، وغباوة ، وحقارة هائلة . فنحن في قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والسكون بلا معنى . فالفقه ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل . « فإن للقلب مبرراته التي لا يعرفها العقل (٦٢) . » ، وخيراً نفعل أن أصغينا إلى قلوبنا وإن « وضعنا إيماننا في الوجدان (٦٣) » . ذلك أن كل إيمان ، حتى بالأمور العملية ، إنما هو ضرب من الإرادة ، وتوجيه للانتباه والرغبة (إرادة الإيمان) . والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل .

أى جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن الغاز الحية والفكر ؟ الجواب هو الدين . فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، والإنسان نبه ، وبدونه تتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول في إحباط عقلى وعقم ميت . فالدين يعطينا كتاباً مقدساً ، والكتاب ينبئنا بسقوط الإنسان من النعمة ، وهذه الخطيئة الأصلية هي دون غيرها التي تستطيع أن تفسر ذلك الجمع الغريب في الطبيعة البشرية بين الكره والحب ، وبين الشر والوحش واشتياقنا للخلاص والله . فإذا صمحننا لأنفسنا بأن نؤمن (مهما بدت سخافة

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية ، وأنه فقدتها بالخطيئة ، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصلوب ، وجدنا بعد هذا سلاماً عقلياً لا يوهب للفلاسفة أبداً . والذي لا يستطيع الإيمان ملمعون ، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يشأ أن يمنحه النعمة .

والإيمان رهان حكيم . وحب أن الإيمان لا يمكن إثباته ، فأى ضير إن قأمرت على حقيقته ثم اتضح بطلانه ؟ «لزام عليك أن ترهن ، وليس لك في هذا خيار... فلتوازن بين المسكسب والخسارة في الرهان على وجود الله... أنك إن كسبت كسبت كل شئ ، وإن خسرت لم تخسر شيئاً . فراهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود (٦٤) » . فإذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فاتبع عادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقاً . « تبرك بالماء المقدس ، واطلب تلاوة القدايس ، وهلم جرا ، وهذا كفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية ، وبأن يهدئك » — سيهدى من عقلك المغتر بقدرته النقادة (٦٥) . واعترف وتناول القربان ، وستجد في هذا راحة وقوة (٦٦) .

ونحن نعلم هذا الدفاع التاريخي إذا تركناه يختم على هذه النعمة غير البطولية . فلنا أن نشق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقامر يل كسفس حيرتها ود وختها الحياة ، كأنسان أدرك في تواضع أن عقله الذي أذهل ذكاؤه الصديق والعدو ، ليس كفواً للسكون ، ووجد في الإيمان السبيل الوحيد ليضفي على ألمه المعنى والمغفرة . يقول سانت — بيغ « ان بسكال رجل مريض ، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرؤه (٦٧) » . ولكن بسكال لو ووجه بهذا الرأي لأجاب : السنا كلنا مرضى ؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة . ليرفضه كل من لم يقنع بمعنى في الحياة أكثر من أنها مسار عاجز من ميلاد قدر إلى موت إليم .

« تصور نفرا من الناس يرسفون في الأغلال وقد حكم عليهم جميعاً

بالموت ، وفي كل يوم يشفق بعضهم على مرأى من الباقين ، والباقيون يتبينون حالهم في حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، ويبتظر كل منهم دوره . هذه صورة لحالة الإنسان (٦٨) .

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبذبة البشعة التي نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيمصحح الأخطاء كلها في النهاية ، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند ؟ .

وقد تحمس بسكال في حاجته لأنه لم يفتق قط إفاقة حقيقية من الشكوك التي أوحى بها إليه موتيتي ، ولمحدو « السنوات التي قضاها في العالم » ، وحياد الطبيعة القاسي بين « الشر » و « الخير » .

« ذلك ما أراه وما يقض مضجعي . فأينما تلفت لم أجد غير الغموض والابهام . ولا تقدم لي الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق . فلو أنني لم أر علامات على وجود إله لثبت على الإنكار . ولو رأيت آثار الخالق في كل مكان لسكنت إلى الإيمان في هدوء وسلام . ولكنني في حالة يرثى لها لأنني أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى ، وأقل كثيراً مما يطمئني على وجوده . ولقد طالما تمنيت أن تعلم الطبيعة عن وجوده دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها (٦٩) » .

وحالة القلق العميق هذه ، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين ، هي التي تجعل بسكال يستهوي المؤمنين والشاكين على السواء . فلقد شعر هذا الرجل بغيظ الملحد من الشر ، وبثقة المؤمن في انتصار الخير ، ولقد عبر من تدويمات موتيتي وشارون الذهنية إلى التواضع للفتبط الذي أحس به القديسان فرانسيس الأسيسى وتوماس أكيناس . وهذه الصرخة للذهبية من أصمات الشك ، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت ، هما اللذان يجعلان « خواطر » بسكال أبلغ الكتب قاطبة في النثر القرائي . لقد أصبحت الفلسفة أدباً للمرة الثالثة في القرن السابع عشر ، لا في تركيز بيكون الهادئ ،

ولا في ألفة ديكارت السارة ، بل في القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة ، ويكتب لقلبه بدمه . في قة العصر الكلاسيكي علا هذا النداء الرومانسي ، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير ، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان . قهنا ، في صبيحة عصر العقل ، وفي عقود هوبز وسبينوزا ذاتها ، وجد العقل منازل له في رجل محتضر .

روت مدام بيريه ، شقيقة بسكال ، أنه كان في سنه الأخيرة يعاني من « علل مستديعة متفاقمة » (٧٠) ، وانتهى به الأمر إلى الرأي بأن « للرض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين » (٧١) . وكان أحيانا يرحب بالآلام لأنها تصرفه عن المغريات . قال « إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين » (٧٢) . وقد هجر كل اللذات ، وعكف على ممارسة النسك ، وجلد نفسه بحزام أثبت فيه مسامير من حديد (٧٣) . ووبخ مدام بيريه لأنها تسمح لأبنائها بعناقها . وطارض في زواج ابنتها قائلا : « إن حالة الزوجية ليست خيرا من الوثنية في نظر الله » (٧٤) . ولم يسمح لإنسان في حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة .

وفي عام ١٦٦٢ ، آوى أسرة فقيرة في بيته صدقة من صدقاته الكثيرة . فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلا من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته . ولم يمض طویل وقت حتى ثزم فراشه وقد حطمت الآلام المعوية . وكتب وصيته ، فترك نصف ثروته تقريبا للفقراء . واعترف لكاهن ، وتناول القربان الأخير ، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة ، في ١٩ أغسطس ١٦٦٢ وهو لا يجاوز الأربعين . ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبدته مريضتان ، وأن في أمعائه قرحا (٧٥) . وقال الأطباء أن مخه « ضخم الحجم جدا ، وأن مادته جامدة مكثفة » ولكن خطأ واحدا فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة هو الذي كان مقفلا قفلا سليما ، ولعل هذا هو السر في نوبات الصداع الرهيبة التي ابتلى بها .

ووجد على الحاء المنخ منخضبان « كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت في الشمع » (٧٦) وقد دفن في كنيسة أبرشيه سانت اتيين - دومون .

٥ - البور - رويال : ١٦٥٦ - ١٧١٥

شدت « الرسائل الافليمية » من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسية باعتبارها بروتستنتية مقنعة . فأصدر البابا الاسكندرية السابع (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية :

« إني أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر ، المؤرخ ٣١ مايو ١٦٥٣ ، حسب معناه الحقيقي الذي حددته دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ ٦ أكتوبر ١٦٥٦ ، وأقر بأني ملتزم في ضميري بطاعة هذين الدستورين ، وأدين بقلبي وفي التعليم الوارد في قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة في كتابه المعنون « أوغسطينوس » .

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة ، ولكن في ١٣ أبريل ١٦٦١ ، عقب موت مازاران ، أذاع لويس الرابع عشر الأمر ، وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيق ، فوقعها آرنو وللتوحدون في هذه الصورة ، وفصحوا راهبات البور - رويال بالحدو حدوهم ، ولكن الأم أنجليك - التي كانت طريحة الفراش لإصابتها بالاستسقاء - رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت في السبعين في ٦ أغسطس ١٦٦١ ، وكذلك رفض بسكال وشقيقته جاكلين ، التي أصبحت وكييلة الدير . وقالت جاكلين : مادام الأساقفة لا يملكون من الشجاعة لإشجاعة الفتيات ، فلا بد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة (٧٧) » وأخيراً وقعت كل الراهبات الباقيات على قيد الحياة ، ولكن جاكلين

التي أضلتها مقاومتها الطويلة ماتت في ٤ أكتوبر وهي لا تجاوز السادسة والثلاثين ، وتلاها بسكال بعد عام واحد .

واستنكر الملك خلال ذلك الدعاية الموفقة وأصر على أن يوقع الراهبات الصيغة دون أى إضافة أو تغيير ، ونقل القليلات اللاتي وقمن إلى البور — رويال في باريس ، ولكن أغلبية الراهبات ، تزعمهن الأم آنييس ، صرحن بأنه ليس في وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة . وفي أغسطس ١٦٦٥ حرم رئيس الأساقفة الراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربع عشرة من تناول الأسرار المقدسة ، وحظر عليهن أى اتصال بالعالم الخارجي . وخلال السنوات الثلاث التالية ، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الراهبات يتسلق أسوار البور — رويال — دى شان ليناول الراهبات المحتضرات قربانهن الأخير . وفي ١٦٦٦ قبض على ساسي ، ولوميتز ، وثلاثة آخرين من المتوحدين بأمر الملك ، أما آرنو الذي تنسكروا شعرا مستعاز وسيف ، فقد آوته الدوقة لونيغفيل ، التي كانت تخدمه بنفسها أثناء اختبائه (٧٨) . وتبنت هي وغيرها من الذبيلات قضية الراهبات ، وأقنعن لويس بأن يلين ؛ وفي ١٦٦٨ أصدر البابا كلمنت التاسع مرسوماً جديداً صيغ في لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله ، وأفرج عن السجناء ، وردت الراهبات المنشقات إلى البور — رويال — دى شان ، وطادت الأجراس تدق في الدير بعد أن صمتت ثلاث سنين . واستقبل الملك آرنو استقبالا وديا ، وكتب هذا كتابا ضد السكلفين ، ولكن نيكول كتب كتابا آخر ضد اليسوعيين .

ودام «سلام الكنيسة» أحد عشر عاماً ، ثم ماتت مدام لونيغفيل ، ومات معها السلام . وإذ بدأ الملك يشيخ ، وانقلبت انتصاراته هزائم ، استحال دينه خليطاً من التعصب والخوف ، وساءل نفسه ، أكان الله يماقبه على تسامحه مع الهرطقة ؟ واتخذ بغضه للجائسية طابعاً شخصياً ، ومن الأمثلة على هذا

التحول أن لويس رفض تعيين رجل يدعى فونبيرتوى فى احدى الوظائف لشبهته فى أنه جاسنى ، ولكنه وافق على التعيين حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط (٧٩). ولم يستطع قط أن يعتنق لراهبات تمدين لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة . وضمانا للقضاء على مركز سخطه هذا فى وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد . ووجه نداء للبابا كانت الحادى عشر لى يصدر إدانة صريحة للجائسية . وبعد طامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam Domini (١٧٠٥) ولم يسكن باقيا على قيد الحياة فى البور — رويال آتشد سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن فى الستين . وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر .

وفى عام ١٧٠٩ خلف الأب اليسوعى ميشيل تيلبيه البالغ من العمر ستة وستين عاما ، الأب لاشيز ، كاهن اعتراف للملك . فأقر فى ذهن لويس — وكان الملك قد بلغ الحادية والسبعين — أن مصير روحه الأبدى رهن بالإبادة الناجزة الكاملة للبور — رويال . وقد احتج كثيرون من الأكايروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواى ، رئيس أساقفة باريس ، ولسكن الملك تغلب على معارضتهم . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجند بالدير ، وأطلع الراهبات على رسالة ملكية مختومة تأمر بتفريقهن فورا ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجمعن فيها أمتعتن . ولم يجدن بسكاؤهن ولا دموعهن . فدفعن داخل مركبات وشتن فى مخلف الأديار للممتلة التى تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلا . وفى ١٧١٠ هدمت مبانى الدير الشهير وسويت بالتراب .

ولكن الجائسية طاشت . لقد مات آرنو ويكول فى متفاحا بفلاندر (١٦٩٤ — ٩٥) ، ولسكن كاهنا فى مصلى باريس يدعى باسكييه كينيل ، دافع عام ١٦٨٧ عن اللاهوت الجائسى فى كتابه « تأملات أخلاقية فى العهد الجديد » . وقد زج به فى السجن (١٧٠٣) . ولكنه هرب إلى أمستردام .

حيث أسس كنيسة جاسنية . وإذا اكتسب كتابه التأييد الكثير من
الأكليروس العلماني الفرنسي ، فقد أقنع لويس البابا كلمنت الحادى عشر
بأن يصدر مرسوم *Unigenitus* (٨ سبتمبر ١٧١٣) الذى أدان ١٠٤ قضية
نسبت إلى كينيل . وقد استاء كثير من الأحرار الفرنسيين من المرسوم
لأنه تدخل بابوى في شئون الكنيسة ، واتحدت الجاسنية مع أحياء للحركة
للغالية . فلما مات لويس الرابع عشر ، كان في فرنسا من الجاسنيين أكثر مما
كان فيها في أى عهد مضى (٨٠) .

وبصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة ، واثارت ثورة ملك ، حول
مشاكل عويصة تتعلق بالنعمة الآلهية ، والجبرية ، وحرية الإرادة ، ولكننا
نفسى أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهمية وخطر . وكانت
الجاسنية الجهد الأخير الذى بذلته النهضة الأوربية في فرنسا ، والانتفاضة
الأخيرة للعصور الوسطى . ونحن إذا تأملناها في منظور التاريخ بدت لنا
رجمية لا تقدر . بيد أن تأثيرها في عدة نواح كان تقديمياً . فقد كالت حينها
في سبيل قسط من الحرية — وإن كنا سنجدتها في أيام فولتير أشد تعصباً
من البابوية (٨١) . وحدث من شطط الإفتاء الدينى . وكانت غيرتها على
الأخلاق ثقلاً نافعاً أمام سياسة التراخى في أمور الاعتراف ، تلك السياسة
التي ربما شاركت في تدهور الأخلاق الفرنسية . كذلك كان تأثيرها التعليلى
طلياً ، وكانت « المدارس الصغيرة » التي أسستها خير للدارس في زمانها .
وظهر تأثيرها الأدبى لا في بسكال وحده بل في كوراني باعتدال وفي راسين
بحموية ، وهو تلميذ البور — رويال ومؤرخه . أما تأثيرها الفلسفى فكان
غير مباشر وغير مقصود ، ففكرتها عن الله قاضياً بالعذاب الأبدى على
الشطر الأكبر من النوع الإنسانى — بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين ،
وجميع المسلمين وجميع اليهود — لعل هذه الفكرة شاركت في دفع رجال
كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت للمسيحى بأسره .

٦- الملك والهييجونوت : ١٦٤٣ - ١٧١٥

لم يكن الملك قد خلس روحه بعد ، فقد بقي في فرنسا ١٠٠.٠٠٠ ر ١٥٠٠ من البروتستنت . وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو في حماية حرية الهييجونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسياً . أما كولبير فقد أدرك قيمتهم في تجارة فرنسا وصناعتها . وفي ١٦٥٢ أكد لويس مرسوم نانت (١٥٩٨) الذي أصدره جده هنري الرابع ، وفي ١٦٦٦ أعرب عن تقديره لولاء الهييجونوت خلال حرب الفروند ، ولكن كان يحزنه ألا تتحقق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت رحدثها السياسية ، وحوالى ١٦٧٠ كتب في مذكراته فقرة تنذر بالسوء :

« أما عن ذلك العدد الكبير من رطايى الذين يدينون بما يسمونه المذهب الأصلاحي ، وهو شر ٠٠٠٠ انظر إليه بحزن ٠٠٠ فيخيل إلى أن أولئك الذين أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفتنوا إلى طبيعة هذا الشر ، الذى نجم بعضه عن حرارة في العقول ، والذى يجب أن يترك ليدوى ويموت دون أن يحس به أحد ، بدلا من أثارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة . ٠٠٠ وقد آمنت بأن خير سبيل للتخفيف من عدد الهييجونوت في مملكتى تدريجياً هو أولاً عدم الضغط عليهم إطلاقاً بأي قيد صارم جديد ، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليه من أسلافى دون منجهم أكثر منه ، وحتى قصر تنفيذه داخل أضيق الحدود التى تجيزها العدالة واللياقة (٨٢) » .

وفي هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص . وهذا رأى ملك مطلق السلطة ، أخذ عن بوسويه شعار « ملك واحد ، وقانون واحد ، وعقيدة واحدة » . فلم يعد ذلك التسامح الذى دأب به ريشليو الذى كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفاء أيا كانت عقيدتهم . ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لمن يعين في هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين ، آملاً بذلك أنه سيشجع المرتدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية .

أما الكنيسة نفسها فلم تكن قد وافقت قط على التسامح الذي كقله مرسوم نانت ، وفي ١٦٥٥ طالب مجمع اكليركي بتفسير أشد صرامه للمرسوم . وفي ١٦٦٠ طلب بجمعهم إلى الملك أن يخلق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة ، وفي ١٦٧٠ أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانوناً على إنكار الطرقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغي فصلهم عن آبائهم ، وفي ١٦٧٥ طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعي (٨٣) . وكان رأى بعض رجال الدين الورعين اللطفاء مثل الكردينال ديبرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملي الوحيد في التعامل مع البروتستنتية (٨٤) ، وألح الخبر تلو الخبر على الملك بهذه الحجة ، وهي أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعي ، الذي يرتكز على الفضيلة ، التي تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة . وشارك العلمانيون الكاثوليك في هذه الحجة ، وأباحت القضاة الحكومة عن صدمات مكدرة الأمن بين المذهبين المتنافسين في المدن — هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية ، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع .

وشيئاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحملة غافلاً في ذلك فطرته الأميل إلى الخير ، وإذ كان على الدوام في حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة ، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحة كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم . ودفعته عوامل أخرى في نفس الاتجاه ، فلقد كان يشجع — بل يرشو — تشارلز الثاني لكي يحول انجاذرة إلى الكاثوليكية ، فكيف يتأتى في الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية في فرنسا ؟ ألم يوافق البروتستنت في صلح أوجزبورج (١٥٥٥) وبعده على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه ؟ وألم ينف الحكم البروتستنت في ألمانيا وفي الأقاليم المتحدة الأسراني رفضت ديانة الأمير ؟

وكان لويس ، منذ أن بدأ حكمه الفعلي قد أصدر — أو أصدر ويراؤه بموافقته — سلسلة من المراسيم التي اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء تاماً . ففي ١٦٦١ حرم على البروتستانت العبادة في معظم مساحة جاكس ، قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جاكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور المرسوم ، وكان يعيش في هذا الاقليم سبعة عشر ألف بروتستانت ، وأربعمائة كاثوليكي فقط (٨٥) . وفي ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلني الحرف في الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك (٨٦) ، وفي ١٦٦٥ سمح لاصبيان في الرابعة عشرة والبنات في الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك آبائهم ، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم (٨٧) . وفي ١٦٦٦ حظر على الهيغونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف ، وفي ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهيغونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع في قبضة السلطات ومصادرة بضائمه (٨٨) . وكان كل من ساعد هيغونوتيا على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله في سفن الأسرى مدى الحياة (٨٩) . وفي ١٦٧٧ سمح لويس بوقف « صندوق للمهتدين » تصرف منه مبالغ ، متوسطها ستة جنيهات للفرد ، لكل هيغونوتي يقبل اعتناق الكاثوليكية . وضماناً لثبات المهتدين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً (١٦٧٩) يقضى بنفي جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم (٩٠) . ثم قطع هذا السيل من التحريمات احتجاج ناخب براندنبورج وشكاوى كولبير مما تحدته هذه القوانين بالتجارة من كساد واشتغال الملك بمحملاته الحربية ، ولكن تصالحه في ١٦٨١ مع الكاثوليكية ، الأسرة بالاعتصار على امرأة واحدة ، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على الهيغونوت ؛ فقال لأحد مشاعديه إنه يشعر بالالتزام لامتصاص منه بهداية جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة (٩١) . وفي ١٦٨٢ أصدر خطاباً — وأمر جميع الرعايا البروتستانت بأن يقرءوه على شعبهم — بهدفيه الهيغونوت « بويلات لا تقاس بما سبقها هولا وفتكا (٩٢) » . وخلال السنوات الثلاث

٨ — قصة المضارة

التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهيجونوت البالغ عددها ٤٨١٥ ، وهدم الكثير منها ، وحين حاول الهيجونوت العبادة على أنقاض كنائسهم للهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمريدين على الدولة .

وكانت حملات الخيالة *dragonnades* قد بدأت خلال هذا ، فقد كان من العادات القديمة في فرنسا أن يسكن الجنود في الكومونات أو البيوت وعلى حسابها . واقترح لوفوا وزير الحرب على الملك (١١ أبريل ١٦٨١) إعفاء معتنقي الكاثوليكية الجدد عامين من هذا الإيواء للجند ، فأصدر للملك الأمر ، وعلى ذلك أمر لوفوا المديرين العسكريين لإقليمى بواتو ولیموزان بأن ينزلوا خيالتهم مساكن الهيجونوت ، لاسميا الأثرياء منهم . وفي بواتو سمح المرشال ماريك لجنوده بأن يفهموا أنه لن يسوءه أن يعاملوا مضيفيهم البواسل بشيء من الغيرة الرسولية ، وراح الجند يسرقون الهيجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم ، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ ماريك ، ولما استمر طرده من وظيفته (١٦٣) . وفي ١٩ مايو أمر بوقف هداية الهيجونوت بطريق إيواء الخيالة ، وشجب أعمال العنف التي ارتكبت في بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستنتي (١٦٤) . وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة ، ولكنه بمرم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك . وانتشرت حملات الخيالة في أرجاء كثيرة من فرنسا ، فأدخلت في الكاثوليكية آلافاً من المهتدين . وأسكرت مدن وأقاليم - كموبيلييه ، ونيم ، وبيارن - مذهبا الكالفنى على بكرة أبيها ، وتظاهر أغلب الهيجونوت باعتراف الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر ، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدين القوانين . وأبلغ لويس أنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهيجونوت ، وأن مرسوم نانت أصبح بلا معنى . وفي ١٦٨٤ ألغيت الجمعية العامة للكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية ، وتوطيده ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد في فرنسا (١٦٥) .

وفي ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغى الملك مرسوم ثانت باعتباره مرسوماً
اللازوم له الآن في فرنسا التي تدين كلها تقريباً بالكثلكة . فحظر منذ ذلك
التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر
بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، وأمر
رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا في ظرف أربعة عشر يوماً ،
ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حُرمت وإلا كان عقاب المهاجرين
تشغيلهم في سفن الأسرى مدى الحياة . ووعد المخبرون بنصف بضائع
المهاجرين العلمانيين (٩٦) ، وقضى بأن يعتمد جميع الأطفال المولودين في
فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكي ،
ووعدت فقرة أخيرة بالسلاح للقله الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض
المدن آمنين . وتمتد المادة في باريس وضواحيها ، وحى رئيس الشرطة
التجار الهيجونوت هناك وطمانهم ، ولم يكن هناك حملات خيالة في باريس
أو قربها ، وكان في وسع المراقص أن تمضى في فرساي ، وفي وسع الملك
أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير ، ولكن حملات الخيالة استمرت في كثير
من الأقاليم بتحريض من لوفوا (٩٧) ، وتعرض الهيجونوت المعاندون للتهب
والتعذيب . يقول الحجة الفرنسي الأكبر في إلغاء مرسوم ثانت :

« لقد أذن للجنود أن يقترفوا كل جريمة إلا القتل . فكانوا يكرهون
الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء ، ويقذفون بهم في البطاطين إلى
أعلى ، ويصبون الماء المغلي في حلوقهم . . . ، ويضربون بطون أقدامهم ،
وينتفون لحام . . . ، ويحرقون أذرع مضيفهم وسيقانهم بلهب الشموع . . . ،
ويسكرهونهم على أن يقبضوا على الجرم اللاتب بأيديهم . . . ، ويحرقون
أرجل الكثيرين بإمساكها طويلاً أمام نار كبيرة . . . ويلزمون النساء بأن
يقفن عرايا في الطريق يحتملن هزم المسارة وإهاناتهم . وقد أوثقوا مرة
أما صرضما إلى صودسريز وأمسكوا برضيعها بعيداً عنها وهو يهرخ في
حلب نديها ، فلما فتحت فمها لتتوسل إليهم بصقوا فيه (٩٨) . »

ويرى ميشليه أن إرهاب ١٦٨٥ للقدس هذا كان أشنع كثيرا من إرهاب عصر الثورة في ١٧٩٣ (١٩). وقد أكرم نحو ٤٠٠.٠٠٠ من « المهتدين » على حضور القداس وتناول القربان ، وحكم على الذين بصقوا قطع القربان للمكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق احياء (١١٠٠). وزج بالذكور من الهيجونوت للماندين في سجون تحت الأرض أو وزنانات غير مدفأة . أما نساء الهيجونوت للمعنات في العناد فقد حبسن في الأديار حيث لقين على غير توقع للمعاملة الرحيمة من الراهبات (١٠١).

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة . وسنسمع أبناء القودوا في الدوفينييه الفرنسية ويديمونت السافووية في مكان لاحق من هذا الكتاب . وفي أودية سلسلة جبال السيغين في اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت « المهتدين » بإيمانهم سرا ، مترقبين الوقت والفرصة للتحرر . وقد أكد لهم « أنبيائهم » الذين أدعوا الوحي الإلهي بأن الوقت قد اقترب ، فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية ، شكل الفلاحون جماعات متمردة من « السكاميزار Camisards » الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضا في الليل . وفي إحدى المعارك قتلوا الأب شيلا الذي كان يضطهدهم بغيرة شديدة ، ففأجام فوج من الجند وذبحهم دون تمييز ، وهدم بيوتهم وخرّب محاصيلهم (١٧٠٢) . وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضراوة ، إلى أن اقنعهم بالصلح وسائل المرشال فيلار النوفيقية .

ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا في ١٦٦٠ والبالغ عددهم ١٠٠.٠٠٠ ، فرنحو ٤٠٠.٠٠٠ في العقد الذي تخلله إلغاء مرسوم نات عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم . وطاشت مئات قصص البطولة قربها بأكملها بعد تلك السنين اليائسة . ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكانا لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيدوا على ستة عشر ألفا . وقدم تشارلز الثاني وجيمس الثاني للمعونة للمادية

لهيجونوت على الرغم من كئسكتهما ، وسهلا استيعابهم في الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية . واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالا وديا حتى أن أكثر من خمس سكان برلين في ١٦٩٧ كانوا فرنسيين . وفتحت لهم هولندية أبوابها وبنت مئات البيوت لأيواء الوافدين واقترضتهم للمال ليقيموا . مصالحهم وكفلت لهم كل حقوق للمواطنة ، وانضم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستنت واليهود في جمع للمال لإغاثة الهيجونوت . ولم يكتف اللاجئون الشاكرون بإثراء الصناعة والتجارة في الأقاليم المتحدة ، بل إنهم تطوعوا في الجيوش الهولندية والإنجليزية التي خاضت القتال ضد فرنسا ، ورافق بعضهم وليم الثالث أو تبعه إلى إنجلترا ليساعدوه على جيهس الثاني . أما المرشال شومبيرج السكفنى الفرنسى الذى أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشا إنجليزيا ضد الفرنسيين ومات وهو يهزمهم في معركة البوين (١٩٦٠) . وفى كل بلد من هذه البلاد المضيفة جلب الهيجونوت مهاراتهم في الحرف والتجارة والمال ، وأقادت أوروبا البروتستنتية كلها من انتصار الكاثوليكية في فرنسا . وشغل صناع الحرير الفرنسيون حيا بأكملة من أحياء لندن ، وأصبح المنفيون الهيجونوت في إنجلترا شراح الفسكر الإنجليزي ومترجميه لفرنسا ، فهدوا بذلك لغزو يسكون «وينوتن ولوك للعقل الفرنسى .

واستنكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سرا تلك المذابح التى رافقت إلغاء المرسوم ، وأمدوا كثيرا من الضحايا بالمعونة وقدموا لهم الملاجأ خفية . ولكن الكثرة العظمى هلت للقضاء على الهيجونوت باعتباره قة إنجازات الملك ، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن ، في النهاية ، بلدا كاثوليكيا موحدا . وأننى كبار الكتاب أمثال بوسويه وفنيلون ولافوتين ولا بروير ، وحتى الأب الجانسي آرنو ، على شجاعة الملك في تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة . وكتبت مدام دسفينيه تقول « ليس هناك أبدع ولا أروع . ولم يصنع

ملك ولن يصنع شيئاً أخله من هذا (١٠٢) ». أما لويس نفسه فأُسعده أن يكمل - كما خيل إليه - عملاتقيلاً ولكنه مقدس . يقول سان سيمون : -

« لقد آمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين . وكتب الأساقفة للدائع التي تشيد به ، وجعل اليسوعيون المنابر تتغنى بالثناء عليه ... ولم يكن يسمع غير الامراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الاتقياء الصادقون يثنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنين ينحرفون إلى الخطأ ، والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج ، والوثنيين يحاربون الحق والمؤمنين المجاهرين بإيمانهم والشهداء . ولم يستطيعوا أن يطيقوا هذا السيل من الحنث وتدنيس المقدسات (١٠٣) » .

وكان سان - سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ البداية تلك الخسارة الاقتصادية التي ألحقها بفراसा نزوح هذا المدد الكبير من المواطنين السكادحين . وفقدت كان صناعة نسيجها ، وتور ثلاثة أرباع أنوال الحرير فيها . ومن بين الستين مصنعا للورق في إقليم أنجوميوا لم يبق سوى ستة عشر ، ومن بين ١٠٩ متجر في مدينة ميزيير لم يبق سوى ثمانية ، ومن بين أربعمئة مصبغة في تور لم يبق سوى أربع وخمسين (١٠٤) . واضمحلت ثغور كرسيليا لفقدتها الأسواق في بلاد أصبحت الآن بفضل جهود الهيجونوت وإرشادهم تنتج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا . وفضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التي أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسي ، ونزحت الصناعات التي جاهدت في سبيل تنمية في فرنسا لتغذي منافسيها . ولما هبطت إرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت الحكومة من جديد في أيدي المراهبين الذين انقذها كولبير من براثنهم . وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار ، والجيش ستئة ضابط واثني عشر ألف جندي ، ولعل نضوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من عوامل الهزائم التي أوشكت أن تحطم فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية -

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمية
أوروبا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا .

على أن إلغاء المرسوم ربما كان معيناً غير مباشر للفنون والمعادن
ولطائف الحياة في فرنسا . ذلك أن الروح الكلفنية المتشككة في الرينة
والصور المنحوتة والمرح الطائش ثبطلت الفن والأناقة والظرف ، ولو أن فرنسا
أصبحت بيوريتانية لكنت شذوذاً وخطأ . ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة
على الدين الفرنسي . لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية
كان خليطاً بأن يجعل لوكريتوس — لو رآه — « سبعة أضعاف ما كان
أبيقورية » وإلحاداً (١٠٥) . « فإذ اتراه كان قائلاً الآن ؟ لم تبقى نقطة توقف
للعقل الغالى بين الكاثوليكية والإلحاد . وبينما أفادت البروتستنتية في
سويسرة وألمانيا وهولندة وإنجلترا في الإعراب عن الفرد على الكنيسة ،
لم يبق في فرنسا أداة استنكار كهذه . فوجدت حركة الانتقاض على
الرومانية أنه أيسر لها أن تكون شكاً خالصة من أن تكون بروتستنتية
سافرة . وانتقلت النهضة الفرنسية ، غير المعوقة من البروتستنتية ، رأساً إلى
حركة التنوير بعد موت الملك .

٧ - بوسوييه : ١٦٢٧ - ٨٨

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً ، وتربعت على عرش
بهاثها وسلطانها . وكانت رغم ماشاب روحها الجماعية من تعصب ، وما عاب
سلطتها من قسوة ، تضم أرقى نخبة من الرجال في أوروبا تعليماً ، وكان قديسوها
ينافسون طماعتها . وكان من أساقفتها نفر ذوو نزعة إنسانية ، عاكفون
في إخلاص على الخير العام كما رأوه . ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسي
دخولاً شارب في سنائه دخول بسكال ، وكان في زمانهما أكثر بروزاً .
وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارب في سمعته بوسوييه ،
أو فنيلون في سمعته .

أما جاك بنين بوسويه (واسمه الأوسط Bèligno — أى اللطيف — كان أنسب لفنيون) فقد ولد فى أسرة ثرية لحام بارز وعضو فى برلمان ديجون (١٦٢٧) . نذره أبواه للقسوسية ، وجز شعر رأسه فى الثامنة ، وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهنًا فى كاتدرائية متر . وفى الخامسة عشرة أرسل إلى كلية نافار بباريس . وفى السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة منزلة حملت نساء الأوتيل درامبويه المثقفات على إقناعه بأن ياتى عليهن عظة فى منتصف سهرة الصالون رغم ما طبع عليه من كبرياء مقترنة بالخجل . وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى متر ورسم قسيسًا وتقدم بعد قليل لنيل درجة الدكتوراه فى اللاهوت . وقد راعه أن يجد أن عشرة آلاف من بين الثلاثين ألف نفس فى متر كانوا من البروتستنت المالكين . ودخل فى جدل مهذب مع بول فيرى الزعيم الهيجونوتى ، وقد سلم له ببعض المفاسد فى الممارسات الكاثوليكية ، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك شر أعظم . وظل على علاقات ودية مع فيرى اثنتى عشر سنة ، تمامًا كما سترام فى فترة لاحقة يجاهد جهادًا حبيًا مع لينتتر فى سبيل إعادة توحيد العالم المسيحى . ولما سمعته آن النمساوية يعظ فى متر خيل إليها إنه أرقى من تلك البيئة التى لا تليق بمواهبه ، وأقنعت الملك بأن يدموه إلى باريس ، فانتقل إليها فى ١٦٥٩ .

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة فى دير سان لازار برعاية فانسان دبول . وفى ١٦٦٠ وعظ جمهوراً عريضاً فى كنيسة « لى مينيم » قرب البلاس رويال . وسمعه الملك ، فتبين فى الخطيب الشاب مزيجاً متوازناً من البلاغة ، واستقامه العقيدة ، وقوة الخلق . فدعاه لإلقاء عظات الصوم الكبير فى ١٦٦٢ باللوفر ، واختلاف إلى هذه الخطب فى تقوى واضحه ، اللهم إلا فى ذلك الأحد الذى اطلق فيه على جواده مسرعاً ليسترده لويز دلا طالبير من الدير . وحفز حضور الملك هذه العظات بوسويه على أن ينق أسلوبيه من الجلافات الريفية ، والاستشادات السكولاستية ، والحجج الجدلية .

ذلك أن أفاقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس ، فأثرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغة القانونية التي اشتهر بها ديموستين وشيشرون . وفي أثناء السنوات الثمانية التالية وفق بوسويه في أن يكون الخطيب المفضل في كنائس القصر ، ثم أصبح المرشد الروحي لعدد من كبريات النبيلاب مثل هنرييتا « مدام » دورليان ؛ و مدام دلو نجفيل ، و مدموازيل دمو بيا نسيه (١٠٦) وكان في بعض عظاته يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة ، مغالياً في تملقه عادة ، ولكنه دعاه مرة بحمارة إلى أن يهجر زناه ونجوره ويعود إلى زوجته . ففقد برهة رضا الملك ، ولكنه استرده حين هدى تورين إلى الكاثوليكية . وفي ١٦٦٧ اختاره لويس ليؤن آناً المساوية في مأتمها ، وبعد عامين ألقى عظه فوق جثمان هنرييتا ماريا ملكة انجلترا الأرملة ، وفي ١٦٧٠ اضطلع بواجب أليم هو تأيين هنرييتا الصغرى ، ثابته المحبوبة التي فاضت روحها بين ذراعيه في فتنة صباها التي لم يكتب لها بقاء طويل .

والمظتان اللتان أبناهما تشارلز الثاني ملك انجلترا وأخته هما أشهر العظات قاطبة في الأدب الفرنسي — لأن خطاب البابا أوربان الثاني الذي مازال يفوقهما شهرة ، والذي استنفر فيه أوروبا إلى الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥) — هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية . واستهل بوسويه أول هذين التأيين بموضوعة الجريء المفضل ، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ ، وأن الانتقام الإلهي سوف يحل بهم إن لم يستعملوا سلطتهم لخير الشعب ، ولكنه بدلاً من أن يرى في تشارلز الأول ملك انجلترا مثلاً على هذا العقاب ، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته ، ولم يجد عيباً على الإطلاق في زوجته الوفية ، فصور الملكة المتوفاة قديسة جاهدت لتهدي زوجها وانجلترا إلى الكاثوليكية . ثم استورد بإسهاب في موضوع آخر عجب إلى نفسه ، وهو تكاثر الملل والنحل البروتستنتية التي لا حصر لها ، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة ، وقال : إن « التمرد الكبير » كان عقاباً إلهياً على مروق انجلترا

من كنيسة روما ، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بعد إعدام زوجها على هذا النحو الإجرامي الرهيب ! لقد تقبلت أحزانها ككفارة وبركة ، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً في صلاة متواضعة صابرة ، وأخيراً أثبتت على تمها ، فرد ابنها إلى عرشه ، وكان في وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد ، ولكنها آثرت عليها ديراً في فرنسا ، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا في الاستكثار من أعمال البر .

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ ولذكريات الفرنسية تلك العظة التي ألقاها بوسويه بعد عشرة شهور فوق جنان هنرييتا آن . وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكومدوم في جنوب غربي فرنسا ، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان — دني في كل بهائه الأسقفية ، يتقدمه المنادون ، وعلى رأسه تاج الأسقفية ، وفي أصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التي أهدته إياها يا الأميرة المتوفاة . وفي مثل هذه العظات كان يحد من انفعال الخطيب تفكيره في الموت في صورة طامة ، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى أمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط ، وأجبرش الحبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجئ القوم مفاجأة ألمية بهذه اللعنة التي جعلت فرنسا كلها تنوح وتتعجب من طارق الله . ثم وصف هنرييتا لايتوضووعية فائرة ، بل بتحيز المحبة — « لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة ممتحة خيرة (١٠٧) » — واكتفى بالإلماع في إيجاز حكيم إلى أن سماعتها لم تتسكافاً مع فضائلها . ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب وكان السنية الركين وحارسها الأمين — تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزدهر كل هذا الثمر والظلم على الأرض (١٠٨) . ثم عزى نفسه وجمهوره بذكرى تقوى هنرييتا في احتضارها ، وبالأسرار المقدسة التي ملهتها من كل علاقاتها الأرضية ، فلا ريب إذن أن روحاً رقيقة مطهرة كروحها تستحق الغلام ، بل إنها لتزين الفردوس نفسه !

وبسبب خطأ نادر في الحكم على الأخلاق عين لويس بوسويه (١٦٧٠)

معلما للدوفان ، متأثراً في ذلك ببلاغته تلك — وعهد إليه بتدريب ذلك الصبي المتخلف ، المتبلد الحس ، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا . وانصرف بوسويه مخلصاً لهذه المهمة . فاستقال من أسقفيته ليسكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط ، وكتب للويس الصغير كتيبات جادة في تاريخ العالم والمنطق والإيمان المسيحي والحكم وواجبات الملك ، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبي هولة من السكال والقوة .

وفي إحدى هذه المقالات المسماة « السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة » (١٦٧٩ — ١٧٠٩) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهي بغيرة فاقت غيرة الكردينال بيلارمين في تأييده لسيادة البابوات . ألم يكتب في العهد القديم أن « الله أعطى لكل شعب حاكمه » (١٠٩) وفي العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس « إن السلاطين مرتبة من الله » (١١٠) ، أجل ، ولقد أضاف الرسول قوله « إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة الله ، أو كما قال أشعيا النبي عن كورش إنه « مسيح الرب » (١١١) . إذن فشخص الملك مقدس ، وسلطة الملك مقدسة ومطلقة ، والملك لا يسأل إلا أمام الله . ولكن هذه المسئولية تضع على عاتقه التزامات قاسية . فعليه في كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله ، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الزوجات .

كذلك كتب بوسويه للدوفان (١٦٧٩) كتابه الشهير « حديث عن تاريخ العالم » . ذلك أنه حين روعه إلماع ديكارت إلى أن جميع الأحداث في العالم للموضوعي — إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله — يمكن أن تفسر آلياً بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها ، رده عليه بأن كل حدث كبير في التاريخ إنما هو — على التقدير من ذلك — جزء

من خطة إلهية ، وعمل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة المسيح . ونحو المسيحية لتصبح « مدينة متسعة لله » . وتناول الكتاب المقدس ثانية . باعتباره موحى من الله ، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التي أنارتها المسيحية . « لقد استخدم الله الآشوريين والبابليين ، ليماقب شعبه المختار ، والفرس ليردم إلى وطنهم ، والاسكندر ليعصمهم ، وأنطيوخس ليمتحنهم ، والرومان ليصونوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا » . فإذا بدا لنا في هذا الرأي حماقة ، فإن علينا أن نذكر أنه كان أيضا رأى كتاب النوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله في ثقة . ومن ثم فقد بدأ بخلاصة لتاريخ العهد القديم ، وقام بهذه المهمة بما عرف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة . واعتمد ترتيبه الزمني على تقويم أوشير رئيس الأساقفة ، فأرخ الخليقة بسنة ٤٠٠٤ و مر بوسويه مرور الكرام بتلك الأمم التي لم يشر إليها الكتاب المقدس ، ولكنه وصفها وصفا بجلائم على بصيرة وقوة ملحوظتين ، وأبدى فهما عطوفا للفضائل والإنجازات الوثنية . وقد رأى بعض التقدم خلال مشكال الإمبراطوريات الصاعدة والساوقة ، واتخذت فكرة التقدم جسدا ولما في كتاباته ، وكذلك في كتابات شارل بيرو وغيره من للدافعين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى ، ومهدت الطريق من بعيد لطورجر وكوندرسيه . وخلق الكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ ، وحسب رجل واحد أن يحقق انجازا كهذا .

على أن الأمير تلميذ بوسويه لم يقدر شرف تأليف الكتب العظيمة لتعليمه . فقد كان في روح بوسويه من الجد والصرامة مالا يجمله المعلم الاعايف المرضي . وكان أنسب لطبيعته أن يرشد في رفق لويژ دلا فالير لتهرب من حياة الزنا إلى الدير ، وقد أتى المظلة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة . وفي ذلك العام (١٦٧٥) جاهر ثانية بلوم للملك الزير ، واستمع إليه لويس في ضبر نافذ ، ولكنه أهاده لمنصب الأسقفية وعينه أسقفاً على مو (١٦٨١)

على قرب من فرساي ينبغي له أن يتذوق نغمة البلاط وبهاؤه . وكان طوال ذلك الجيل للتسكير ، الشارح والقائد العمدة للكليروس الفرنسى ، وقد وضع لأجلهم « للواد الأربع » التى أكدت من جديد « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية . ولقد أفقده عمله هذا قبعة الكردينالية ، ولكنه أصبح بابا فرنسا .

ولم يكن بالبابا السيئ . فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مراسمها ظل رحيمًا لطيفًا ، وبسط عبادته فوق ألوان كثيرة من للمعتقد الكاثوليكي . وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذى تورط فيه الإفتاء الدينى دون أن يغتفر له السخط والاحتقار اللذين إلهبا رسائله الإقليمية . فى ١٧٠٠ أقنع جمعية الاكليروس العامة باستنكار ١٢٧ قضية أخذت من فتاوى للمفتين اليسوعيين ، وقد ظل على علاقات ودية مع آرنو وغيره من الجانسنين . وذاع عنه أنه كان متسامحًا فى كرسى الاعتراف ، وأنه استنكر مظاهر التقشف فى العلمانيين ، ولكنه أطرى بجملة نساك رانسيه ، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلوة فى لاتراب ، ويتمنى أحيانًا أن يظفر بسلام صومعة الراهب . ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة ، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء فى مراتب الكنيسة والدولة . وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير فى موقائلا : « صلى لأجلى لكي لأحب العالم (١١٢) » . وقد أصبح أشد إصرامة فى أخريات أيامه . وعلينا أن نغتنر له ثنديده بالمسرحيه وموليير فى كتابه « حقائق عامة عن الملهاة » (١٦٩٤) لأن موليير لم يعرض الدين إلا فى صورته للزمتة المذاققة ، ولم يصف رجالا مثل فانسان ديول .

كان بوسويه أشد تعصبا نظريًا منه عمليا . فقد رأى أن من السخف أن يظن أى ذهن فردى مهما عظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتب فى عصر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس فى كرسى القضاء ليحكم على

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة . فالحس المشترك « *Sans commun* » أجدد بالثقة من التفكير الفردي ، ولا يعنى الحس أو الإدراك المشترك ففكر الأشخاص العاديين ، بل الذكاء الجماعى لأجيال علمتها قرون من الخبرة ، والذكاء الذى يتمثل فى أعراف النوع الإنسانى ومعتقداته . فمنذا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيرا من هؤلاء جميعا حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التى لا يستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ وبترتب على هذا أن الذهن البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه السلام ، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام ، والمجتمع البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق ، ولكن التفكير الحر بتشككه فى المصدر الإلهى للقانون الخلقى إنما يهدم النظام الأخلاقى برمته . فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة ، و« الذين يؤمنون بأن الملك ينبغى ألا يستعمل القوة فى أمور الدين . . . يرتكبون خطأ مجانباً للتقوى (١١٣) » ولقد أثر الأسقف الإقناع على الإكراه فى هداية المهرطقين ، ولكنه دافع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير ، ورحب بإلغاء مرسوم نانت لأنه « المرسوم الودع الذى سيكيل للهرطقة الضربة القاضية » . ونفذ القانون فى إقليمه بكثير من التسامح ، حتى لقد كتب الناظر الملكى يقول « ليس فى الإمكان عمل شئ فى أمة فية مو ، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة فى سبيل هداية الهيجونوت (١١٤) » . وقد ثبت معظم الهيجونوت فى تلك المنطقة على مذهبهم .

وكان إلى النهاية يعمل نفسه بأن الحجة قادرة أن تسكب حتى هولنده وألمانيا وإنجلترا وتردها للإيمان القديم . وسنراه يفاوض لايبنتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التى اقترحها لإمادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية . وفى ١٦٨٨ كتب رائعته « تاريخ ملال الكنائس البروتستنتية » — وهو الذى قال « بكل » إنه « ربما كان أخطر كتاب وجه ضد البروتستنتية (١١٥) » . وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة ، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمراجع ، وهولون من الأمانة كان بدأ يتجسد .

وبذل الأسقف في كتابه محاولة ليسكون منصفاً . فسلم بفاسد الكنيسة التي تمرّد عليها لوثر ، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب في خلق لوثر ، ولكنه لم يستطيع أن يسيغ الفظاظة المبتهجة التي اختلطت في لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية . ثم صور ملاسكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب . غير أنه كان يأمل في تفكيك ولاء أتباع هؤلاء المصلحين لهم باظهار مواطن ضعفهم الشخصي وخلافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التي زعمت أن لكل إنسان الحرية في تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له ، فشكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يذنباً بأنه لو ترك هؤلاء الحبل على الغارب لأسفر هذا عن تفتيت المسيحية إلى متاحة من الملل والنحل ، وتفتيت الأخلاق إلى فردية لا يستطيع أن يكبح جراح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لإنهاية له . فمن لوثر إلى كالفن إلى سوكينوس — من رفض البابوية ، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح — ثم من التوحيد (رفض التثليث) إلى الإلحاد ، تلك هي الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان . ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية ، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين ، ومن كالفن إلى كرمويل إلى « المسوين » إلى قتل الملك ؛ تلك درجات منزلة في تحلل النظام الاجتماعي والسلام . ولا يستطيع سوى دين ذي سلطان أن يعطى الوازع للأخلاق ، ويمنع الاستقرار للدولة ، ويسلح الروح البشرية بالقوة وهي تواجه الحيرة وفقد الأحياء والموت .

لقد كان الكتاب حجة قوية ، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة وبلاغة ، محتوية على صفحات لا ضريب لها في نثر ذلك العصر الفرنسي إلا في جديليات بسكال العنيفة و « خواطره » ، ولولا أن التجاهد للعقل قد أحبطه التجاؤد للقوة في فظاطات إلغاء المرسوم لحقق نجاحاً أعظم . فقد ظهرت في الدول البروتستنتية عشرات الردود المفندة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

التظاهر بالاحتكام إلى العقل في رجل حبذ النهب والسلب والنفي والمصادرة. والاسترقاق في سفن تشغيل الأسرى حججاً للدفاع عن المسيحية الكاثوليكية. وتسائل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفه في الكاثوليكية أيضاً ؟ وأى قرن خلا من الانقسامات في الكنيسة — من الكاثوليك الرومان ، والكاثوليك اليونان ، والكاثوليك الأرمن ، والكاثوليك الشرقيين ؟ وألم يكن جانسنو البور — رويال في تلك المعظه يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع ؟ وألم يكن الأكليروس العالي بزمامة بوسويه نفسه في نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما ؟ وألم يكن بوسويه يقاتل فنيلون ؟

٨ - فنيلون . ١٦٥١ - ١٧١٥

كان فرانسوا دسالنيك دلا موت — فنيلون ، النبيل المولد ، الثلاثي الاسم ، كبوسويه سنياً طموحاً ، أسقفاً ورجل بلاط ، ومعلم لأمير من البيت للمالك ، وكاتباً من خول النثر . ولكنه في غير ذلك كان بينه وبين بوسويه ما بين السماء والأرض من تباين . كتب سان — سيمون محرباً عن إعجابه بالرجل يقول :

« رجل فارغ القوام نحيل الجسد قوى البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشر والذكاء . في سحنته ما يوحى بأنها تتألف من متناقضات ، ومع ذلك ، فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤذى الناظر . فوجهه أبيض وقور ، رزين مرح ، يطالملك منه اللاهوت والأسقف والنبيل على السواء ، وفي هيئته كما في شخصه يرى الناظر قبل كل شيء ورقة وتواضعاً وقدراً فائقاً من رفعة الذهن . لقد كان عسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه (١١٦) » .

وعند ميشليه أن « فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته (١١٧) » —

لأنه كان ثمرة الازدهار الأخير لإقطاعى مكتمل فى بيريجوز تزوج آنسة بنبيلة رغم فقرها : ضارباً صفحاً عن تدمير أبنائه الكبار ، وأقصى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة . وربته أمه ، فشب على أمانة فى الحديث ورهافة فى الحس أشبه بأناقة حديث النساء ورهافة حسن . وقد أحسن تنقيفه فى الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعى باريس ، فأصبح أديباً لا قسماً خصب . وكان فى استطاعته أن يبارى أى مهرطق فى الاستشهاد بأقوال الوثنيين ، ويسكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى ، الفحل ، الجزل

رسم كاهناً فى الرابعة والعشرين (١٦٧٥) ، وسرطان مارتى رئيساً لدير « الكاثوليك الجديد » . وهناك اضطلع بمهمة شاقة هى رد الشابات اللاتى أبعدن عن البروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثولى . وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض ، ثم فى استسلام ، ثم فى محبة ، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع فى غرام فنيون ، ثم إنه الرجل الوحيد المتاح لمن . وفى ١٦٨٦ أرسل إلى إقليم لاروشل ليعاون على هداية الطيجونوت . وقد حذب مرسوم الإلغاء ، ولكنه استنكر العنف ، وأنذر وزراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة . ولما عاد إلى الدير بباريس نشر (١٦٨٧) « رسالة فى تعليم البنات » تسكاد تسكشف فيها روح روسو فى دفاعها عن الوسائل اللينة فى التربية . ولمساعين الملك الدوق دى فيليب ماريك الحفيدة دوق برجنديه ، البالغ من العمر ثمانية أعوام ، طلب إلى فنيون أن يتولى تعليم الصبي (١٦٨٩) .

أما الدوق الصغير فكان متكبراً عنيداً مشبوب العاطفة ، فى طبعه أحياناً شراسة وقسوة ، ولكنه أوتى ذهنك متألفاً وذكاء متوقداً . وأحس فنيون أن الدين وحده هو الكفيل بترويضه ، فأشربه مخافة الله ومحبة معاً ، واكتسب فى الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف معه — قصة المضارة

من شدته فهم عطوف لدور المراهقة . وقد راودته الأحلام باصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها للمستقبل ، فعلم الغلام سخافة الحرب ، وضرورة النهوض بالزراعة بدلا من تثبيط همم الفلاحين بالضرائب تجبى لبناء المدن الباذخة ولتحويل الحروب العدوانية . وفي كتابه « حوارات الموتى » الذى ألفه لتلميذه ، وسم بالهمجية « تلك الحكومة التى لا قوانين فيها غير ارادة رجل واحد ٠٠٠ فالحاكم ينبغى أولا وقبل كل شئ أن يكون مطيعا للقانون ، فاذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة » . وكل الحروب حروب أهلية ، لأن الناس جميعا أخوة ، يدين كل منهم للنوع الإنسانى — وهو الدولة الكبرى — بدين أعظم كثيرا من دينه للبلد الذى ولد فيه (١١٨) . أما الملك ، الذى لم يكن ضالعا فى هذا التعليم الذى لا تفهمه غير القلة ، والذى رأى تحسنا عجيبا فى خلق حفيده ، فقد كافأ فنيلون برئاسة أسقفية كامبريه (١٦٩٥) . وأخجل فنيلون أخبارا كثيرين باقامته تسعة أشهر من كل عام فى مقر رئاسته الدينية . أما الشهور الباقية فكان ينفقها فى البلاط تواقا للتأثير فى السياسة ، مواصلا أحيانا تعليم الدوق .

وخلال ذلك كان قد التى بالمرأة التى قدر لها أن تكون « المرأة القاضية عليه » بمعنى السكامة . هذه المرأة ، واسمها مدام جان مارى دلاموت — جويون ، التى تزوجت فى السادسة عشرة ، وترملت فى الثامنة والعشرين وهى جميلة غنية ، تهافت الخطاب على طلب يدها ، ولكنها كانت قد تلقت تدريبا دينيا مكثفا ليحصد منها ضد الرجال الطامعين ، ولم نجد لتقواها منصرفا كافيا فى المراجعة الصورية لشعائر العبادة السكائوليسكية ، فاستممت فى تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس — لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق فى تأمل إله كلوى الوجود ، وفى استسلام النفس لله استسلاما كاملا محبا . فى مثل هذه المحبة الالهية لم يعد لأمور الدنيا وزن ، وفى مثل هذا التسامى الروحى يجوز للمرء أن يهمل كل الملقوس

الدينية ومع ذلك يرقى إلى السماء ، لا بعد الموت فحسب بل في الحياة أيضاً . وكانت محكمة التفتيش قد أدانت القس الأسباني ميجويل دى مولينوس (١٦٨٧) لأنه بشر بـ « هدوئية » كهذه في إيطاليا ، ولكن الحركة كانت تنتشر في جميع أرجاء أوروبا - في « تقوية » ألمانيا والأراضي المنخفضة ، وبين الكويكرز وأفلاطوني كبردج بأنجلترة ، وبين « المنذرين » في فرنسا .

وقد بسطت مدام جويون آراها في عدة كتب ببلاغة مؤثرة ، فرسمت أن النفوس أشبه بالسيول التي انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحة حتى تقضي نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر ، فإذا الفردية تتلاشى ، وإذا الوعي بالذات أو بالعالم ، بل الوعي كله ، ينتهى ولا يبقى غير الاندماج في الله . في مثل هذه الحال تكون النفس معصومه ، لا ينال منها خير ولا شر ، ولا فضيلة ولا خطيئة . فهما فعلت ففعلها صواب ، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها . وقالت مدام جويون لبوسويه أنها لا تستطيع أن تطلب المغفرة على ذنوبها ، لأنه لا ذنوب في عالم الوجد الصوفى الذى تعيش فيه (١١٩) . ورأت بعض نساء الطبقة الأرستقراطية في هذه الصوفية لونا رفيعا من التقوى . وكان من بين مريديها السيدات بوفيليه ، وشوفروز ، وبورتمار ، يل - إلى حد ما - مدام دمانتون . واستهوى فنيلون نفسه هذا المزيج الساحر من التقوى والثراء والحسن . وكان خلقه هوذاته مزيجا معتدلاً من الصوفية والطموح والعاطفة الرقيقة . فأقنع مدام دمانتون بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس في المدرسة التي أسستها زوجها الملك السرية في سان سير ، وطلبت دمانتون إلى كاهن اعترافها أن ينصحها فى أمر مدام جويون ، فاستشار بوسويه ، ودعا بوسويه المتصوفة لتشرح له تعاليمها ، ففعلت . وتوجس الأسقف الحذر فيها خطرا يتهدد لاهوت الكنيسة وممارساتها ، لأنها لم تستغن عن الاسرار المقدسة والكاهن

فحسب ، بل عن الأناجيل والمسيح أيضاً ، فوبخها ، وناولها القربان ، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعاليم . فوافقت أول الأمر ، ولكنها عدلت بعد ذلك . واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها في دير ثمانية أعوام (١٦٩٥ — ١٧٠٣) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش في هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا ، وهناك ماتت عام ١٧١٧ .

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود للتصوف المباح ، فألف كتاباً بمناه « تعاليم عن حالات الصلاة » (١٦٩٦) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها . وتردد فنيلون ، وكتب كتاباً معارضاً بمناه « تفسير أقوال القديسين للمأثورة عن الحياة الباطنة » (١٦٩٧) . وأصبح الكتابان اللذان نشرتا في وقت واحد تقريباً مثار نقاش واسع ، احتدم احتدام النقاش حول البور — رويال . أما الملك الذي كان يضع ثقته في بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفته معلماً لدوق برجندييه ، وأمره بأن يلزم أسقفيته في كامبرى . وطلب لويس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون . ولكن إنوسنت الثاني عشر تردد ، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية ، ودافع فنيلون عن سلطنة البابا المطلقة . وضغط لويس على البابا ، فأذعن ، ولكنه توخى غاية الاعتدال في ادانته لكتاب « الاقوال المأثورة » (مارس ١٦٩٩) . وأذعن فنيلون للحكم في هدوء .

ثم راح يؤدى واجباته في كامبرى باخلاص وضمير أكسبها احترام فرنسا ، ولعلمها كافا خليقين باسترضاء بوسويه والملك لولا أن طابعاً نشر (أبريل ١٦٩٩) برضى فنيلون رواية كان قد ألفها لتلميذه الأير ووضع لها عنواناً بريئاً في ظاهره « تنمة لأوديسة هوميروس » وهى معروفة لنا باسم (مغامرات تيليامك بن أوليس) . هنا ، وفى أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريباً ، شرح المعلم اللطيف مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية . فترى لسان حاله (منتور) يحذر الملوك بعد أن أقنعهم بسياسة السلام قائلاً :

« منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين . . . فما النوع الإنسانى كله غير أسرة واحدة . . . وكل الشعوب إخوة . . . وما أتمس القوم الفجار الذين ينشدون الجسد القاسى فى دماء إخوانهم المسفوكه . . . إن الحرب ضرورية أحياناً ، ولكنها معرة الإنسانية . فلا تزعموا لى أيها الملوك إن على المرء أن يبتغى الحرب إن أراد الجدد . . . فكل من يؤثر مجده على معاصر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء ، ولن يكسب غير المجد الزائف ، لأن المجد الحقيقى لا يكون إلا فى الاعتدال والصلاح . . . ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيباً ، لأنه لم يقيم لهم وزناً فى فكره ، وأوراق دماهم فى سفه ليرضى غروراً وحشياً (١٢٠) » .

وقد سلم فنيلون بحق الملوك الإلهى ، ولكن بوصفه قوة منحتهم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس ، وحقاً تحده القوانين :

« إن السلطة المطلقة تهوى بالرعية جماء إلى درك العبودية . فهم يتملقون الطاغية إلى حد العباداة . وكلهم يرتعدون فرقا لنظرة منه ، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسيمات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه . ذلك أنه لم يستمد أى قوة من محبة الشعب (١٢١) » .

فى هذه الأسطر رأى لويس الرابع عشر نفسه موصوفاً ، وحروبه مدانة . وبادر أصدقاء فنيلون بالاختفاء من البلاط ، وقبض على طابع « تيلياك » ، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخه . ولكنه طبعه ثانية فى هولندا ، وسرعان ما تداولته الأيدى فى جميع أرجاء العالم القارىء للفرنسية ، وغال أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان (١٢٢) وأكد فنيلون أن لويس لم يكن فى ذهنه فى هذه الفقرات الناقدة ، ولكن أحداً لم يصدق . وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق . ثم لانت فتاة الملك ، وسمح له بأن يزور فنيلون فى كامبرى .

وعاش رئيس الأساقفة يعلى نفسه بأن تلميذ هذه سيرت العرش عما قليل ،
وعند هايدموه ليسكون وزيره كما كان ريشايو وزيراً للويس الثالث عشر .
ولكن الحفيد مات قبل أن يموت الجدي بثلاث سنين ، ثم سبق فنيلون
نفسه لويس إلى القبر بتسعة أشهر (٧ يناير ١٧١٥) .

أما بوسويه فكان قد سبقهما بزمان . لقد كان تمسا في أخريات أيامه ،
حقاً إنه انتصر على فنيلون ، وعلى دعاة الساطة البابوية المطلقة ، وعلى المتصوفة ،
ورأى الكنيسة منتصرة على الهيجونوت ، ولكن هذه الانتصارات كلها
لم تيسر له قذف الخصى من مثانته . وقد برح به الألم تبريحاً جعل من العسير
عليه أن يحتمل الجلوس في المكان الذى أُولع بالجلوس فيه في احتفالات
السلطان ، وتساءل الساخرون القساسة ، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو
يعوت في هدوء . وقد رأى من حوله ظهور الارتيازية ، ونقد الكتاب
للقدس ، والجدليات البروتستنتية العنيفة التى صوبت في غير تقوى إلى
رأسه . فها هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتى الذى جورىو يخبر العالم
بأنه هو ، بوسويه ، أسقف الأساقفة ، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة ،
كذاب أشريعاشر المحظيات (١٢٣) . وقد بدأ تأليف كتب جديدة لرد
على هؤلاء الخصوم السفهاء ، ولكن الحياة كانت تنحسر عنه وهو يكتب ،
وفى ١٢ أبريل ١٧٠٤ وضع للموت حداً لآلامه .

وببدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الكاثوليكية في فرنسا
الحديثة . فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التى استولى
عليها لوثر وكالفن . وكان رجال الكايروس يصلحون من أخلافهم ،
وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين . وكان بسكال قد أدار دوائر
الارتيازية على المرة بين ، والدولة جعلت نفسها وكيلاً مطيعاً للكنيسة ،
والملك أوشك أن يكون يسوعياً .

ومع ذلك لم يكن الموقف بالغ السكال . فاليسوعيون لم ينقشع من

فوق رؤوسهم بعد ذلك الغبار الذي أثارته عليهم رسائل بسكال الاقليمية ،
والجانسانية مازالت بخير ، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على
الملك الورع ، والناس يقرأون مونتيني أكثر مما يقرأون بسكال ، وهويز
وسبينوزا وبيل يسكيلون اللطافات الهائلة لصرح الإيمان . يقول القديس
فانسان دبول (١٦٤٨) ، « يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون
القربان قد تقلص ، ففي سان - سوليس نقص العدد ٣٠٠٠ ، ووجد راعي
سان - نيكولا - دو - شاردونييه أن ١٠٠٠ من رعايا أبرشيته تحلفوا
عن قربان القيامة (١٢٤) » . وقال بيل في ١٦٨٦ « إن العصر الذي نعيش
فيه يجهل بأحرار الفكر والروبيين ، ويدهش الناس لسكثرة عددهم (١٢٥) »
« ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين في كل مكان (١٢٦) » وقد عزا هذا
إلى حروب العالم المسيحي وجدلياته . وقال نيسكول : ليكن معلوماً أن
الهرطقة الكبرى في العالم ليست السكالفنية ولا اللوثرية ، بل الإلحاد (١٢٧) .
وقالت الأميرة بالاتين في ١٦٩٩ « قل أن يجد المرء الآن شاباً لا يشتغل أن
يكون ملحداً (١٢٨) » وروى لايبنتز أن في باريس (١٧٠٣) « تفشت
بدعة من يسمونهم العقول القوية ، ويسخر الناس هناك من التقوى . . .
وتحت حكم ملك تقي صارم مطلق السلطة ، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود
التي شهدناها من قبل في العالم المسيحي (١٢٩) » . وبين ذوى العقول القوية
— وهي قوية إلى درجة تسكني للتشكك في كل شيء تقريباً — نجد سان
إفريمون ، ونيون دلائسكو ، وبرنييه مخلص فاسفة جاسندي ، ودوق
نيفير وبوبون . وأصبح « التاميل » الذي كان يوماً مقراً لفرسان المعبد
(الداوية) في باريس ، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر — شولاييه
وسيرفيان ، ولافار ، الخ — الذين أسلموا حكمهم بالدين إلى عهد الوصاية .
أما فونتينيل ، الذي قارب المائة وتحدى الفناء وأفسح له في الأجل حتى
تبادل النكت مع الموسوعيين ، فكان في ١٦٨٧ ينشر كتابه (تاريخ
النبؤات) ويقوض في خبث أساس المسيحية المعجز . وهكذا مهد لويس
في نشوة تقواه وورعه الطريق لفولتير .

الفصل الثالث

الملك والفنون

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ - تنظيم الفنون

لم يشهد التاريخ من قبل ولا من بعد ، ربما باستثناء عهد بركليس ، حكومة شجعت الفن ، أو غذته ، أو هيمنت عليه ، كما فعلت حكومة لويس الرابع عشر .

كان ذوق ريشليو الرفيع ومشترياته المختارة بحكمة قد أعطت الفن الفرنسى على أن يفوق من الحروب الدينية . وفى عهد وصاية آن النمساوية كان جماعو التحف الأهليون — من الأشراف ورجال المال — قد بدأوا يتنافسون فى جمع آثار الفن . فاقتنى بيير كروزا المصرى مائة صورة بريشة تيشان ، ومائة أخرى بريشة فيرنوزى ، ومائتين بريشة روبز ، وأكثر من مائة بريشة فانديك . أما فوكيه فقد جمع فى قصر فوكا رأيناصورا وتمائيل ، وتحفا فنية أقل شأنا ، وكان فى جمعه من التميز أكثر مما كان فيه من الحكمة والحذر . وورث لويس مقتنياته بعد أن أجهز عليه ، وما لبث العديد من المجموعات الخاصة الأخرى أن جمع فى اللوفر أو فرساي . وكان مازاران قد آثر وضع شطر من ثروته فى الفن دون التقود تجنبها لهبوط قيمة العملة . وقد أسهم ذوقه الإيطالى الرفيع فى تكوين انحياز الملك إلى الفن الكلاسيكى . وأغلب الظن انه هو الذى علم لويس الرابع عشر أن بما يبرز مجد الحاكم أن يجمع الفن ويمرضه ويحتضنه . وقد هيأت هذه المجموعات المثل الحافزة والقواعد الموطدة لتعليم الفن وتطويره فى فرنسا .

وكات الخطورة التالية هي تنظيم الفنانين . وهنا أيضا كان مازاران سباقا .
ففي ١٦٤٨ أسس أكاديمية التصوير والنحت ، وفي ١٦٥٥ أصدر الملك
مرسوما بهذه الأكاديمية فأصبحت الأولى في سلسلة من الأكاديميات التي
قصد بها تدريب الفنانين وتوجيههم إلى خدمة الدولة وتجميلها . والتقط
كولبير المحيط حيث تركه مازاران ، وبلغ بهذه المركزية للفن الفرنسي القمة .
وكان يتطلع إلى « جعل الفنون تزدهر في فرنسا أكثر من ازدهارها في أي
بلد آخر » (١) رغم أنه لم يدع لنفسه ملكة الحكم في أمور الفن . وبدأ بأن
اشترى للملك مصنع جوبلان للنسيج المرسوم (١٦٦٢) وفي ١٦٦٤ حصل
على منصب المشرف على العماائر ، فأتاح له هذا المنصب هيمنة على المعمار
والفنون الملاحقة به . وفي ذلك العام أمد تنظيم أكاديمية التصوير والنحت ،
وسماها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة . وكان هنري الرابع قد أسكن
الوفر طائفة من مهرة الصنائع ليزينوا القصور الملكية . فجعل كولبير من
هؤلاء الرجال نواة للمصنع الملكي لأثاث التاج (١٦٦٧) . وفي ١٦٧١
أنشأ الأكاديمية الملكية للعمارة ، حيث أغرى الفنانون بالبناء والزخرفة
بـ « الذوق الرفيع » الذي يحبذه الملك . وفي هذه الجماعات كلها وضع مهرة
الصنائع تحت إشراف الفنانين ، وهؤلاء تحت إرشاد سياسة وطرارز موحدين .
ورغبة في دعم الاتجاه الكلاسيكي الذي تلقاه الفن الفرنسي إبان عهد
فرسوا الأول ، وتنقيته من التأثيرات الفلمنكية ، أنشأ كولبير وشارل
لبرون أكاديمية فرنسا الملكية في روما (١٦٦٦) . وكان الطلاب الحازون
على جائزة روما في أكاديميه باريس يبعثون إلى إيطاليا ويعالون خمس سنين
على حساب الحكومة الفرنسية . وفرض عليهم أن يستيقظوا في الخامسة صباحا
ويحضروا إلى الفراش في العاشرة مساء . وقد دربوا على نسخ النماذج الكلاسيكية
ونماذج النهضة ومحاكاتها ، وكان ينتظر من كل منهم أن ينتج « رائعة » (بالمعنى
المصطلح عليه في نظام الطوائف) مرة كل ثلاثة أشهر ، فإذا عادوا إلى فرنسا
كان للدولة الحق المقدم في خدماتهم .

وكانت ثمرة هذه الرعاية والتأميم للفن إنتاجاً رائعاً ضحماً للقصور ،
والكسائس ، والتماثيل ، والصور ، وقطع السبج المرسوم ، والخزف ،
واللداليات ، والمحفورات ، والنقود ، وكلها مطبوع بكبرياء « الملك
الشمس » وذوقه ، وبقسمات وجهه أحياناً كثيرة . ولم يكن هذا إخضاع الفن
الفرنسى لروما كما شكوا البعض ، بل إخضاع فن روما للويس الرابع عشر .
وقد استهدف الأسلوب أن يكون كلاسيكياً ، لأن ذلك الأسلوب يتفق
وعظمة الدول وجلال الملوك . وتدفقت الأموال الفرنسية إلى إيطاليا بأمر
كولبير لشراء آثار الفن الكلاسيكى أو فن النهضة ، وبذل كل شيء لنقل
عبد الأباطرة الرومان إلى ملك فرنسا وعاصمتها ، وكانت النتيجة مذهلة للعالم .
وأصبح لويس الرابع عشر أعظم رعاة الفن الذين عرفهم التاريخ . فقد
« بذل للفنون من التشجيع قدراً أعظم من جميع نظرائه من الملوك مجتمعين »
(فى رأى فولتير) (٢) . وكان بالطبع أسعفى جماعى الفنون ، فزاد عدد
الصور فى قاعاته من مائتين إلى ألفين وخمسمائة ، وكان كثير منها من إنتاج
فنانين فرنسيين كلهم الملك برسمها . واشترى الكثير جداً من المنحوتات
الكلاسيكية وتماثيل عصر النهضة ، حتى لقد خشيت إيطاليا أن تنزع آثارها
الفنية ، وحظر البابا الميزيد من تصدير هذه الآثار . واستخدم لويس رجالاً
وهو بين مثل جيراردون أو كوازيكوكس لنقل نسخ من التماثيل التى لم يستطع
شراءها ، وقل أن نافست نسخ أم ولها كما نافستها هذه النسخ . وملئت
قصور باريس وفرساي ومارلى وحدائقها وبساتينها بالتماثيل ، وكان أوثق
سبيل إلى قلب الملك إهدائه أثراً ذا جمال غير منازع أو ثمرة راسخة .
مثال ذلك أن مدينة آرل أهدته تمثالاً الشهير « فينوس » فى ١٦٨٣ . ولم
يكن لويس بالرجل الشحيح . وقد قدر فولتير أنه كان يشتري فى كل عام
من آثار الفنانين الفرنسيين ما قيمته ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ويهدىها للمسلمين
والمؤسسات والأصدقاء (٣) بهدف مساعدة الفنانين وبث ماسكة الجمال
والإحساس الفنى فى الوقت نفسه . وكان ذوق الملك سليماً أسدى إلى الفن

الفرنسي أيادي بيضاء ، ولكنه كان كلاسيكياً إلى حد ضيق . فحين أروه بعض الصور التي رسمها تنييه الابن قال آمراً « ابعادوا عني هذه الأشياء البشعة » (٤) وقد ارتقى الفنانون بفضل رعايته كثيراً ، سواء في أرباحهم أو - كما تهم الاجتماعية . وقد ضرب المثل بتكريمه إياهم شخصياً ، وحين شكوا البعض من ألقاب الشرف التي خلغها على المصور لبرون والمعاري جول - آردوان - مانسار أجاب في شيء من الحدة « في وسعي أن أصنع عشرين دوقاً أو نبيلاً في ربع ساعة ، ولكن صنع فنان كمانسار يقتضى قروناً » (٥) . وبلغ راتب مانسار ٨٠٠٠٠ جنيه في العام ، أما لبرون فكان ينقلب في نعيم قصوره بباريس وفرساي ومونمورنسي . وتقاضى لارجلير وريجو ستانة جنيه أجراً عن كل لوحة . « ولم يترك فنان كفف في عوز » (٦) .

وقدلت الأقاليم العاصمة في تكريم الفن وإثابته ، واقتدى النبلاء بمليكهم . فطورت المدن مدارس فنية خاصة بها - في روان ، وبوفيه ، وبلوا ، وأورليان ، وتور ، وليون ، وإكس - أن - بروغاس ، وتولوز ، وبوردو - وواصل النبلاء دورهم رعاية للفن وإن تقاص لأن الدولة استوعبت المواهب المتاحة ، وأسهم الذوق المدرب الذي نشئت عليه أرقى أروستقراطية في أوربا في توطيد الطراز الرفيع الذي اتسمت به منتجات الفن في عهد لويس الرابع عشر . واكتسب الرجال والنساء الذين ولدوا في نعيم الامتيازات والثراء وشبوا على العادات المهذبة وسط محيط جميل وأشياء بديمة - نقول إنهم اكتسبوا معايير وأذواقاً من يكبرونهم سنّاً كما اكتسبوا منها من يثبتهم ، وكان على الفنانين أن يلبوا مطالب تلك المعايير ويشبهوا تلك الأذواق . ولما كان الاعتدال ، وضبط النفس ، والتعبير الأنيق ، والحركة الرشيقه ، والشكل المصقول ، لما كانت هذه كلها مثل الارستقراطية الفرنسية في هذا العهد ، فقد تطلبت هذه الصفات في الفن ، وحبذ النظام الاجتماعي الطراز الكلاسيكي . وأفاد الفن من هذه المؤثرات والهيمنات ، ولكنه دفع ثمنها . ذلك أنه فقد اتصاله بأفراد الشعب ، ولم يستطع أن يعبر عنهم كما

استطاع الفن الهولندى والفلمنى أن يعبر عن الأراضى المنخفضة ، وأصبح الفن صوت طبقة ، وصوت الدولة والملك ، لا صوت الأمة . فأنت لا تجد فى فن هذه الحقبة الكثير من دفء الوجدان أو صمته ، ولا تجد ألوان روبرت الغنية وأجساده المكتنزة ، ولا تجد الظلال العميقة التى تلف حاخامات رمبرانت وقديسيه ومالييه ، ولا ترى فلاحين ولا عمالا ، ولا متسولين ، بل السعادة الجميلة ترتفع فيها صفوة البشر .

وأهيج كولبير وهولاه أن يجسدا فى شارل لبرون رجلا يستطيع أن يكون فى وقت واحد خادما غيورا للحكومة وقاضيا متسلطا فى هذا الطراز الكلاسيكى . فى ١٦٦٦ عين لبرون بتوصية كولبير كبيرا لمصورى الملك ومديرا لأكاديمية الفنون الجميلة ، وبعد عام عهد إليه بمصنع جوبلان ، ووكل بالإشراف على تعليم الفنانين وتشغيلهم لينبى فى أعمالهم تاسقا فى الأسلوب يميزا للعهد وبمثاله . وبمعاونة مساعدين على شاكلته فى التفكير أنشأ لبرون فى الأكاديمية نظام « المحاضرات » (١٦٦٧) التى غرست بنظامها أصول الأسلوب الكلاسيكى بتماليم وأمنله وسلمان ، واخذير رفايل من بين الفنانين الإيطاليين ، وبوسان من بين الفنانين الفرنسيين ، وموزجين مفضلين على غيرهما ، وكانت كل لوحة يحكم عليها بمعايير مستقرة من فنهما . وقد صاغ لبرون وسباستيان بوردون هذه القواعد ، فرمعا الخط فوق اللون ، والانضباط فوق الأصالة ، والنظام فوق الحرية ، ولم تعد مهمة الفنان أن ينقل الطبيعة بل أن يجعلها ، ولا أن يعكس فوضاها وعيوبها وبشاعاتها كما يعكس جمالها العارض ، بل أن يلتقى من بين مماتها تلك التى تتيح للفس الإنسانية الإفصاح عن أعمق مشاعرهما وأرفع مثلهما . وكان على للمعماريين والمصورين والنحاتين والخزافين وصناع المشغولات الخشبية وللمدبسة والزاجية والنقاشين ، أن ينطقوا فى صوت متناسق واحد بتطلعات فرنسا وبمظمة الملك .

٢ - العمارة

على أن هؤلاء الفنانين الفرنسيين « المنطليين » كانوا قد عادوا من روما وقد اكتسبوا طلاء « باروكيا » على غير وعى منهم . وقد وصفنا من قبل ذلك الطراز « طراز الباروك » — الذى عم الآن وانتشر . وخلاصته أنه يحمل عمل البساطة الهادئة التى تميزت بها الأشكال الكلاسيكية إسرافاً فى الوجدان والزخرف ، وبينما نرى المثل الكلاسيكى — وعلى الأخص الهلنسى — قد حوكنى فى نحت هذا « القرن العظيم » وتصويره وأدبه ، نجد العمارة والزخرفة قد أخذتا عن الطرز الأنيقة المنمقة التى عقد لها لواء النصر فى إيطاليا بعد وفاة ميكلانجيلو (١٥٦٤) . فلقد استهدف بناء الملك الطراز الكلاسيكى ، ولكنهم حققوا الباروكى — الباروكى الكامل فى فرساي ، ومنجماً موفقاً من الباروكى والكلاسيكى فى واجهات اللوفر .

أما أول الروائع المعمارية فى هذا العهد فى كنيسة قال — دجراس بباريس . وكانت آن النمساوية قد اندرت اندراً ببناء معبد جميل إذا وهبها الله ولويس الثالث عشر غلاماً . فلما أتاح لها وصايتها على العرش المال كلفت فرنسوا مانسار بوضع تصميمات الكنيسة . وأرسى لويس الرابع عشر الحجر الأول فى ١٦٤٥ وكان يومها فى السابعة . ونفذ تصميم مانسار على يد لومرسييه بالطراز الكلاسيكى ، وتوج بقبة مازالت محط إعجاب للمعماريين . وشيد لبرال برويان كنيسة سان — لوى — ديزا نفاليد (١٦٧٠) لقدامى المحاربين الذين يأويهم الأوتيل ديزنفاليد . وفى ١٦٧٦ كلف لوفوا المعماري جول اردوان مانسار (حفيد أخى فرنسوا مانسار) بأن يكمل الكنيسة بخورس وقبة . والقبة فى جمالها الرشيق رائعة العهد المعمارية . وقد حقق اردوان مانسار انتصاراً آخر فى تصميم الكنيسة الملحقة بفرساي (١٦٩٩) . وقد أكل عمله هنا وفى الانفاليد صهره روييردكوت

بـزخرفة مترفة ، وهو الذى أقام كذلك الأوتيل دفيـل فى ليون ، ودبر سان دنى ، وواجهة سان - روش .

وحلت العمارة الملكية محل العمارة الكنسية حين تفوقت الدولة على الكنيسة نراء ومكانة ، فأصبحت المشكلة الآن هى التعبير عن القوة لا عن الـورع . وكان للوفر فى تلبية هذه الحاجة ميزة تميز بها على غيره من العائـر ، هى ما أحاط به من تقاليد موروثـة . فقد شهدت نموه أجيال كثيرة ، وترك ملوك كثيرـون بصماتهم على تاريخه . فشيـد لومرسيه الواجهة الغربية للجناح الرئيسى بتكليف من مازاران ، وبدأ الجناح الشمالى على طول شارع ريفولى الحالى . وأتم هذا الجناح خلفه لوفو ، وأعاد بناء واجهة الجناح الجنوى (المواجه لنهر السين) ، وأرسى أساسات الجناح الشرقى . فى هذه الفترة الهامة أصبح كولبير المشرف على العائـر . وإذ رفض تصميمات فـو للجناح الشرقى ، فقد فكر فى مشروع مد الـوفر غربا ليلتقى بالتـويلرى فى قصر واحد . فأذاع على معمارى فرنسا وإيطاليا مسابقة فى تصميم واجهة جديدة . ورغبه منه فى الحصول على أفضل التصميمات ، أقنع الملك بأن يرسل دعوة خاصة إلى جـوطانى لورنتزو برينى (١٦٦٥) وهو يومها أمير الفنانين الأوربيين غير منازع ، لياتى إلى باريس على نفقة الملك ويقدم تصميمه . وأتى برينى بأبهته الكبرى ، وأغضب الفنانين الفرنسيين باحتقاره لعملهم ، ووضع تصميمًا ضعيفًا باهظ التكلفة يقتضى هدم كل الـوفر القائم تقريبًا . ووجد كولبير فى التصميم عيوبًا تتصل بأنايب المياه وغيرها من مرافق المعيشة ، واستشاط برينى غضبًا وقال إن « المـيو كولبير يعامى كأثنى غلام صغير ، بكل لغوه عن المراحض والتقنات السفلية (٧) » . وأمكن الوصول إلى حل وسط . فقد وضع الملك الحجر الأساسى لتـميم برينى ، وبعد أن أقام الفنان ستة أشهر فى باريس رد إلى إيطاليا محملاً بالمال وأسباب الشـريف ، وقد حاول أن يرد على هذا بتمثال نصفى للويس الرابع عشر يقوم الآن بفرسائى ، وبتمثال للويس راجبا جواده فى « جاليريا

بورجيزى» بروما أما تصميمه للوفر فتخلى عنه ، واحتفظ بالمبنى القائم وكوفى شارل بيرو بتكليفه ببناء الواجهة الشرقية . وارتفع صف أعمدة اللوفر الشهير ، الذى أثار عيوبه الواضحة سيلا من النقد (٨) ، ولسكننا نتقبله الآن على أنه من أعظم واجهات المباني فى العالم .

وكان كولبير يؤمل أن ينتقل الملك من مسكنه الضيق فى سان — جرمان إلى اللوفر بعد تجديده . ولكن لويس لم ينس كيف أكره هو وأمه على الفرار من الجواهر الباريسية خلال حرب الفروند . وكان رأيه فى صوت الشعب أنه صوت العنف ، فلم يشأ أن يعرض نفسه لمثل هذه الكوابح لحكمه المطلق . وعليه قرر أن يبنى فرساي ، وروع القرار كولبير .

وكان لويس الثالث عشر قد شيد هناك استراحة متواضعة للصيد فى ١٦٢٤ . ورأى أندريه لنوتر فى منحدر هذا الموضع الذى كان يرتفع فى رفق ، وفى أحراج الغنية ، فرصة مغرية للتفنن فى تنسيق الحدائق . وفى ١٦٦٢ قدم للويس الرابع عشر تصميمًا عامًا للمنطقة ، وإذا كانت المباني اليوم منخفضة عن المروج والبحيرة وعن الأزهار والشجيرات ومختلف الأشجار ، فلعل هذا هو الموضع الذى تصور لها عليه لنوتر . فهو لم يقصد بالقصر أن يكون آية من آيات المعمار بقدر ما يكون دعوة إلى الحياة خارجة بين أحضان طبيعة روضها الفن وجعلها ، دهشة لتنشق عبر الزهر والشجر ، ولإشباع العين واللمسة المتخيلة من الأجساد الكلاسيكية النحت ، ولطاردة الفرائس والنساء فى الغابات ، وللرقص وتناول الطعام على العشب ، ولركوب التوارق على القناة والبحيرة ، والاستماع إلى لولى ومولير تحت القبة الزرقاء . فها هنا جنة من جنات الآلهة ، بنيت بدراهم عشرين مليوناً من الفرندين . لن يروها إلا لما ، ولسكنهم يعتزون بعز مليسكهم . وبما يسر أن نعرف أن بستان فرساي كان مفتوحاً للشعب إلا فى المناسبات الملكية .

وكان فن إنشاء الحدائق المنسقة البهية وافداً من إيطاليا ككثير غيره

من الفنون ، وقد جالب معه عشرات الحيل والمفاجآت ، كالتماريش ،
والشعريات ، والمغارات ، والكهوف ، والأشكال الغريبة (الجروتسك) ،
والأحجار الملونة ، وبيوت الطير ، والتمائيل ، والزهرات ، والغدران ،
والنوافير ، والميازيب ، وحتى الأراغن تعزف إلى جوار الماء الجارى . وكان
لنوتر قد صمم من قبل حدائق فو فوكيه ، وبعد قليل سيصمم حدائق
التويلرى للملكة ، وحدائق سان كلو لمدام هنرييتا ، وحدائق شاتيل
لكونديه الكبير . وأطلق لويس يده فى فرساي من ١٦٦٢ فصاعداً ،
وروعت كولبير التكاليف التى أنفقت على تحويل بركة شعشاء إلى فراديس غناء .
وتعلق قلب الملك بلنوتر الذى لم يأبه للمال بل للجمال فقط ، والذى كان
فناناً صادقاً لا غش فيه (٩) . لقد كان بمثابة « بوالو » الحدائق ، المصمم على
أن يغير « فوضى » الطبيعة إلى نظام وتناسق وشكل معقول مفهوم . ولله
كان مسرفاً فى إصراره على الكلاسيكية ، ولكن الحدائق التى أبدعها
مازالت بعد ثلاثمائة سنة كعبة يؤمها البشر فيما يؤمون .

كان لويس لا يزال يحسد فوكيه ، فأتى بلوفره معمارى قصر فو ليوسع
استراحة الصيد ويجعل منها قصراً ملكياً . وتسلم جول أردوان ماسار
إدارة المشروع فى ١٦٧٠ . وبدأ تشييد غرف السكن والقماعات وغرف
الاستقبال وصالات الرقص وحجرات الحراسة والمكاتب الإدارية — كل
هذه الأبنية الشاسعة التى نشهدها اليوم فى فرساي . وما وافى عام ١٦٨٥
حتى كان يسكدح فى المشروع ٣٦٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ حصان فى أبواب
بالليل والنهار . وكان كولبير منذ زمن طويل قد حذر الملك من أن معماراً
كهدا ، مضافاً إلى الحرب يخوضها بعد الحرب ، سينتهى بإفلاس الخزانة ،
ولكن فى ١٦٧٩ بنى لويس قصرآ آخر فى مارلى ، ملاذاً يلجأ إليه من
زحام فرساي ، وفى ١٦٨٧ أضاف الجران تريانون ليهكون خلوة لمدام
دمانتون . وأمر جيشاً من الرجال فيهم الكثير من الجنود النظاميين
بتحويل نهر أور ونقل مياهه خلال تسعين ميلاً من « قناة دانتون »

لتزويد بمحيرات فرساي ونهراته وناقوراته وحماماته بالمياه ، وفي ١٦٨٨ هجر هذا للمشروع بعد أن أنفقت عليه الأموال الطائلة حين دعا دأى الحرب . وقد كلف فرساي فرنسا حتى عام ١٦٩٠ مبلغا جملته ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ رفرنك (٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار ؟) (١٠) . وفرساي ، من الناحية المعمارية ، فيه من التعقيد والجزافية ما ينأى به عن السكال . أما الكنيسة فرائعة ، ولكن هذا الزهو بالخرف لا يكاد يتفق وتذلل العبادة . وبعض أجزاء التهرجيل ، والسلم المفضى إلى الحدائق فخم ، ولكن إلزام مصممه بأن يتركوا استراحة الصيد دون أن يمسوها في تصميمهم ، ويكتفوا بإضافة أجنحة وزخارف ، كل هذا أضر بمظهر البناء في مجموعه . وقد ترك هذه المجموعة المتكاثرة من الأبنية في النفس انطباع الرتبة الباردة والتكرار المتأهى — فالحجرة تقعو الحجرة على امتداد ١٣٢٠ قدما من الواجهة . ويبدو أن تنظيم القصر من داخله تجاهل الراحة الفسيولوجية لثقلاته ورواده ، وافترض قوة ضبط هائلة في الامعاء النبيلة ، فكان على من يريد إزالة ضرورة أن يعبر ست حجرات . لا عجب إذن أن سمعنا بأن السلم والطرقات كانت تستخدم في مثل هذا الغرض . أما الحجرات ذاتها فتبدو أصغر من أن تسمح بالراحة . وليس هناك حجرة فسيحة سوى القاعة الكبرى التى تمتد ٣٢٠ قدما على طول واجهة الحديقة ، هناك نشر المزخرفون كل مهاراتهم — فعلقوا قطع نسيج جوبلان وبوفيه المرسومة ، وبثوا المنحوتات على الجدران ، وبلغوا بكل قطعة أثاث السكال المحجب ، وعكسوا كل البهاء في تلك المرايا الكبيرة التى أعطت الحجرة اسمها الثانى ، وهو « قاعة المرايا » . وعلى السقف صور لبرون الذى ارتفع إلى ذروة فنه ، خلال خمس سنوات (١٦٧٩ — ٨٤) ، ورموز أسطورية ، انتصارات حكم لويس الطويل ، وسجل مآساته دون وعى منه ، لأن هذه الانتصارات المصورة على أسبانيا وهولندا وألمانيا أزمعت أن تثير أرواح النعمة على الملك الشغوف بالحرب .

وطاش لويس في فرساي على نحو متقطع منذ ١٦٧١ ، وأنفق بعض وقته في مارلى ، وسان - جرمان ، وفونتنبلو ، وبعد ١٦٨٢ أصبح فرساي مقره الدائم . ولسكنا نلاحظه إذا ظننا أن فرساي كان مسكنه وملهه ، فهو لم يشغل سوى جزء متواضع من المبنى ، أما الباقي فقد سكنته زوجته ، وأبنائه ، وأحفاده ، وخليلاته ، والمفوضيات الأجنبية وكبار الإداريين ، وأفراد الحاشية ، وكل الخدم والحشم الذين تطلبهم البيت المالك . ولا ريب في أن بعض هذا البهائم كان له هدف سياسى - هو إدخال الرهبة في قلوب السفراء الذين توقع منهم لويس أن يحكموا من هذا البذخ على موارد الدولة وسطوتها . وقد وقع هذا من نفوسهم ونفوس غيرهم من الزوار فأذاعوا في أرجاء أوروبا من الأنباء عن بهائم فرساي ما جعله البلاط المحسود ، والمثل الذى يحتذيه الكثير من البلاطات والقصور في القارة الأوروبية بأسرها . أما في عقايل هذا العهد فقد بدت هذه الكتلة الضخمة من المباني رمزا وقعا للاستبداد وتمجيدا مستهترا من كبرياء الإنسان لمصير الإنسان غير المتغير .

٣ - الزخرفة

لم تعرف فنون الزخرفة قط ، حتى على عهد بابوات النهضة ، مثل هذا التشجيع والعرض . فقد كانت الأرضيات المسكوة بالبسط السمكية ، والأعمدة الزينية ، والموائد ورفوف المستودعات الزخرفية الضخمة ، والزهرات من الخنزف الصيني ، والشمعانات الفضية والثريرات البلورية ، والساعات الجدارية الرخامية المطعمة بالأحجار الكريمة ، والجدران ذات الحشوات الخشبية أو الرسوم الجصية أو الصور أو قطع النسيج المرسوم ، والكرانيش المصبوبة صبا أنيقا ، والأسقف ذات الخارف الغائرة أو الصور ، هذه كلها وكثير غيرها من ألوان الفن في فرساي وفونتنبلو ومارلى واللوفر ،

وحتى في قصور الأهل ، جعلت من كل حجرة تقريباً متحفاً لأشياء تطلب
الميون والألباب بسر السكال الخفى . وعن رفايل ومساعديه — جوليو
رومانو ، ويرينو ديل فاجا ، وجوفاني دا أوريني — وعن قاعات الفاتيكان ،
نقل لبرون ومساعدوه مجموعة الأرباب والربات والكوبيدات وتذكارات
النصر والشعارات والنقوش العربية ، وأكاليل الزهر وورق للشجر ،
والحليات القرنية لثمار الأرض ، يزينون بها سجل انتصارات الملك على
النساء والدول .

وكان الأثاث بطراز لويس الرابع عشر متقفاً فخراً ؛ هنا أذعن البساطة
الكلاسيكية للزخرفة الباروكية . فالمقاعد مسرفة في النقش والتنجيد
والتدبيب إسرافاً أبعد عنها الأعجاز خشية إلا أرقها . أما الموائد فكانت تجدد
بينما الثقيل المتين إلى حد يبدو معه غير قابل للحركة . وكانت مناضد الكتابة
والمسكاتب المزودة برغوف للكتب غاية في الأناقة بحيث تغري القلم بالكتابة
في إيماز لاروشفوكو المحكم أو في حيوية مدام دسفينيه المتدفقة . وكثيراً
ما كانت الصناديق وخزانات النفائس تنقش بعناية فائقة أو تطعم برسوم من
معدن أو أحجار كريمة . وقد أعطى أندريه شارل بول اسمه (buhlwork)
لفنه الخاص ، فن تطعيم الأثاث ، لاسيما الأبنوس ، بالمعدن المنقوشة ،
وصدف السلاحف ، واللؤلؤ إلخ ، مضيفاً حلياً درجية تمثل النبات أو
الحيوان ذات رسوم غاية في الرشاقة ، وكان يقيم في اللوفر (١٦٧٢) بوصفه
نجار الأثاث الأثير لدى لويس الرابع عشر . ولقد بيعت إحدى خزائنه
المطعمة بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه إنجليزي في ١٨٨٢ ، وربما كان هذا المبلغ
يمادل ٥٠٠٠ دولار في ١٩٦٠ (١١) . ولكن بول مات في فقر مدقع
بعد أن بلغ التسعين في ١٧٣٢ . وقد يكون أوفق لأذواقنا تلك الأكشاك
المنقوشة التي أقيمت في هذه الفترة في كاتدرائية نوتردام دباري .

وأصبح النسيج المرسوم الآن فناً اختص به الملك . ولم يقنع كولبير

بإخضاع مصنعي جوبلان وأوبوسون لإشراف الملك ، فأقنعه بأن يتسلم أيضا مصنع النسيج المرسوم في بوفيه . وكانت هذه القطع للرسومة لاتزال الحلية المفضلة لجدران القصور وسجفها في المدن والريف ، والمهرجانات ، والباريات ، والاحتفالات الرسمية ، والأعياد الدينية . وقد صمم للمصور الفلمنكي آدم فان درمولر في بوفيه سلسلة رائعة من الرسوم مماها «فتح لويس العظيم» ، وأعد الفنان لها نفسه بأن تبع لويس إلى حروبه ورسم بالقلم أو صور بالألوان على الطبيعة للمواقع والحصون والقرى التي كانت مسرحا لحملاته الحربية . وكان مصنع جوبلان يستخدم ٨٠٠ من مهرة الصناع الذين لم يكتفوا بصنع قطع النسيج المرسوم ، بل المنسوجات الرفيعة وأشغال الخشب والفضة وللمعادن والتطعيم بالرخام . وهناك نسجت تحت إشراف لبرون قطع النسيج المرسوم العظيمة نقلا عن الرسوم التخطيطية التي حفلت بها صور رفايل الجصية المضخمة في قاعات الفاتيكان . وليس أقل من هذه شهرة السلاسل العديدة التي صممها لبرون ذاته ؛ قصور قوى الطبيعة ، والفصول ، وتاريخ الإسكندر ، ومساكن الملك ، وتاريخ الملك والمجموعة الأخيرة كانت تعد سبع عشرة قطعة ، واستغرق الفنان في صنعها عشر سنين ، وما زال نموذج رائع منها معروضا في حجرات عرض قطع الجوبلان — فيها ترى الأجسام متميزة إلى حد مذهل ، والتفاصيل متخيلة تخيلا كاملا ، حتى صورة المنظر الطبيعي التي على الجدار ، وكل هذا بخيوط ملونة نسجتها في صبر وأناة أبد صناع تحت عيون مجتهدة . وندر أن كرس مثل هذا الجهد البشري الضخم للزنى لرجل واحد . وقد اعتذر لويس عن هذا بأن زعم لكونه لير أن أسباب التمجيد هذه تتيح العمالة والدخل للصباغين والنساجين ، وتوفو هدايا ذات وقع جميل في عملية « تشحيم » الدبلوماسية .

وتعرضت كل الفنون الصغيرة تحت اليد الملكية السخية . فصنعت الأبسطة الفاخرة في لاسافونيرى قرب باريس . وأنتج القاشان البديع في

روان وموسستيه ، والحزف الإيطالي (الليولتي) الجيد في نينغير ، والعبيثي
 اللين المحينة في روان وسان كلو . وفي أخريات القرن السابع عشر تعلم
 الصناع الفرنسيون بتحريض كولبير أسرار البنادق في صب بالور المرأيا
 الكبيرة وتسويته وصقله ، وهكذا صنعت مرأيا « قاعة المرأيا » الرائعة (١٢) .
 ونظم كولبير ولبرون الصاغة أمثال جوليان دفونتين وفانسان بتي وأسكناهم
 في اللوفر ، فصنعوا للملك وللأغنياء مئآت التحف من الفضة أو الذهب —
 إلى أن صهر لويس والأغنياء هذه الحلى لتمويل الحرب . وقطعت الأحجار
 المكريمة والمداليات : وضربت العملة ، ونقشت بتصميمات كانت المثل الذي
 تحتذيه أوربا كلها فيما عدا إيطاليا . ولم يصل فن صنع المداليات منذ عصر
 النهضة إلى مثل هذا الابداع الذي حققه الآن على يد انطوان بنوا وجان
 موجيه . أما كولبير ، الذي لم يترك حجرا دون نقش ، فقد أسس في ١٦٦٢
 أكاديمية المداليات والنقوش ، ليخلد أعمال الملك ٥٠٠ بمداليات تقرب تكريما
 له (١٣) « وذلك كان أسلوب الوزير الكبير في تجميل الغرور الذي يملك المال
 في خدمة الفن العالي النفقه . وفي ١٦٦٧ أنشئت مدرسة للصور المحفورة في
 اللوفر ، ورسمت مناقيش روبر نانتوى وسبستيان لكير وروبير بونار
 وجان لبوتر في رهافة بالغة التدقيق شخصيات العهد وأحداثه . وحتى رسم
 المنمنمات ظل على قيد الحياة — وأن هبط عن سابق مقامه في العصر
 الوسيط — في كتاب « سامات الصلاة » الذي أهداه إلى الملك متقاعدوه
 في الأنفاليد . إن الفنون الصغيره . دون سائر الفنون ، هي التي تظهر ذوق
 « القرن العظيم » وبراعته الفنية .

٤ - التصوير

إن نجمين من نجوم التصوير ذوى المرتبة الثانية يقعان في الفلك الخارجى
 لهذا العصر ، وهما فيليب دشامبين ، وأوستاش لوسويده . أما فيليب فقد وفد

من بروكسل وهو في التاسعة عشرة (١٦٢١) ، وشارك في زخرفة قصر
الكسمبورج ، ولم يكتف برسم صورة ريشليو بقامته الكاملة ، وهي
المحفوطة في اللوفر ، بل صنع أيضا تمثالا نصفيا للكردينال ، وصورة صورا
جانبية محفوطة بمتحف الفنون القومية بلندن . وقد أتاه ميله المتعاطف لتصوير
الأشخاص بزبائن من نصف زمراء فرنسا في الجيل الذي تلا ريشليو ،
كما زاران وتورين وكولبير ولرسييه . . . وكان قبل قدومه إلى فرنسا
قد صور جانسن واعتنق الجانسنية ، وأحب البور — رويال ورسم صورا
للأم انجليك وروبير آرنو وسان — سيران . ورسم للبور — رويال أروع
صوره « الراهبات » باللوفر ، وترى فيها الأم آييس مكتتبة ولكنها لطيفة ،
ومعها سوزان ابنة المصور الراهبة . وكان مجال شامبين محدودا ، ولكن
فته يذفي قلوبنا بما فيه من وجدان واخلاص .

أما أوستاش لوسويير فكان متدينا كصاحبه ولكنه أكثر سنية في
إيمانه ، مما جعله قلقا في جيل سيطر على التصوير فيه منافسه لبرون ،
وتسلطت على هذا الفن فيه أساطير وثنية كرسست لتأليه ملك لم يكن قد تاب
إلى تقواه بعد . وقد درس المصوران (لوسيير ولبرون) معا على فويه ،
ورمما مما في قبو واحد ، واستخدما نفس النموذج ، وأثنى عليهما على
السواء بوسان في زيارته لباريس . وتبع لبرون بوسان إلى روما وتشرب
الروح الكلاسيكية . أما لوسويير فلزم باريس مربوطا بزوجة مخصبة ولم
يستطع الفكك من الفقر إلا نادرا . وحوالي ١٦٤٤ رسم خمس صور تصف
حوادث في حياة إله الحب لسقف « حجرة الحب » في قصر ولي نعمته لامبير
دوريني ، وفي حجرة أخرى من حجرات قصر لامبير هذا نفذ رسميا جصيا
كبيرا يسمى « فيتون يطلب أن يقود مركبة الشمس » . وفي ١٦٤٥ تورط
لوسويير في مبارزة قتل فيها خصمه ثم اختبأ في دير للكارتوزيين ، وهناك
رسم اثنتين وعشرين صورة من حياة القديس يرولو مؤسس الطريقة

الكارتوزية ، وفي هذه الصور بلغ الفنان أوجهه . وفي ١٧٧٦ اشترت هذه السلسلة من الرهبان الكارتوريين بمبلغ ١٣٢٠٠٠ جنيه فرنسي ، وهي اليوم تشغل غرفة خاصة باللوفر . ولما عاد لبرون من إيطاليا (١٦٤٧) اكتسح أمامه كل شيء ، وانتكس لوسوير إلى فقره ، ثم مات في ١٦٥٥ ولما يجاوز الثامنة والثلاثين .

أما شارل لبرون فقد تسلط على الفنون في باريس وفرساي ، لأنه أوتي قدرة التنسيق والإدارة كما أوتي قدرة التصور والتنفيذ . وإذ كان ابن نحات له أصدقاء من المصورين ، فقد شب في بيئة تعلم فيها الرسم كما يتعلم غيره من الأطفال الكتابة . ورسم في الخامسة عشرة . وغينه لا تغفل عن ترقب فرصته الكبرى . صورة رمزية لحياة ريشليو ونجاحه ، والتقط الوزير الطعم ، فسكفه يرسم موضوعات أسطورية لقصر الكردينال . وحين أخذه بوسان إلى روما أغرق نفسه في أساطير وزخارف رفايل ، وجوليو رومانو ، وبييترو دا كورتونا . فلما عاد إلى باريس كان أسلوب الزخرفة المترفة المنمقة الذي انتهجه قد اكتمل نضجه . وهنا أيضا كان فوكيه أسبق من لويس في استخدامه لبرون ليصور في قصره بفو . وقد استهوت مازاران وكولبير والملك براءة ما أنتج من صور جمسية ، وذلك الجمال الشهواني الذي اتسمت به أجساد النساء والتفاصيل الغنية من كرايش ومصبوبات . ولم يأت عام ١٦٦٠ حتى كان لبرون يرسم صورا جمسية من حياة الأسكندر للقصر الملكي بفونتينبلو . وقد أبهج لويس أن يتبين ملامحه تحت خوذة الأسكندر ، فكان يأتي كل يوم ليراقب الفنان وهو يرسم معركة أربل ، وأسرة دارا عند قدمي الأسكندر . وكلتا الصورتين في اللوفر . وكافأه الملك بلوحة ملكية مرصعة بالماس ، وجعله مصوره الأول ، وأجرى عليه معاشا بلغ ١٢٠٠٠ جنيه في العام .

ولم تقتل لبرون همة . ففي ١٦٦١ دمرت النيران قاعة اللوفر الوسطى ، فصمم ترميمها ، وصور السقف والكرائش بمناظر من أساطير أبولو ،

ومن هنا الاسم الذى اطلق عليها « قاعة أبولو ». وخلال ذلك درس الفنان الطموح العمارة والنحت وأشغال المعادن والخشب ورسم النسيج ومختلف الفنون التى جندت الآن لتزيين قصور العظماء . وانصهرت هذه الفنون جميعها فى مهاراته المتنوعة حتى لقد بدا أن الحظ أعده ليجمع فنانى فرنسا فى جهد موحد لينتجوا طراز لويس الرابع عشر .

وقد أطلق لويس يده ومنحه ما شاء من مال ليزين فرساي ، حتى قبل أن يعينه مديراً لأكاديمية الفنون الجميلة . وهناك عمل بجهد طوال سبعة عشر عاماً (١٦٦٤ — ٨١) فنسق الأعمال الفنية ، وصمم « سلم السفير » ، ورسم بنفسه فى قاعات الحرب والسلام ، وفى القاعة الكبرى ، سبماً وعشرين صورة جصية تصف أمجاد الملك منذ صلح البرانس (١٦٥٩) حتى معاهدة نيميجن (١٦٧٩) . وقد أظهر لويس فى الحرب والسلم وسط حشد من الأرباب والربات ، والسحب والأنهار ، والحيل والمركبات ، يقذف الصواعق ، ويعبر الرين ، ويحاصر غنت ، ولكنه إلى ذلك يجرى العدالة ويصرف شئون المال ، يطعم الفقراء فى المجاعة ، وينشئ المستشفيات ، ويشجع الفن . ولو أننا أخذنا هذه الصور فرادى لما عدناها من الروائع ، فأساسها الكلاسيكى طنى عليه سيل من الرخارف الباروكية ، ولسكننا إذا أخذناها فى حلتها وجدناها تؤلف أروع عمل قام به الرسامون الفرنسيون فى هذا العصر . وينغطينا تمجيده للملك لأنه يكشف فيه عن داء الغرور ، ولكن تعلق الأمراء والملوك على هذا النحو كان سنة العصر . لا عجب إذن أن يقول لويس لمصوره وهو يرى بعض صوره بجوار أخرى رسمها فيرونيى وبوسان « ان أعمالك تثبت للمقارنة بأعمال كبار الفنانين ، ولا ينقصها إلا موت صاحبها لكي يقدرها الناس أكثر مما يتقدرونها الآن ، ولكننا نرجو ألا انتاح لها هذه الميزة سريماً (١٤) » . وقد ساند الملك خلال جميع المكائد التى أحدثت به من حساده بعد قليل ، كما ساند موليير الذى ضايقه خصومه . ولم يكن غريباً

على طبع لويس - إذ نعى إليه أثناء حضوره إجتماعاً أدارياً أن لبرون نجاه ليريه آخر صوره « رفع الصليب » (١٥) - أن يستأذن الحاضرين ليذهب ويرى الصورة ويعرب عن سروره، ثم يدعو كل المجتمعين ليأتوا ويشاركوه في مشاهدتها (١٦). وهكذا سارت الحكومة والفن في هذا العهد جنباً إلى جنب، وشارك الفنانون القواد العسكريين مكافآتهم ومدائحهم.

كانت صنعة لبرون شيئاً جديداً وإن انبثقت من الزخرفة الإيطالية. لقد كانت مزيجاً زخرفياً جمع فنونا عديدة ليؤلف منها كلا جمالياً واحداً. فلما حاول أن يجرب تصوير لوحات فردية انزاق إلى مرتبة وسط. وإذا استعالت انتصارات الملك إلى هزائم، وأخلت محظياته مكانهن للكهان، تغير مزاج العهد ولم يعد لـ زخارف لبرون البهيجة محل. ولما خلف لوفوا كولبير مشرفاً على العمائر فقد لبرون دوره زعيماً للفنون، وإن ظل رئيساً للأكاديمية. ومات في ١٦٩٠ رملاً لمجد ولّى.

واغتنب فنانون كثيرون بتحررهم من سيطرته، ومن هؤلاء على الأخص بيير منيار الذي ساءت هذه السيطرة. وإذا كان يسكب لبرون بتسع سنوات فقد سبقه في الحج إلى روما بلوحة الوانه، وتعلق قلبه بالمدينة الخالدة كما تعلق بها بوسان، حتى لقد استقر رأيه على العيش فيها طوال حياته. وقد عاش فيها فعلاً اثنتين وعشرين سنة (١٦٣٥ - ٥٧) واغتنب زبائنه باللوحات التي رسمها لهم اغتباطاً محل في النهاية البابا أنوسانت العاشر، الذي ربما ساءه الوجه الذي خلعه عليه فيلاسكوز من قبل، على أن يجلس إلى منيار الذي أضفى عليه طلمة ألطف. وفي ١٦٤٦، حين بلغ منيار الرابعة والثلاثين، تزوج حسناً إيطالية، ولكنه ما إن سكن إلى الأبوة الشرعية حتى تلقى دعوة من فرنسا ليذهب ويخدم الملك، فذهب على مضض. وفي باريس تمرد على قبول التوجيهات من لبرون، ورفض الانضمام إلى الأكاديمية، وحز في نفسه أن يرى زميله الأصغر يحسد الأنواط والأموال. وأوصى

مولير كولبيره ، ولكن لعل الوزير أنصف في إثارة لبرون ، فما كان منيار ليرضى أن يرتفع إلى مستوى الفخامة المتكلفة التي تطلبها القرن العظيم . على أية حال ، كان لويس الذي بلغ العشرين آنئذ في حاجة إلى صورة فائقة له يغوى بها عروسا من أسبانيا . وارتضى منيار أن يرسمها ، وافتتن لويس وماريا تريزا بها ، وغدا منيار أن يجمع رسام الأشخاص في هذا العهد . فرسم لوحات لمعاصريه الواحد تلو الآخر : مازاران ، وكولبير ، ورتز ، وديسكارت ، ولافونتين ، ومولير ، ورأسين ، وبوسويه ، وتورين ، ونيون دلانكلو ، ولويز دلافالير ، والسيدات مونتسبان ، وماتنن ، ولافايت ، وسفيليه . وقد أنصف يدي آن المساوية اللتين عدما الناس أهل الأيدي في العالم ، فكافأته بمهمة تزيين قبو القبة في كنيسة فال — دجراس ، وكان هذا الرسم الجصى رائحته الكبرى التي أشاد بها مولير في إحدى قصائده . وقد صور الملك غير مرة ، وأشهر صورته المروضة في فرساي والتي يرى فيها راكبا جواده ، ولكننا نجده هناك على أروعه في اللوحة البديعة المسماة « دوقة مين في طفولتها » . وبعد موت كولبير انتصر منيار في النهاية على لبرون ، خلف غريمه مصورا للقصر في ١٦٩٠ ، وعين عضوا في الأكاديمية بمرسوم ملكي ، وبعد خمس سنوات مات في الخامسة والتماين وهو لا يفتأ يرسم وبناضل .

وجاهد رهنط من المصورين غير من ذكرنا في خدمة الملك الذي استوعب الفنانين جميعا . فشارل دوفرينوا ، وسبستيان بوردون ، ونوبل كوابيل وابنه أنطوان ، وجان فرانسوا دتروا ، وجان جوفنيه ، وجان باتيست ساتير ، والكساندر فرنسوا ديبورت — هؤلاء كلهم يلتمسون أن يسلكوا في زمرة الحاضرين هذه الوليمة للملكية . وهناك فنانان آخران يبرزان بقوة في نهاية العهد — وأولهما نيكولا دلارجليير الذي خلف منيار مصورا أثيرا للأرستقراطية لا في فرنسا وحدها بل في إنجلترا أيضا بعض الوقت

(١٧٧٤ - ٧٨) . وقد اكتسب حب لبرون باللوحة الرائعة التي رسمها له والمعروضة الآن في اللوفر . وألوانه الرمزية ولمسته الخفيفة تبين الانتقال من اضمحلال لويس الرابع عشر المعتم إلى عصر آخر مرح ، هو عصر الوصاية والفنان فاتو .

أما الثاني وهو ياسينت ريجو ، فكان أصلب عودا . وقد كسب هو أيضا قوته برسم الأشخاص (أنظر صورته البديعة لبوسويه في اللوفر) ، ولكنه لم يسكبه بالتملق . ومع أن صورته التي اظهر فيها لويس الرابع شاعنا مسيطرا ، والتي ترتفع في مؤخرة قاعة اللوفر الكبرى ، تبدو من بعيد وكأنها إشادة بالملك ، فإننا نلاحظ إذا تأملناها عن كثب ملامح الملك جامدة منتفخة ، وهو واقف على قمة سلطته وعلى حافة قدره (١٧٠١) . وكانت أغلى صور العصر ثمننا كما أنها أفضلها عرضا ، فقد نقد لويس ريجو فيها ٤٠٠٠٠ فرنك (١٠٠٠٠٠ دولار ؟) - وربما كان هذا الأجر معادلا لما دفعه لويس ثمننا للشباب الرائعة التي زينتنا هنا انحلاله .

٥ - النحت

كان المثالون أقل حظوة وثوبا في هذا العهد من المصورين . ومع ذلك فالمنحوتات المرمرية القديمة هي التي اشتهى لبرون أن تصاغ على غرارها جميع الفنون . وقد أنفقت الأموال الطائلة وسخرت اللواهب الكثيرة في شراء أو نسخ التماثيل التي بقيت على قيد الحياة بعد انهيار العالم القديم . ولم يقنع لويس بالنسخ طبعا . وإذا كان يذكر حداائق سالوست وهادريان الرومانية ، فقد استخدم لفيثا من المثالين الأكفاء لينفخوا بتماثيلهم الحياة في بستان فرساي . وأقيمت التهريرات الضخمة كزهرة الحرب التي صنعها كوازييفوكس في حوض ببتيون ، وعلى شرفة القصر ، ونحت الشقيقتان جاسبار وبلتازار دمارسي « حوض باخوس » العظيم ، وأبرز جان باتست .

من البحيرة تمثاله الرائع « مركبة أبولو » والإله الشمس فيه يرمز للملك ، ونحت فرنسرا جيراردون في الحجر من « الحوريات المستجمعات » ما لم يكن براكستليس ذاته ليأنف من نسبته إليه .

وتطلع جيراردون قرناً إلى الخلف ليرى كيف صور بريماتاشو وجوجون جسد الآتى في صورة كاملة . وعاد إليه ذلك الحسن الانسيابي الذى اتسم به الفن الهيلينى ، ربما فى إسراف ، ومهما بحثنا وفقشنا فإننا لم نجد إلى الآن إنانا كاملات الأجساد كأولئك اللاتى نجدهن فى تمثالى « اغتصاب بروزيبرين » (١٧) . ولكنه كان قادراً على التعبير عن حالات نفسية أقوى من هذه . وقد صنع لميدان فاندوم تمثالاً للويس الرابع عشر محفوظاً الآن فى اللوفر ، ونحت لكنيسة السوربون مقبرة نخمة لريشليو . وقد أحبه لبرون لأنه تجاوب فى لطف مع ذوق الأكاديمية وأهدافها . وخلف لبرون كبيراً لمثالى الملك ، ورأس الأكاديمية بعد وفاة منيار . ومع أنه ولد قبل لويس بعشرة أعوام إلا أنه عمر بعده شهوراً ، ومات فى ١٧١٥ وهو فى السابعة والثمانين .

أما أنطوان كوازيغوكس فكان إنساناً أرق من اسمه ، محبباً إلى الناس كتمثاله « دوقة برجندية » . ولد بليون ، وكان ينحت لنفسه مكاناً بين المثاليين حين دعاه لبرون ليساعد فى زخرفة فرساي . وقد بدأ بصنع نسخ أو مقتبسات رائعة من التماثيل القديمة . فنحت عن تمثال رخامى قديم فى فيللا بورجيزى « حورية المحارة » ، وعن تمثال فى قصر مديتشى بفلورنسة نقل « فيندوس الجامعة » وكلا التمثالين محفوظ فى مستودع الفن المحفوظ الذى نسميه اللوفر . وما زال فى مكانه بفرساي تمثاله « كاستور وبولكس » الذى نقله عن مجموعة بمحذائق لودوفيزى بروما . وما لبث أن ألتج أعمالاً أصيلة فيها قوة لا يستهان بها . فنحت لبستان فرساي تمثال كبيرة تمثل نهري الجارون والدوردون ، ولساحة قصر مارلى رمزين شبيهين بهذين لنهري السين وللمارن .

وفي حدائق التويلزي اليوم أربعة تماثيل رخامية نحتها لمارلى ، وهى فلورا (ربة الزهر) — والشهرة ، وهورية الغابات ، وعطارد راكباً بيجاسوس . وقد خرج من تحت إزميله الكثير من الزخارف للنحت فى حجرات فرساي الكبرى .

وظل يسكدح فى فرساي ثمانية أعوام ، وقضى خمسة وخمسين عاماً فى خدمة الملك . فنحت له اثني عشر تمثالاً ، أشهرها تمثاله النصفى فى فرساي ، وأصبح فى النحت ما كان منياراً فى التصوير — أحب نحاتى الوجوه إلى الناس فى فرنسا . وبدلاً من أن يتشاجر مع منافسيه نحتهم فى الرخام أو صلبهم فى البرونز ، فوفر عليهم غرورهم ونقودهم . وحين تلقى ١٥٠٠ جنيه أجراً لتمثال النصفى الذى صنعه لسكولير ، رأى الأجر مغالى فيه فرد منه سبعمائة جنيه (١٨) . وقد ترك لنا تماثيل كاملة الشبه بلبرون ، ولنوتر ، وآرنو ، وفوبان ، ومازارن ، وبوسويه ، وترك لنفسه ترجمة بسيطة لوجه أمين أشعث مضطرب (١٩) ، ولكونديه العظيم تمثالين نصفين أحدهما فى اللوفر ، والآخر فى شانتى ، يتميزان بصدق وفحولة لامراء فيهما . ثم نحت بأسلوب مختلف تماماً تمثالاً رقيقاً لدوقة برجندية فى صورة ديانا (٢٠) ، والتمثال النصفى الجميل لنفس الأميرة فى فرساي . وصمم مقابر رائعة لمازاران (٢١) وكولبير ، وفوبان ، ولبرون . ولأعماله ملمس الروح الباروكية فى عاطفيتها للمرحية ومبالغتها العارضة ، ولكنها فى أحسن صورها تعبيراً حسناً عن المثل الكلاسيكى الذى استهدفه الملك والبلاط ، فهى راسين متمثلة فى الرخام والبرونز .

وحوله وحول جيراردون تجمع سباعى من المثالين ، فرسوا انجيهيه . وأخوه ميشيل ، وفليب كوفيه وابنه فرانسوا ، ومارتان ديجاردان . وبير لجرو ، وجيوم كوستو ، الذى مازالت « خيل مارلى » التى نحتها تشب فى الهواء بميدان الكونسكورد .

وفضلا عن هؤلاء المثالين جميعا ، وعلى مبعدة منهم ، وفي تمجد لثالية
النحت الرسمى النامة ، أنطق بيير بوجيه إزميله بغضب فرنسا وبؤسها . وقد
ولد في مارسيليا (١٦٢٢) وبدأ حياته الفنية حفارا في الخشب ، ولكن
نفسه تافت كما تافت نفس معبوده ميكلانجلو من قبل لأن يصبح في وقت
واحد مصورا ومثالا ومعماريا . وقد أحس أن الفنان العظيم ينبغي أن يسيطر
على هذه الفنون جميعا . وإذا كان يحلم بأفذاذ الفنانين الإيطاليين فقد سار
من مرسيليا إلى جنوة إلى فلورنسة إلى روما . وتلمذ في حماسة لبينيترودا
كورتونا في زخرفة قصر بارباريني ، وتشرب كل صدى وأثر لبوناروتى ،
وحسد برنيني على شهرته المتعددة الجوانب . فلما عاد إلى جنوة نحت تمثال
القديس سبستيان الذى أذاع اسمه لأول مرة ، فكلفه فوكيه ، الذى سبق
لويس الرابع عشر في تبين مواهب هذا الفنان أيضا ، بأن ينحت تمثال
« هرقل (٢٢) » لقصر فو ، ولكن فوكيه سقط ، فهرع بيير إلى الجنوب
ليمتكف في فقره ويحتر همومه . ولما كلف بنحت مجموعة « أطلانطيس »
— وهى تماثيل رخامية لأطلس ، ليحمل بها شرفة « الأوتيل دفييل » ، صاغ
التمائيل على غرار الجمالين السكادحين فى أروضة الشجن ، وكان ينطق عضلاتهم
للكدودة ووجوههم التى شوهها الألم بصرخة الثورة — ثورة الملحنين
الذين يحملون العالم على أكتافهم . ولكن فنا كهذا ما كان ليمجب
فرساي .

ومع ذلك فإن كولبير الذى فتح ذراعيه للمواهب طلب إليه أن ينحت
تماثيل يؤثر أن تكون ذات مسحة أسطورية بريئة . فأرسل إليه بوجيه
ثلاث قطع محفوظه الآن بالوفر : نحتا قليل الغور لطيفا يمثل الإسكندر
وديوجين ، وتمثالا فيه جهد وإسراف لبيرسيوس وأندروميديا ، وتمثالا
عنيقا لميلو كورتونا — ذلك النباقي الجبار يحاول التخلص من فكى أسد
عنيد ومخالبه .

وفي ١٦٨٨ زار بوجيه باريس ، ولكنه وجد طبعه المتكبر وإزميله الغضوب يتنافران مع ظرف البلاط وفنه ، فقل راجعا إلى مرسيليا ، وهناك صمم تمثال « المبرة » و « سوق السمك » — ولا عجب في فرنسا حتى سوق السمك يمكن أن يكون عملا فنيا . ولعل أعظم تمثيله قصدا به أن يكون تعليقا على مغامرات الملك الحربية ، وهو تمثال الإسكندر راكبا يبدو فيه وسما مشرقا ، يحمل خنجره في يده ، ويدوس ضحايا الحرب (٢٣) في غير اكتراث تحت سنابك جواده . وقد أفلت بوجيه من رسمية لبرون وفرساي ، ولكنه أفلت أيضا من انضباطهما . وافضى به طموحه لمنافسة برانيي ، وحتى ميكلانجلو ، إلى مبالغات في تصوير عضلات الجسد وتعبيرات الوجه ، ومن ذلك « رأس ميدوزا » الرهيب المحفوظ بالووفر . ولكنه كان على الجملة أقوى نحات في وطنه وفي جيله .

وإذ قارب العهد العظيم نهايته ، وجرت الهزائم فرنسا إلى حال من اليأس الشديد ، انصرفت كبرياء الملك إلى التقوى ، وانتقل الفن من خور فرساي إلى التواضع الذي يطالعنا في تمثال كوازفوكس لويس الرابع عشر راكبا في النوتردام — هنا نرى الملك وقد بلغ السابعة والسبعين ، مزهوا إلى الآن بأثوابه الملكية ، ولكنه يضع تاجه في تواضع عند قدمي المذراء . في هذه السنوات الأخيرة تقلص الإنفاق على فرساي ومارلي ، ولكن خورس النوتردام رمم وجميل . أما عبادة الفن القديم فقد فسدت نتيجة لشططها ، وبدأ الطبيعي يجهز على الكلاسيكي ، وقضى على دفعة الفن الوثنية إلغاء مرسوم نات . وتسلط مدام دمانتون وتاييه على الملك . وشددت الموضوعات الزخرفية الجديدة على الدين لا على الجسد ، فلقد عرف لويس ربه أخيرا .

إن تاريخ الفن أبان حكم الملك العظيم يعذبنا بأسئلة عويصة . فهل كان تأميم الفنون نعمة أو نقمة ؟ وهل حول تأثير كولبير ولبرون والملك تطور

فرنسا من الاتجاه الأصيل والطبيعى ، إلى محاكاة موهنة لفن هلنستى حل به الضعف ، محاكاة شوشها إسراف باروكى فى الزخرفة ؟ وهل تثبت هذه السنوات الأربعون من « طراز لويس الرابع عشر » أن الفن يزداد ازدهارا فى ظل ملكية ترعاه بالثروة المركزة ، وتوجه المواهب فى وحدة متسقة ؟ — أم فى ظل ارسـةقراطية تصون ، وتوصل ، وتعـدل فى حذر ، معاير الجودة والذوق ، وأصول النظام والانضباط ؟ — أم فى ظل ديمقراطية تفتح الطريق أمام كل موهبة وتطلق الكفايات من ربة التقاليد ، وتلزم الفن بأن يعرض إنتاجه على الشعب ويكيفه وفق رأيه ؟ وهل كان ممكنا أن تغدو إيطاليا وفرنسا الوطنين المحظوظين للفن والجمال اليوم لولا أنهما جمـلتا بأموال وأذواق الكنيسة والنبل والملوك ؟ وهل كان ممكنا أن يوجد فن عظيم دون تركيز الثروة ؟

إن الجواب المتواضع المقيد عن هذه الأسئلة يقتضى حكمة طالية ، وأى جواب من هذا القبيل لابد أن يجعله التفريقات والشكوك جوابا ضامضا غير حاسم . ولعل الفن فقد شيئا فى طبيعته ومبادرته ونشاطه نتيجة لما بسطته عليه القوة المركزية من حماية وتوجيه وهيمنة . صحيح أن فن لويس الرابع عشر كان فنا منظما ، أكاديميا ، جليلا بهائه المنسق ، لا يفوقه فن فى صقله الفني ، ولكن السلطة عطلت قدرته على الابتكار ، وقد قصر دون ذلك الالتحام بالشعب الذى أضى الهدف والعمق على الفن القوطى . لقد كان آساق الغنون فى عهد لويس رائعا ، ولكنه كثيرا ما كان يعزف على نفس الوتر ، حتى لقد أصبح فى النهاية تعبيرا لآعن جيل وأمة ، بل عن ذات وبلاط . صحيح أن الثروة لاغنى عنها للفن المنظم ، ولكن الثروة تكون عارا ، والفن يكون بغيضا ، إذا ازدهرا على حساب فقر شامل واعتقاد بالخرافات مذل ، فالجيل لا يمكن فصله طويلا عن الخبر . وقد تكون الارسةقراطية حارسا وناقلا مفيدا للمعادن والمعاير والأذواق

إذا تيسرت الأسباب ففتحها أمام المواهب الجديدة، ولمنعها من أن تكون أداة للامتياز الطبقي وللترف الكاذب . كذلك تستطيع الديمقراطيات أن تجمع الثروة وتضفي عليها الكرامة بتغذيتها للمعرفة والآداب والبر والفن ، ومشكلات الديمقراطيات في معاداة الحرية غير الناضجة للنظام والانضباط ، وفي نمو الذوق نموا بطيئاً في المجتمعات الناشئة ، وفي ميل الكفاليات غير المحكومة لأن تبدد نفسها في تجارب شاذة تخطيء الابتكار فتحسبه عبقرية ، والطرافة فتحسبها جمالا .

على أية حال كان رأى استقرائيات أوروبا في صف الفن الفرنسى دون ما تردد . فانتشر معمار القصور والنحت الكلاسيكى والأسلوب الأدبى والزخرفة الباروكية اللآث والثياب — انتشر هذا كله من فرنسا إلى كل طبقة حاكمة تقريباً في غرب أوروبا حتى إلى إيطاليا وأسبانيا . وتطلعت قصور لندن وبروكسل وكولون ومينن ودرسدن وبرلين وكاسل وهيدلبرج وتورين ومدريد إلى فرساي مثلاً تحتذيه في السلوك والفن . وكلف المعمارىون الفرنسيون بتصميم القصور حتى مورافيا شرقاً ، وصمم لنوتر الحداثق في وندزور وكاسل ، ووفد رن وغيره من المعمارىين الأجانب على باريس لينتقوا عنها الأفكار ، وانبث النحاتون الفرنسيون في جميع أرجاء أوروبا ، حتى أصبح لكل أمير تقريباً تمثال راكب كتمثال ملك فرنسا . وظهرت قصص لبرون الرمزية الأسطورية في السويد ، والدمرك ، وأسبانيا ، وهامتن كورت . والتمس الملوك الأجانب أن يجلسوا إلى ريجو ليصورهم فإن لم يتيسر فإلى أحد تلاميذه . وأوصى حاكم سويدى بقطع من نسيج بوفيه المرسوم تخليداً لانتصاراته . إن التاريخ لم يشهد منذ انتشار الثقافة اللاتينية القديمة في غرب أوربا غزواً ثقافياً أنجز بمثل هذه السرعة وهذا السكال .

الفصل الرابع

موليير

١٦٢٢ - ٧٣

١ - المسرح الفرنسي

بقى الآن أن نخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوربا لسلطانهما .

ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسى فى هذا العصر إلى المسرح ، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التى ظلت الكنيسة تحرمها طويلا ، وأن يستورد الكردينال مازارن الملهاء الإيطالية إلى فرنسا ، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين الكاهنين اللذين مهدا لسلطته أو حفظاها .

كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبى فى إيطاليا برعاية بابوات النهضة الرفيعة الثقافة ، وكان ليو العاشر يحضر التمثيلات دون أن يطالب بأن تكون صالحة للمعذرى . ولكن الإصلاح البروتستانتى وجمع ترنت المتترقب عليه وضعا حدا لهذا التساهل السكئسى . وقال بنديكت الرابع عشر إن المسرحية لم يستمر السماح بها فى إيطاليا إلا درءا لشرور أفدح ، وفى أسبانيا إلا لأنها تستخدم الكنيسة . وأما فى فرنسا فإن رجال الأكليروس ، اللذين صدمتهم الحرية الجنسية التى تمتع بها المسرح الهزلى ، نددوا بالمسرح عدواً للأداب العامة . وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بحكم طبيعة الحالة ، أى بحكم مهنتهم ذاتها ، وأنكر عليهم قساوسة باريس ، اللذين عبر عنهم صوت بوسويه الأمر ، حق تناول الأسرار أو الدفن فى أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلموا عن مهنتهم . وإذ حرموا من مراسم

سر الزواج يقوم بها كاهن ، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرقية بالغة الفلق وعدم الاستقرار ، كذلك وسم القانون الفرنسى الممثلين وأقصاهم عن كل وظيفة شريفة ، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية .

ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة . ذلك أن المطلب الشعبى للنظام والاداء تخففا وثأراً من الواقع ألحج العدد العديد من الهزليات والملاهى ، وكان للآلام التى فرضها على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة الفضل فى إقبال جمهور سخي العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام . ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رطية أفضل للمسرحيات لا رفضها كلها ، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام ، والعيش للفرق المسرحية المهذبة . وليلاحظ القارئ تقرير فولتير الآتى : « منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثيلات فى البلاط ، الأمر الذى جعل باريس الآن منافسة لآيننا ، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التى تضم نفرا من القساوسة ، بل خصص مقعد آخر للأساقفة (١) » . وفى ١٦٤١ ، ربما بناء على طلب الكردينال ، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين ، وأجرى عليهم معاشا قدره ألف ومائتا جنيه فى العام ، وأصدر مرسوما يعترف بالمسرح لونا مباحاً من ألوان الترفيه ، وأعرب عن رغبة الملك فى ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه فى المجتمع (٢) . وأقامت الفرقة مسرحها فى « الأوتيل دبورجون » ، وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية ، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها فى أخراج المآسى .

ورغبة فى رفع مستوى الملهاة الفرنسية ، دعا مازاران نفرا من الممثلين الإيطاليين إلى باريس ، ومنهم تيبيريو فيوريللى ، الذى أصبح أثيراً لدى باريس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار « سكاراموتشا » . ولعله هو

وزملاؤه شاركوا في بحث حمى المسرح في أوصال جان بوكلان الرابع ،
وفي تعليمه فنون المسرح الهزلى (٣) . فلما طاد «سكاراموش» إلى إيطاليا —
(١٦٥٩) أصبح جان بوكلان ٠ الذى عرفه المسرح والعالم باسم موليير ،
الممثل الهزلى الأول للملك ، وبعدها بقليل — فى رأى بوالو المولع به —
أكبر كتاب العصر .

٢ - تلمذته

على المبنى رقم ٩٦ بشارع سانت — أونوريه كتابة بحروف من ذهب .
هذا نصها : —

شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذى ولد فيه موليير

فى ١٥ يناير ، ١٦٣٢

وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث — منجد الأثاث والمزخرف .
وكانت زوجته ماري كريسيه قد أتته بمهر قدره ٢٢٠٠ جنيه ، وأنجبت له
سبعة أطفال ، ثم ماتت بعد زواجهم بعشر سنوات ، ولم يكن طفلها الأول —
جان باتست بوكلان الرابع — يتذكرها فى وضوح ، ولم يذكرها قط فى
تمثيلياته . وتزوج الأب ثاينة (١٦٣٣) ولكن زوجة الأب ماتت فى ١٦٣٧ ،
فكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده ، وبوجه تعليمه ، ويفكر فى
تشكيل مجرى حياته ٠ وفى ١٦٣١ أصبح جان بوكلان الثالث « المشرف
على تنجيد أثاث حجرة الملك » ومنح امتياز إعداد السريير الملكى والسكنى
فى البيت الملكى ، لقاء راتب سنوى قدره ثلثمائة جنيه ، وهو مبلغ متواضع ،
ولكنه لم يلزم الحضور فى أى طام أكثر من ثلاثة أشهر . وكان الأب قد
اشترى الوظيفة من أخيه ، وأراد أن يورثها ابنه ٠ وفى ١٦٣٧ أقر لويس .

الرابع عشر حق جان بوكلان الرابع في وراثة الوظيفة ؛ ولو أن تطلعات الأب
تتحقق لعرف التاريخ مولير — إن عرفه إطلاقاً — بأنه الرجل الذي كان
يعد سرير الملك . على أن جداً للصبي أولع بالمرح ، فكان يصطحبه إلى
حفلات التمثيل بين الحين والحين .

وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك ، أرسل إلى كلية اليسوعيين في
كليرمون ، وكانت الأم الحانية على المهرطقين . وهناك تعلم الكثير من
اللاتينية ، وقرأ تيرنس وأفاد منه ، ولا شك أنه اهتم ، وربما شارك ، في
المسرحيات التي عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب
والكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليماً عن الفيلسوف جاسندي
الذي كان قد عين معلماً خاصاً لزميل في فصل جان . على أية حال تعلم جان
الكثير عن أبيقور ، وترجم شطراً كبيراً من ملحمة لوكريتيوس الأبيقورية
De rerum natura (وبعض سطور مسرحيته « مبغض البشر »^(٤)) . تسكاد
تكون ترجمة لفقرة في لوكريتيوس^(٥) . والراجح أن جان فقد إيمانه
قبل أن يختتم صباه^(٦) .

وبعد أن قضى خمس سنين في الكلية درس القانون ، ويبدو أنه مارسه
حقبة قصيرة في المحاكم . ثم اتخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (١٦٤٢) . وفي
ذلك العام التقى بمادلين بيجار ، وكانت وقتها سيدة مرحة في الرابعة والعشرين .
وقبل ذلك بخمس سنين كانت خلية للسكوت دمودين ، الذي اعترف في
سماحة بالطفل الذي ولدته له ، وأذن لابنه في أن يقف عراباً له عند صماده .
وفتنت مادلين جان — وكان قد بلغ العشرين — وسحرتة بجمالها وطبعها
البشوش اللطيف . وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً . وقد حمله عشقها للمرح ،
مع عوامل أخرى ، على اتخاذ قرار بأن يولى لتنجيد الأثاث ظهره ، وأن
ينزل عن حقه في أن يخلف أباه مشرفاً على تنجيد حجرة الملك لقاء ٦٣٠ جنيتها ،
وأن يلتقي بنفسه في خضم التمثيل (١٦٤٣) . وذهب ليقم في بيت مادلين

بيجار^(٧) . ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين في تماقد رمى أنشأوا بمقتضاه « المسرح الشهير » (٣٠ يومية ١٦٤٣) . ويعتبر الكوميدي فرانسيز ذلك العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز . واتخذ جان الآن اسمًا مسرحيًا جريًا على عادة الممثلين ، فأصبح يسمى موليير .

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعبًا للتنس مسرحًا لها ، وقدمت مختلف التمثيليات ، ثم أفلس ، وفي ١٦٤٥ قبض على موليير ثلاث مرات بسبب الدين ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معطلا نفسه بأن الفتى قد برىء من حمى المسرح . ولسكن موليير أجاد تأليف « المسرح الشهير » وانطلق في جولة بالأقاليم . ومنح الدوق ديبيرون حاكم جيين الفرقة تأييده . وثقلت الفرقة في سلسلة مضنيه من النجاح والفشل بين ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وكاركاسون ، ونانت ، وآجن ، وجرينوبل ، وليون ، ومونبلييه ، وبوردو ، وبزييه ، وديجون ، وأفنيون ، وروان . وارتقى موليير حتى أصبح مديراً لها (١٦٥٠) ، ووفق بعشرات الخيل في أن يحفظ للفرقة قدرتها على إيفاء ديونها ويكفل لها طعامها . وفي ١٦٥٣ أعار الأمير ديكونتي ، زهيله المدرسى القديم ، اسمه للفرقة وقدم لها المعونة ، ربما لإعجاب سكرتيه بالممثلة الأنسة دوبارك . ولسكن الأمير أصابته نوبة شلل دبنى في ١٦٥٥ ، فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح ، ومالبت بعد ذلك أن تدد علانية بالمسرح . وبموليير بصفة خاصة ، مفسداً للشباب وعدوا للفضيلة والمسيحية .

ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة شيئاً فشيئاً بكفائتها ودخلها وذخيرتها من المسرحيات . وقلم موليير فن المسرح وحيله . فوافى عام ١٦٥٥ حتى كان يكتب التمثيليات كما يمثلها . وفي ١٦٥٨ آس في نفسه من القوة ما يكفي لتحصدي فرقتين احتلتا المسرح الباريسى ، فرقة ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، وفرقة خاصة تمثل فى مسرح ماريه . وحضر هو ومادلين بيجار

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق لفرقتها • وزار أباه ، وظفر بنفوس عن ذنوبه ومهنته • ثم أقنع فيليب الأول دوق أورليان بأن يبسط حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط •

وفي أكتوبر ١٦٥٨ مثلت « فرقة الميسو » هذه أمام الملك في قاعة الحرس بالوفر مأساة كورنى « نيكوميد » ، ومثل موليير الدور الرئيسى دون توفيق كبير ، لأنه كما يقول فولتير كان يعانى « من ضرب من الفواق لا يلائم البتة الأدوار الجادة ، ولكنه يعين على جعل تمثيله فى الملهاة أكثر إمتاعا » (٨) . وقد أنقذ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها ، ومثل بحموية ومرح ، وحاجب مرفوع وفم مثرثر جعل الجمهور يتساءل لم يمثل المأساة إطلاقا • وكان فى الملك من الصبى ماجعله يستمتع بهذا الهزل ، ومن الرجولة ماجعله يقدر شجاعة موليير • فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة الميسو فرقة سكاراموش الإيطالية فى قاعة البتى بوربون ، وهناك أيضا أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المأساى التى قهرروا فى أدائها دون ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، ووفقوا فى التمثيليات الهزلية ، لاسيما التى ألّفها موليير • ومع ذلك واصلوا إخراج المأساى • ذلك ان كبار الممثلات كن يشعرن بأنهن يتألقن أكثر فى الدراما الجادة ، ولم يكن • وليير نفسه راضيا قط بأن يكون كوميديا ، لأن صراعات الحياة وسخاقتها أورثته مسحة من الحزن ، وقد وجده أمرا فاجعا له أن يكون على الدوام مضحكا •

يضاف إلى هذا أنه سئم هزليات المسكائد الغرامية والشخصيات المبتذلة وكباش الفداء المألوفة ، وأكثرها أصداء لإيطاليا • وتلفت حوله فى باريس فرأى فيها أشياء لا تقل إضحكا عن بوليشينيل وسكاراموش • وروى عنه قوله « لم يعد بى حاجة إلى اتخاذ بلوأس وتيرأس أساتذة لفنى أو إلى السطو على ميناندر • فإلى أن أدرس هذه الدنيا » (٩) •

٣ - مولير ونساء المجتمع

مثال ذلك « الأوتيل دى امبويه » حيث كان الرجال والنساء يجدون الآداب الرقيقة والحديث المعطر . فكتب مولير تمثيلية « المتحذلقات المضحكات » . وكان إخراجها (١٨ نوفمبر ١٦٥٩) فاتحة ملهاة العادات الفرنسية وبداية لحظ مولير وشهرته . وكانت الملهاة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة ، وفيها من الحدة ما خلف لدعة طويلة الأيلا . استمع إلى ابنتي العم ، مادلون وكاتوس ، اللتين تلفهما سبعة أفنعة من التظرف ، تحتجان على تلف الكبار ، الواقعيين . المغلسين ، على تزويجهما .

جرجيوس : أى عيب تريان فيهما ؟

مادلون : يا لها من كياسة رائعة منها حقاً ماذا ، أبدأ فوراً بالزواج . . . لو كان الناس جميعاً مثلك لقضى للتو على الرومانس . . . إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى . فعلى العاشق إن أراد قبولاً أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهذبة ، وكيف يتأوه بالحديث الناعم ، الرقيق ، المشبوب ، ويجب أن يكون حديثه مطابقاً للقواعد . فعليه بأذى ذى بدء أن يرى فى الكنيسة أو فى الحديقة العامة أو فى حفل تام تلك التى يشغف بها حبا ، وإلا وجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق ، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئباً متأملاً . ثم يخفى عاطفته حيناً عن موضع حبه ، ولكنه يزورها مرات ، لا يعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريباً لمقول الجماعة كلها . . . ثم يأتي اليوم الذى يبوح فيه بحبه ، وينبغى أن يتم هذا حادثة فى عشى حديقة بينما الجماعة على بعد منها . وهذا التصريح نقابله طادة بالاستياء ، الذى يبدو فى احمرار وجوهنا ، والذى يقص العاشق عنا زمناً ، ثم يجد الوسيلة لمصالحتنا بعد حين ، ولتعويدها أن نسمع حديث غرامه دون أن نقاظم ، واستلال ذلك الاعتراف الذى يسبب لنا حرجاً شديداً .

ثم تتلو ذلك للغامرات : المزاحون الذين يحبطون ميلا رسخ ، واضطهادات الآباء ، والغيرة للنبعثة من المظاهر الكاذبة ، والشكاوى ، واليأس ، والحروب مع الحبيب ، وما يسفر عنه من عواقب . هكذا ينبغي أن تجري الأمور بأسلوب جميل ، وتلك هي القواعد التي لاغنى عنها للتودد المذهب الأنيق . أما الاندفاع رأسا إلى الرباط الزوجي ، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج ، والإمساك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها — فرة أخرى أقول لك يا أبا العزيز إنه ما من شيء أكثر آلية من تصرف كهذا ، ويجرد التفكير فيه يشعرني بالغثيان .

كانوس : أما أنا يا عماء فكل ما أستطيع أن أقوله هو أنني أرى الزواج شيئا مروعا جدا . فكيف أطيع فكرة الرقاد مع رجل عريان حقا (١٠) ؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتنكران كمركيـز وجنرال ، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من تطرف ومزاح . ويفاجئهما السيدان ، ويجردانهما من ملابسهما المزيفة ، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريبا . وفي هذه الملهة ، كما في جميع ملاهي مولير الجنسية ، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص ، ولكن فيها هجوا لا ذفا للحماقات الاجتماعية ، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدثا في تاريخ حادات المجتمع . وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وقعت وسط الجمهور وصاحت « تشجع ! تشجع ! هذه ملهة حسنة يا مولير » (١١) وروى أن واحدا من رواد صالون مدام درامبويه قال بعد خروجه من التمثيلية « بالأمس أعجبنا بكل السخافات التي نقدت نقدا رقيقا معقولا جدا ، ولكن علينا الآن — كما قال القديس ريمى اسكلوفيس — إن نحرق ماعبدنا ، ونعبد ما أحرقنا » (١٢) . وقابلت المركيزة درامبويه الهجوم بمهابة ، إذ اتفقت مع مولير على إحياء حفلة يخصص إيرادها لصالونها ، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم ينج صالونها بل مقلديه . على أية

حاله انتهى ملك « المتحذلقات » . وقد أشار بوالو في هجائيمه العاشرة إلى تلك « العقول الجميلة التي كانت بالأمس ذائعة الصيت ، والتي فرغها موليير بضربة واحدة من فنه » .

وقد نجحت المسرحية نجاحا ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح . وقد مثلت في حامها الأول أربعا وأربعين مرة ، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط ، حضرها جميعا ، ونفخ الفرقة بثلاثة آلاف جنيه . وما وافى فبراير ١٦٦٠ حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت ٩٩٩ جنيتها جمالة للمؤلف . ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجاءها ممثلي المسرح الملكي « فإما من إنسان قادر على أن يشهر شيئا إلا لم ، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأنهم يتحدثون . هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تملجلا ، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة . فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويخبرك بهذه الطريقة أن تصفق استحسانا (١٣) ؟ » .

وأعريت فرقة الأوتيل دبوربون عن احتقارها السافر لموليير لعجزه عن إخراج المأساة ، ولقدرته على الملمهة الرخيصة دون غيرها . وعزز موليير حججهم بتأليفه وعرضه مسلاة « فارص » متوسطة الجودة سماها « الديوث بالوهم » ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات .

وكانت التغييرات تجري خلال ذلك في مبنى اللوفر القديم ، فهدمت صالة البتي يوربون في استهتار ، ولاح حينئذ أن « فرقة الميسو » التي يرأسها موليير لن تجد لها مسرحا . ولكن الملك العطوف دائما بادر إلى إنقاذها بأن خصص له في الباليه — رويال « الصالة » التي خصصها ريشليو لعرض التمثيليات . وهناك ظلت فرقة موليير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط . وكان أول عرض له في هذا المأوى الجديد آخر محاولاته في المأساة ، وهي « دون جراسي » . وكان رأيه — وله فيه بعض المنذر —

أن أسلوب المأساة الخطابي الفخيم كما طوره كورنبي ، ومثلته فرقة الأوتيل-دبورجون ، أسلوب غير طبيعي ، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية . ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح (وفواقه) لجاز أن ينتج مزيجاً موفقاً من المأساة والمهابة كما فعل شيكسبير ، فإن في أعظم ملاحظيه والحق يقال مسحة من المأساة . ولكن « دون جراسي » سقطت ، برغم جهود المللك لدعها بحضور ثلاث حفلات ، لقد كان قدر موليير أن يكابد للمأساة لا أن يمثلها .

وعليه فقد عاد إلى المهابة . ولقيت « مدرسة الأزواج » نجاحاً طيب خاطره إذ عرضت يومياً من ٢٤ يونيو إلى ١١ سبتمبر ١٦٦١ . وقد أذنت بزواج موليير الوشيك ، وكان وقتها في التاسعة والثلاثين ، من أرماند بيجار ، ذات الثمانية عشر ربيعاً ، ومشكلة المسرحية هي : كيف ينبغي أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحة أمينة ؟ فالشقيقان أريست وسجاناريل محظوظان لكونهما الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست ، البالغ من العمر ستين عاماً ، فيعامل فئاته القاصر ليونور ، ذات الثمانية عشرة ، بغاية اللين :

« لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغرة على أنها جرائم . ولقد لبيت على الدوام رغباتها الشابة ، ولست والله الحمد آسفاً على ذلك . فقد أذنت لها بأن تخالط الأصحاب الطيبين ، وتشهد الملاهي ، والتمثيليات ، والمراقص ، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب ، وما الدنيا إلا مدرسة أحسبها تعلم طريقة العيش خيراً من أي كتاب . إنها تحب أن تنفق المال على الثياب ، والقمصان ، والأزياء الجديدة . . وأنا أحاول أن أشبع رغباتها ، فهذه لذات ينبغي أن نقيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن (١٤) » .

وأما الأخ الأصغر سجاناريل فيحتقر أريست لأنه إنسان أحق ضلّته أحدث الأوهام . وهو يأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق .

الجديدة ، وعلى وقاحة الشباب المتحرر . وهو بنوى أن يأخذ فئاته القاصر
إيزابيل بنظام صارم ليروضها على أن تكون زوجته مطيعة :

« لا بد أن ترتدى الملابس اللائقة . . . فإذا ثومت بيتها كما تلزمه للمرأة
العاقلة انصرفت بجمعها إلى شئون الزوجية ، فترفو الثياب في ساعات فراغها
أو تحبك الجوارب لتتسلى بها . ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام
عليها رقيب . . . إنني لن ألبس قرونا إذا استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبائية) تهرب إيزابيل
مع عاشق ذكي ، في حين تزوج ليونور من أريست وتظل وفية له إلى
آخر التمثيلية .

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه . ففي ٢٠ فبراير ١٦٦٢ ، وهو في
الأربعين ، تزوج بأمرأة تصغره بنصف عمره . أضف إلى ذلك أن عروسه
هذه — أرماند بيجار — كانت ابنة مادلين بيجار ، التي كان موليير يعاشرها
قبل عشرين عاماً . وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية ، وكتب
موفلورى ، رئيس فرقة الأوتيل دبورجون للمنافسة ، إلى لويس ينبئه بهذا
في ١٦٦٣ ، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراباً لأول طفل ولدته أرماند
لموليير . أما مادلين ، حين لقيها موليير ، فكانت أشد احتفالا بشخصها من
أن تتيح لنا أى معرفة يقينية بنسب أرماند . ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه
أبو الفتاة ، ولنا أن نفترض أن معلوماته في هذه النقطة كانت أفضل قليلاً مما
يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن .

كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة للبدال . وكان موليير يراها
كل يوم تقريباً ، وقد أحبا طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزم من طويل . وكانت
الآن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج . أما وقد نشأت في هذا الجو فانها لم
تخلق لتكون زوجة لرجل واحد ، لاسيما رجل قد أبلى روح الشباب .

لقد أحبت لذات الحياة واستغرقت في معاشات فسرّها الكثيرون على أنها، خيانات للزوج ، وعانى موليير من جراء ذلك ، وكان أصدقاؤه وأعداؤه يلوكون الشائعات عنه . وبعد زواجه بعشرة أشهر حاول أن يهدىء جراحه ينقد غيرة الرجال والدفاع عن تحرر النساء . لقد حاول أن يكون أريست ، ولكن أرمائد لم تستطع أن تكون ليونور . ولعله أخفق في أن يكون أريست لأنه كان نافد الصبر شأنه شأن أى مخرج مسرحى . وفى « تمثيلية فرساي المرتجلة » (أكتوبر ١٦٦٣) وصف نفسه إذ يقول لزوجته « اسكتى . أيتها الزوجة ، فأأنت إلا حمارة » . فتجيب « شكراً لك أيها الزوج الطيب . أنظر ما صار إليه أمرنا . أن الزواج بغير الناس تغييراً عجيّباً ، فما كنت لتقول هذا قبل سنة ونصف (١٥) » .

وواصل تأملاته فى الغيرة والحرية فى مسرحيته « مدرسة الزوجات » التى عرضت أول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٦٦٢ . ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب على هذا الوتر — الزوج الديوث . فترى آرنولف الذى لعب موليير دوره هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق ، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة ، وأن السبيل الأوحى لضمان وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة ، وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها . وتشب أنيس ، القاصر التى كان وصيا عليها وعروسه المستقبل ، فى براءة حلوة ، حتى أنها تسأل آرنولف فى عبارة تردد صداها فى طول فرنسا وعرضها ، « أيولد الأطفال من الأذن (١٦) » ؟ . ولما كان آرنولف لم يتحدث إليها بشيء عن الحب ، فأنها ترحب فى سرور برىء بتودد هوراس الذى يجد طريقة إليها أثناء غيبة قصيرة للوصى . فإذا عاد آرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً لمسلك هوراس :

آرنولف : حسناً ، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك ؟
 أنيس : قال إنه يحبني حباً حاراً لا نظيره . وقال لى باللف لغة فى

الدنيا أشياء لا يمكن أن يمد لها شيء . وقد أبهجنى لطف حديثه كلما
استعمت إليه ، وأثار فى شيئاً لا أعرفه ، عاطفة سحرتنى تماماً .

آرنولف : (جانباً) ياله من تحقيق معذب فى سر قتال ، يعانى فيه
المحقق كل الألم ! (بصوت عال .) ولكن علاوة على هذا الحديث كله ،
وهذه الأساليب اللطيفة كلها ، ألم يقبلك بعض القبلات أيضاً ؟

أنيس : أوه إلى هذا الحد لقد تناول يدى وذراعى ولم يتعب
قط من تقبيلها .

آرنولف : ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنيس ؟ (ملاحظاً حيرتها) ها ؟
أنيس : بلى ، لقد .

آرنولف : ماذا ؟

أنيس : أخذ .

آرنولف : كيف ؟

أنيس : الب .

آرنولف : ماذا تعنين ؟

أنيس : لا أجرؤ على إخبارك ، لأنك قد تغضب منى .

آرنولف : لا .

أنيس : نعم ، ولكنك ستغضب .

آرنولف : يا للهول ، لن أغضب .

أنيس : أحلف إذن .

آرنولف : أحلف .

أنيس : أخذ - سيثور غضبك .

آرنولف : لا .

أنيس : نعم .

آرنولف : لا ، لا ، لا ، لا . بحق الشيطان ما هو هذا السر ؟ ماذا أخذ منك ؟

أنيس : أنه —

آرنولف : (جانباً) إنى أقاسى عذاب الجحيم .

أنيس : أخذ الوشاح الذى أعطيتنى ، أصدقك القول أننى لم أستطع منعه .

آرنولف : (متمالكاً نفسه) : لا بأس بالوشاح . ولكنى أريد أن أعلم ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك ؟

أنيس : أيفعل الناس أشياء أخرى ؟

آرنولف : لا ، لا ، لا . . . ولكنى باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير للتبرجون ، والساح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة — هذا كله خطيئة مميتة ، بل أفضح خطيئة يمكن أن ترتكبها .

أنيس : تقول خطيئة ! والسبب من فضلك ؟

آرنولف : السبب ؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه .

أنيس : تغضبها ؟ ولكن لم تغضب السماء ؟ وأأسفاه ؟ إنه شيء حلو لذيد ، تعجبى البهجة التى أجدها فيه ، ولم أعرف من قبل هذه الأشياء .

آرنولف : نعم ، هناك الكثير من اللذة فى هذه العواطف الرقيقة ، وهذه الأحاديث اللطيفة ، وهذه القبل الحارة ، ولكن ينبغى تذوقها بطريقة شريفة ، والزواج كفيفل بأن يحو عنها الخطيئة .

أنيس : أفلا تعد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً ؟

آرنولف : نعم .

أنيس : أرجوك إذن أن تزوجنى حالا (١٧) .

وتهرب أنيس إلى هوراس بعد قليل طبعاً . ولكن آرنولف يقتنصها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمته حلاوة صوتها وجمال جسدها ، وربما كان مولير يفكر فى أرماند وهو يكتب عبارات آرنولف التالية :

« أن ذلك الحديث وتلك النظرة يجردان غضبي من سلاحه ، ويميدان إلى الحنان الذى يمحو ذنبها كله . فما أعجب أن يحب الإنسان ! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائنات افسكلنا يعرف نقصهن ، فما هن إلا التبذير والحماقة ، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف ، وما من شئ أوهن منهن ، ولا أقل ثباتاً ، ولا أكذب ، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شئ فى الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات (١٨) » .

وفى النهاية تهرب منه وتزوج هوراس . أما آرنولف فيميزه صديقه كريساله بفكرة مؤداها أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التى تقيه من أن يطلع له قرنان فى رأسه .

وأبهجت التمثيلية جمهورها ، فثلت إحدى وثلاثين مرة فى الأسابيع العشرة الأولى ، وكان فى الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بمخلاعتها ، ولكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا اللهاة لما فيها من مجافاة للفضيلة ، وكرهت السيدات فكرة الولادة من الأذن ، وندد الأمير كوتى بمنظر الفصل الثانى الذى سقنا حواراً من قبل بين آرنولف وأنيس زاحما أنه أفضح ما عرض على خشبة المسرح . ولعن بوسويه التمثيلية برمتها ، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين ، وسخرت الفرقة المناهضة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشطحات الحبكة المتعجلة . وعلت التمثيلية حيناً « حديث كل بيت فى باريس (١٩) » .

وكان في موليير من حب النضال مالا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه . ففي تمثيلية ذات فصل واحد مثلت في الباليه رويال في أول يونيو ١٦٦٣ ، واسمها « نقد مدرسة الزوجات » عرض لنا لقاء بين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم ، ولم يسكد يرد عليها إلا بأن يدع النقد يضعف ذاته بمبالغته ، وأن يجريه على ألسنة شخصيات مثيرة للسخرية . وواصل الأوتيل دبورجون « الحرب السكوميديّة » بإخراجه هزلية قصيرة سماها « الناقد المعارض » ، وهجا موليير والفرقة الملكية في « تمثيلية قرساي المرتجلة » (١٧ أكتوبر ١٦٦٣) . وساند الملك موليير في وفاء ، ودعاه إلى العشاء (٢٠) ، ومنحه الآن معاشا سنويا قدره ألف جنيه ، لا بوصفه « ممثلا كوميديا » بل « شاعرا فذا » (٢١) . كذلك نصر الزمن موليير ، فدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة في المسرح الفرنسي .

٤ — غرام طرطوف

ولكن موليير دفع ثمن حظوته لدى الملك . فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته ، فجعله من كبار للنظمين للملاهى في فرساي وسان — جرمان . وقد ملأ أحد هذه المهرجانات المسمى « مباهج الجزيرة للسحورة » أسبوعا (٧ — ١٣ مايو ١٦٦٤) بالالعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما — وكلها أقيم في حديقة فرساي وقصره تحت أضواء المشاعل والشمعدانات التي تحمل أربعمه آلاف شمعة . وكوفيء موليير على جهوده في هذا المهرجان بستة آلاف جنيه . وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك في استغلال عبقرية موليير لكي يوفر هذا اللهو الخفيف في البلاط ، وتصوروا تلك الروائع التي كان من الجائز أن يستكمل نضجها لو أن الشاعر السكامن في الكوميدي أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة . غير أنه كان واقعا تحت ضغط من فرقته أيضا ، وما كانت شواغله ومسئوليته ١٢ — قصة الحضارة

مديرا للفرقة وممثلا بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف في أى برج حاجى .
وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملع خيرا مما يكتبون في
الفراغ ، والفراغ يرخى الدهن ، والإلحاح يشحذه . ولقد أخرج مولير
أعظم تمثيلياته أول مرة في ١٢ مايو ١٦٦٤ ، في قبة « مباحج الجزيرة
المسحورة » ، وكانت جزءا من المهرجان .

في هذا العرض الأول لم تكن « طرطوف » بالتمثيلية المناسبة تماما
للمهرجان ، لأنها فضحت في غير رحمة ذلك النفاق الذى يتخفى خلف رداء من
التقوى والفضيلة . وكانت جماعة دينية من الإخوة العلمانيين تدعى « جمعية
السر المقدس » ، وعرفت فيما بعد بـ « عصبة الورعين » قد قطعت اليهود على
أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية . أما الملك الذى كانت علاقته
الغرامية بلافليير قد أثارت كثيرا من نقدهؤلاء الورعين ، فقد كان مزاجه
يدعوه للاتفاق مع مولير ، ولكنه بعد أن شاهد الملهاة في عرضها الخاص
بفرساي أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس في الباليه — رويال .
وطيب خاطر مولير بدعوته ليقراً « طرطوف » في فونتنبلو على نخبة
مختارة تضم ممثلا للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (٢١ يوليو ١٦٦٤) .
في ذلك الشهر مثلت المسرحية في بيت دوق أورليان ودوقها (هنرييتا آن) ،
في حضرة الملكة ، والملكة الأم ، والملك . وبينما كان يجري التمهيد
لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان — برتلهى ، بيير روليه ، في أغسطس
ثناء على الملك لحظره التمثيلية ، واغتنم هذه الفرصة ليرمى مولير بأنه
« رجل ، بل شيطان متجسد في ثوب رجل ، وأشهر مخلوق فاسق منحل
حاش إلى الآن » . ثم قال الأب روليه إن جزاء مولير على تأليف طرطوف
« أن يحرق على الخازوق ليذوق من الآن نار الجحيم (٢٢) » . ووبخ الملك
روليه ، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علنا . ولكى يظهر
حقيقة موقفه رفع معاش مولير السنوى إلى ستة آلاف جنيه ، وتلقى

عن « المسيو » حماية فرقة موليير ، فأصبحت منذ الآن « فرقة الملك » .

وظل الجدل مضطربا تحت الرماد طامين . ثم قرأ موليير على الملك نسخة منقحة من التمثيلية ، أضاف إليها سطورا تذكر أن الهجاء ليس موجها ضد الإيمان الصادق بل ضد الرياء . وأيدت مدام هنرييتا التماس المؤلف الإذن بعرض المسرحية . ووافق لويس موافقة شفوية ، وبينما كان منطلقا إلى الحرب في فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه — رويال في ٨ أغسطس ١٦٦٣ بعد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها في البلاط . وفي الغد أمر رئيس باريس ، وكان ينتمي لجماعة السر المقدس ، بغلق المسرح وتعزيق كل لافتاته . وفي ١١ أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة الملهاة أو سماعها أو تمثيلها سرا أو علانية ، وإلا كان الحرم جزاء المخالف . وأعلن موليير أنه سيعتزل للمسرح إذا استمر انتصار « الطراطيف » هذا . أما الملك الذي حاد إلى باريس فقد أمر السكاتب للمسرحى الغاضب بأن يتذرع بالصبر ، ففعل ، وأُثيب في النهاية برفع الحظر الملصكي . وفي ٥ فبراير ١٦٦٩ بدأت التمثيلية فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة . وبلغ من كثرة الراغبين في دخول المسرح وتهافتهم عليه في أول حفلة علنية أن الكثيرين كادوا يخنقون . لقد كانت « أشهر مسرحية » في حياة موليير المسرحية . وقد حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكبر عدد من العروض — بلغت ٢٦٥٧ (حتى سنة ١٩٦٠) في مسرح الكوميدي — فرانسيز وحده .

ولكن إلى أي حد تملل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل ، وشعبيتها المتصلة ؟ أنها تملل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى ؛ وتعلل الشعبية بقوة هجائها وبراعته . وكل ما في ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع . فقلما يكون الرياء مستهترا كاملا كما كان في طرطوف ، وقلما يكون الغباء مفترطا كما كان في أورجون ، وليس هناك خادمة نجحت في وقاحتها كما نجحت

دورين . وحل عقدة التمثيلية لا يصدق ، كما هي الحال عند موليير دائما ،
تقريبا ، ولكن هذا لم يقلقه ، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق ،
تكفى أى حيلة مسرحية — كتدخل الإله أو الملك — لحل العقدة
بانتصار الغضيلة وعقاب الرذيلة . وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر
المقدس الذين أخذ أعضاؤه على طاقهم أن يوجهوا ضائر الناس ، حتى
ولو كانوا علمانيين ، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا في
شئون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين . وقد أشارت التمثيلية مرتين
إلى « عصابة » (في السطرين ٣٩٧ و ١٧٠٥) ، وواضح أن هذا تلميح إلى
عصابة الورعين . وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس .

أما أورجون ، البورجوازي الغني ، فيرى طرطوف لأول مرة في
الكنيسة فينهر لمراه .

« آه لو رأيته ٠٠٠ إذن لأحبيته كما أحبه . . كان يأتي كل يوم
إلى الكنيسة هادىء الهيئة ثم يركع بجوارى . وقد لفت أنظار المصلين
جميعا بحرارة الابتهالات التي رفعها إلى السماء . كان يتأوه ويئن أينما
شديدا ، وفي كل لحظة يقبل الأرض في تذال . فإذا شرعت في الخروج
تقدمنى ليقدّم إلى المساء المقدس عند الباب . وإذا أدركت . . رقة حاله . .
كنت أهديه الهدايا ، ولكنه كان على الدوام يعرض أن يرد إلى بعضها . .
وأخيرا حفزنى السماء على أن أخذه إلى بيتى ، وبدأ إلى منذ تلك اللحظة أن
كل شئ يزكو . وأنا أبراه يلوم دون تفرقة بين الناس ، وألاحظ أنه ، حتى
غيما يتصل بزوجتى ، شديد الحرص على عرضى . فهو ينبئنى ممن يرمقها
بنظرات الهيام (٢٣) » .

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أودجرون وأبناءه كما راعه . ذلك أن
شهيته الطيبة ، وولعه بأطياب الطعام ، وكرشه المكور ، ووجهه المتورد

كل أولئك يذهب في نظرم بأثر عظاته . ويرجو كليات زوج أخته
أورجون أن يعين بين الرياء والدين :

« كما أنني لا أعرف في الحياة خلقاً أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة ،
ولا شيئاً أنبل ولا أجل من حرارة الورع الخالص ، فإني لا أرى شيئاً أشد
مكرراً من طلاء الغيرة الزائفة ، ومن هؤلاء الدجالين ، هؤلاء الاتقياء
مظهرياً . . . الذين يتجرون بالتقوى ، ويريدون أن يشتروا أسباب
التسكير وحسن الأحدوة برفع العميق إلى السماء في رياء ، وبانتشاءات
القداسة المقتعلة » .

ولسكن أورجون يعرض في تصديق مزاعم طرطوف ، ويخضع لأرشاده ،
ويطلب له المعونة من الله إذا تحشأ ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التي
تؤثر عليه فالير في عنف أما بطلنة التمثيلية الحقيقية فهي دورين ، خادمة
ماريان ، التي يبدو — كما في كل الملاحى الكلاسيكية — أنها تثبت أن
العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعاً يتناسب تناسباً عكسياً مع المال .
وما أبهج استقبالها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة :

طرطوف : (يسلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين) . يا لورنس ،
اقفل على وشاحى الوبرى وسوطى ، والتمس من السماء أن تنيرك بالنعمة
دائماً . وإذا جاء أحد لزيارتى فقل لى ذهبى إلى السجون لأوزع
صدقاتى .

دورين : (جانباً) أى تصنع وأى لؤم !

طرطوف : ماذا تريدن ؟

دورين : أن أقول لك —

طرطوف : (وهو يسحب منديلاً من جيبه) أوه . يالاهول . أرجوك
أن تأخذى هذا المنديل منى قبل أن تتسكلى .

دورين : ولم ؟

طرطوف : غطى ذلك الصدر الذى لا أطيع رؤيته . مثل هذه الأشياء تؤذى النفس وتغرى بالآفكار الآثمة .

دورين : إذن فأنت تذوب ذوبانا أمام التجربة ، ومنظر الجسد يؤثر فى حواسك تأثيراً شديداً ؟ الحق أننى لا أعرف أى حرارة تلهبك ، ولكنى عن نفسى لست عرضة لمثلك لهذا التلهف على الجسد . فى وسعى الآن أن أراك طارياً تماماً من رأسك إلى قدمك ، دون أن يغربنى جلدك هذا كله أى أغراء (٢٤) .

والمنظر التالى لب الملهاة . ترى فيه طرطوف يطارح زوجة أورجون — ايلمير — الغرام ، ويستعمل لغة التقى فى توسلاته . وينبأ أورجون بخيائته ، ولكنه يأتى أن يصدق ، واطهاراً لثقتة بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها . ويستسلم طرطوف لقبولها قائلاً « لتكن مشيئة السماء فى كل شئ » (٢٥) ، وتحمل ايلمير الموقف ، إذ تنجى زوجها تحت مائدة ، وترسل فى طلب طرطوف ، وتلوح له ببارقة تشجيع ، ثم توقعه فى محاولات للاستطلاع الغرامى . وتتظاهر بالرضى ، ولكنها تزعم أنها تحس وخزات الضمير ، فيتناول طرطوف هذا الزعم بفتوى الخبير ، وواضح أن موليير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها :

« طرطوف : إذا لم يكن غير السماء عقبة فى طريق رغباتى ، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة — صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة ، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور . فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال ، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية — ذلك علم أى علم (٢٦) » .

ويظهر أورجون من غمسه ، ويأمر طرطوف فاضباً بأن يخرج من بيته ، ولكن طرطوف يبين له أن البيت أصبح ملكاً له بحكم العقد الذى وقعه أورجون مؤخراً . ويقطع موليير هذه العقدة ، دون كبير براعة ، بأن يجعل

عمال الملك يكتشفون في اللحظة المناسبة أن طرطوف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . ويستعيد أرجون أملاكه ، ويظفر ظاير بمریان ، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجى يشيد بعدل الملك وأحسانه .

٥ - الملحد العاشق

ولكن إيمان الملك لا بد قد أرهقته تمثيلية مولير الجريئة التالية . ففي ذروة الحرب المحتدمة حول « طرطوف » ، وبينما كانت جماعة الوريثين لا يزالون منتصرين في أمر حظر التمثيلية ، عرض مولير في الباليه — رويال (١٥ فبراير ١٩٦٥) مسرحية « وليمة التمثال الجبرى » التى قص فيها بنثر يظفر مرحاً قصة دون جوان القديمة المكرورة ، وجعل فيها ذلك الزير المستهتر ملحداً مغروراً . وقد أخذ شسكها الظاهر عن تيرسودى مولينا وغيره ، ولكنه ملاًها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته ومخدياً لله . والمسرحيه صدى مدهش لذلك الجدل الكبير الذى تورط فيه الدين مع الفلسفة .

ودون جوان تينوريو مركز يسلم بالتزاماته قبل طبقة ، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهى من لذات . ويخصى تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتى أغواهن مولاة ثم هجرهن فيجدهن ١٠٠٣ ر١٠٠٣ . يقول جوان « إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحق . . فليس فى وسعى أن أحرم قلبى من أى مخلوقة جميلة أراها (٢٧) » ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت . يلائمه ، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته . ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه :

سجاناريل : أممكن أنك لا تؤمن بالجنة ؟

جوان : انس الموضوع .

سجاناريل : أى أنك لا تؤمن . وما رأيك فى جهنم ؟

جوان : إيه !

سجائاريل : كلامك بالجنة . وما رأيك في الشيطان من فضلك ؟

جوان : نعم ، نعم .

سجائاريل : قليلاً جداً كذلك . ألا تؤمن بحياة أخرى على الأملاق ؟

جوان : ها ، ها ، ها .

سجائاريل : هذا رجل سيشق على هدايته . ولكن قل لي ، لابد أنك

تؤمن بـ « الراهب الفظ » .

جوان : تباً للأحمق .

سجائاريل : أما هذا فلا أطيقه ، لأن ليس هناك كائن وجوده مؤكد
كهذا الراهب الفظ ، وقتلني الله أن لم يكن وجوده حقيقياً . ولكن المرء
يجب أن يؤمن بشيء ، فبأي شيء تؤمن ؟ . . .

جوان : أؤمن بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وأربعة وأربعة

يساويان ثمانية .

سجائاريل : يا لها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة ! إذن فدينك —
على قدر ما أفهمه — هو الحساب ؟ أما أنا يا مولاي . . . فأفهم جيداً أن
هذا العالم ليس شيئاً كالقطر نما في ليلة واحدة . أريد أن أسألك منذ الذي
صنع هذه الأشجار والصخور والأرض والسماء من فوقنا ؟ أهذا كله بنى
نفسه بنفسه ؟ أنظر إلى نفسك مثلاً ، فما أنتذا موجود ، أصنعت نفسك ،
والم يسكن لزماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك ؟ ألتستطيع أن ترى كل
المخترعات التي تتألف منها الآلة البشرية دون أن تعجب كيف يشغل الجزء
منها جزءاً آخر ؟ ومهما قلت ، فإن هناك شيئاً معجزاً في الإنسان لن يستطيع
كل المتنطعين في العلم أن يفسروه . أليس عجيباً أن تراني هنا ، وأن في رأسي

(*) شيخ مزعوم تخوف به المرييات والأمهات الأطفال .

شيئا يفسكر في مائة شيء مختلف في لحظة ويأمر بدننى بأن يصنع ما أريد ؟
أريد أن أصفق ييذى ، وأرفع ذراعى ، وأنظر بعينى إلى السماء ، واخفض
رأسى ، وأحرك قدمى ، وأمشى يمينا ، ويسارا ، وأماما ، وخلفا ، وأدور
(يقع على الأرض وهو يدور) .

جوان : هذا حسن ! أن لحجتك أنفأ مكسورا (٢٨) .

وفي المشهد التالى تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى . فهو
يلتقى بشحاذ يزعم له أنه يصلى كل يوم من أجل المحسنين إليه ، فيقول جوان :
« أن رجلا يصلى كل يوم لا بد أن يكون غنيا جذا » . ويجيب الشحاذ إن
الامر على العكس من ذلك « فى أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز »
ويعرض عليه جوان جنيتها ذهبيا « شريطة أن يجدف ، ولكن الشحاذ
يرفض « إنى أفضل الموت جوعا » ويذهل جوان قليلا لهذه الصلاة فيعطيه
قطعة النقود وهو يقول « حبا فى الإنسانية (٢٩) » . ويعرف كل رواد
الأوبرات نهاية القصة ، إذ يصادف جوان تمثالا للقائد الذى أغوى ابنته
وأودى بحياته . فيدعوه التمثال إلى العشاء ، فيحضر ، ويناوله يده ، فيقوده
إلى الجحيم . ويظهر الجهاز الشيطانى المعبود فى المسرح الوسيط ، « فينبض
الرعد والبرق بضوءاء عظيمة على دون جوان ، وتغمر الأرض فاهوا وتبتلعها ،
وتندلع نار هائلة من المسكان الذى سقط فيه » .

وقد صدم الجمهور فى أول ليلة لما رأى من فضيح . وليبر لكفر جوان .
ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأسا بأن يفضح سفالة جوان واقتقاره إلى
إلى اللاهوت ، وبأنه أمار اللثام عنه وحشا لا ضمير له ولا حنو ، ينشر
الخداع والحزن أينما ذهب ، ولعله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد
بشكل ما فيه من عطف ، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على لسان
أحمق يؤمن بالغفارت إيماننا أرسنخ من إيمانه بالله ، ولم يخفف من وقع هذا
الكفر القاء جوان فى الجحيم أخيرا ، لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

دون كلمة ندم أو خوف . وبعد العرض الأول خفف موليير من حدة أكثر الفقرات ايذاء ، ولكن هذا لم يهدىء نائرة الرأي العام . ففي ١٨ أبريل ١٦٦٥ نشر سيد روشمون ، المحامى فى البرلمان ، « ملاحظات حول مسرحية لموليير » فيها وليمة التمثال الحجرى بأنها « شيطانية حقا . . لم يظهر قط أفسق منها حتى فى العهود الوثنية » ثم أهاب بالملك أن يحظر التمثيلية :

« فبينما يحرص هذا الملك النبيل الحرص كله على صون الدين ، نرى موليير يعمل على هدمه . . فليس فى وسع انسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن موليير أهل للمشاركة فى تناول الاسرار للقدسة مادام سادرا فى عرضها ، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب على (٣٠) » .

ولكن لويس واصل رضاه عن موليير . ومثلت « وليمة التمثال الحجرى » ثلاثة أيام كل أسبوع من ١٥ فبراير إلى أحد السعف . ثم سحبت ، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات ، ولم تعد إلا على صورة اقتباس شعري بقلم توما كوربى الذى حذف المشهد القاضح الذى نقلناه . أما النسخة الأصلية فقد اختفت ، ثم اكتشفت ثانية فى ١٨١٣ طبعة مسروقة نشرت بأمستردام فى ١٦٨٠ . وظلت نسخة كوربى تحتكر للمسرح حتى ١٨٤١ ، وهى لا تزال تحتل مكان الأصل فى بعض طبعات أعمال موليير (٣١) .

٦ - موليير فى أوجه

وكأن موليير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم ، فراح يهاجم مهنة الطب . وكان قد صور دون جوان بأنه « فاجر فى الطب » ورأى أن الطب « من أكبر كبائر الإنسانية (٣٢) » وكان قد خير بنفسه ما فى أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور . وخیل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه حين وصفوا له حجر السكحل (الأنثيمون) ، وآم يقفون موقف العاجز من قدره

الذى يسير بخطى حثيثة (٣٣) . كذلك كان الملك صاخطا على ما يعطونه من مسهلات وما يفصدون من دمه كل أسبوع . ويقول مولير إن لويس هو الذى أغراه بوضع الأطباء على السفود . وعليه فقد كتب فى خمسة أيام تمثيلية « الحب خير طبيب » مستعيرا من الملاحى القديمة فى هذا الموضوع القديم . وقد أخرجت بفرساي فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٥ فى حضرة الملك الذى « ضحك لها من قلبه » ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع فى الباليه — رويال . وهى تمسكى قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء . فيختلون للمداولة ، ولسكنهم لا يناقشون إلا شئونهم الخاصة . فإذا أصر والد المريضة على قرار وعلاج ، وصف أحدهم لها حقنة شرجية ، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة . ثم تتعافى المريضة بغير دواء ، الأمر الذى يثير سخط الأطباء ، فيصيح الدكتور بايز « خير لها أن تموت طبقا للقواعد من أن تشفى مخالفة لها (٣٤) » .

وفى ٦ أغسطس ١٦٦٦ عرض مولير مسرحية قصيرة أخرى هى « الطبيب برغم أنه » مقدمة مسرحية لمسرحيته « مبعوض البشر » قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثيلية التى تنغى بالتشاؤم . وهى لا تجزى جهد قارئها اليوم لأن مولير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطب مأخذ الجد . ويلاحظ أنه قال على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص ، المسيو دموفلان ، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (١٦٦٩) وقد شرح مرة كيف كان هو ومولان مذسجمين تمام الانسجام فقال « إننا نناقش الأمر ، ويصف هو العقاقير ، وأنا أغفل تعاطيها ، ثم أشفى (٣٥) » .

وبينا كان مولير لا يزال فى وطيس المعركة حول طرطوف ، قدم فى ٤ يونيو ١٦٦٦ هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية . وإذا كانت الحركة روح المسرحية ، فإن هذه المسرحية « مبعوض البشر » أقرب إلى الحوار الفلسفى منها إلى التمثيلية . وتكفى جملة واحدة لتلخيص القصة : فألسيست ، الذى يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصراحة

الكاملة يحب سيليمين التي تؤثره ، ولكن بطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الكثير من المديح . ويحمد مولير في هذا مجرد ذريعة لدراسة الفضيلة . فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائماً ، أم نحول المجاملة عمل الصدق لكي نتقدم في هذه الدنيا ؟ أما السيست فيرفض ألصاف الحلول التي يتراضى بها المجتمع مع الصدق ، وبندد برياء البلاط ، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى العواطف و « أحر التحيات » في حين يسكيد كل لغيره سرّاً تحقيقاً لمصلحته الشخصية ، ويغتابهم جميعاً ، ويستمين بالتماق على نيل الخطوة أو السلطة . وألسيست يحقر هذا كله ، ويريد أن يكون صادقاً ولو أفضى به الصدق إلى الاتجار . ويعصر شويعر من رجال البلاط يدعى أوروبات على قراءة أشعاره على ألسيست ، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً ؛ وينال ما طلب ، فيهدد ويتوعد بالانتقام . وتغازل سيليمين الرجال ، فيوبخها ألسيست ، فتصفه بأنه إنسان مترمت مغرور ، ونكاد نسمع مولير يوبخ زوجته المرححة ، والواقع انه هو الذي لعب دور ألسيست ، وهي التي مثلت سيليمين :

ألسيست : سيدتى ، أسمعيني لى أن أكون صريحاً معك ؟ إننى أشد بدد الاستياء من تصرفاتك . أنا لا أنشاجر معك ، ولكن مسلكك يأسيدتى يفتح لأول وافد أرحب سبيل إلى قلبك . إن لك عدداً هائلاً من العشاق الذين نراهم يحاصرونك ، ونفسى لا تستطيع الرضى بهذا .

سيليمين : أتلوه لى لأننى أجذب العشاق ؟ أهو دنى أن الناس يحمدونى جديرة بالحب ؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتى أفاخذ عصا وأطردهم خارجاً ؟ .

ألسيست : لا ، ليست العصا هي ما يجب أن تستعمليه ، بل روحاً أقل استسلاماً وذوباناً أمام عهودهم . أعرف أن جمالك يتبعك في كل مكان ولكن ترحيبك يزيد من تجتذبه عيناك تملقا بك ، وتطلقك مع جميع من يستسلمون لك يسكل في قلوبهم فعل مقاتنك (٣٦) .

والنقيض الفلسفى لألسيست هو صديقه فيلات ، الذى ينصحه بأن يلائم
فى لطف بين نفسه وبين ما فى البشر من نقائص فطرية وأن يعترف باللطف
ميسراً للحياة . وسحر للمسرحية فى قسمة موليير عواطفه بين السيست
وفيلات . فألسيست هو موليير الزوج الذى يخشى أن يكون ديوتا ،
ومنجد حجرة الملك الذى عليه — لكى يعد سير الملك — أن يتصدى لمائة
ببيل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بعقريته . وفيلات هو موليير الفيلسوف ،
الذى يأمر نفسه بأن يكون معقولا متسامحا فى الحكم على البشر . يقول
فيلات — موليير لموليير — ألسيست فى فقرة لنا أن نعتبرها نموذجاً من
موليير الشاعر :

« رباه : فلنقل من ضيقنا بعادات العصر ، ولتسامح قليلا مع الطبيعة
البشرية ، ولا نفحصها بصرامة شديدة ، بل ننظر إلى عيوبها بشيء من
التساهل . فالحياة فى هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيبة ، وقد يخطئ المرء
بغلوه فى الحكمة ، فالعقل الكامل يتجنب كل تطرف ، ويريدنا أن نكون
حكماة فى اعتدال . إن التزمت الشديد فى فضائل القدماء يصدى كشيء
عصرنا والعرف السائد بيننا : فهو ينشد فى البشر كمالا مفرطاً ، علينا أن نأين
لأمر من دون تصلب ، والحماسة كل الجملة فى أن نورط أنفسنا فى تقويم أخطائهم
العالم . إلى الحظ كما تلحظ كل يوم عشرات الأشياء التى كان يمكن أن
تكون خيراً مما هى لو أنها سلكت طريقاً غير طريقها ، ولكن مهما تكشف
لى فى كل خطوة ، فإن الناس لا يرونى ساخطاً مثلك . أنتى أتعبل الناس على
علاقتهم فى هدوء كثير ، وأروض نفسى على التجاوز عما يفعلون ، وأعتقد
أن فى برودة طبعى من الفلسفة قدر ما فى مرارة طبعك ، سواء كنت فى
البلاط أو فى المدينة » (٢٧).

وفى رأى نابليون أن حجة فيلات هى الأرجح ، أما جان جاك روسو
فرايه أن فيلات كذاب ، وهو يحبذ فضيلة السيست الصارمة (٣٨) . وفى
النهاية يهجر السيست العالم كما هجره جان جاك ويعتكف فى عزلة معقمة .

ولم تحقق التمثيلية من النجاح إلا قدراً معتدلاً . فالحاشية لم تسخ هجو .
تظرفها ، وجهور الصالة لم يتحمسوا لرجل كألسيست يحقتر كل شيء .
صراحة إلا نفسه . ولكن النقد — الذين لأم من جهور الصالة ولا من
الحاشية — صفقوا للمسرحية استحياساً ، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف
مسرحية الأفكار ، أما النقد المحدثون فيرونها أكمل عمل كتبه مولير .
وبعض الزمن ، وبعد أن مات جيلها الذي شهرت به ، لقيت قبولا عاماً ،
ففيما بين عام ١٦٨٠ و ١٩٥٤ مثلت ١٥٧١ مرة في السكوميدي فرانسير —
ولم ينفها في حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل .

ولما عجز مولير عن المعيش في سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار
على زوج واحد ، والجمال ، أمرين متناقضين ، هجرها (أغسطس ١٦٦٧)
وذهب ليعيش مع صديقه شابلان في أونوى بالطرف الغربي لباريس . وقد
استخف به شابلان في رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد ،
ولكن مولير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . وقد اعترف بهذا (إذا
صدقنا شاعراً يروي عن آخر) :

« لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتي ، ولكن
لو علمت ما أكابد لأشفقت على . فلقد بلغ بي الغرام بها مبلغاً يجعله
يتغلغل بمطفي في كل اهتماماتها . وحين أتأمل استحالة تغلبي على ما أحس
به نحوها ، أقول لنفسى إنها ربما تكابد نفس المشقة في التغلب على ميلها
لأن تكون لعوبا ، وعندها أجد نفسى أميل للشغفة عليها منى للومها .
ستقول لى ولا ريب إن الرجل لابد أن يكون شاعراً لكي يحس بهذا ،
ولكنى شخصياً أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب ، وأن
أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حباً صادقاً قط . فشكل الأشياء
في الدنيا مرتبطة بها في قلبى وحين أراها يجرذنى من كل قدرة على
التفكير ضرب من الانفعال ، بل نشوات تحس ولا تروى ، فلا تعود لى عينان

تبهران سوءاتها ، ولا أرى غير كل جيل محبب فيها . أليس هذا منتهى
الجنون (٣٩) ؟

وقد حاول أن يسلوها باغراق نفسه في عمله . ففي ١٦٦٧ شغل نفسه
بتنظيم حفلات الترفيه للملك في سان — جرمان . وأحيث ملهاته
« أمفيتريون » (١٣ يناير ١٦٦٨) من جديد غراميات جوبيتر الذي يغوى
السكران زوجة أمفيتريون . وحين قال لها جوبيتر « إن مقاسمة المرأة جوبيتر
فراشه ليس فيها أى غض من شرفها » فسر كثير من السامعين العبارة بأنها
تصفح عن غرام الملك بمدام دمونتسبان ، فإذا كان هذا التفسير صحيحاً فهو
تملق غاية في السخاء ، لأن موليير لم يكن مزاحه آنذاك يسمح له بالتعاطف
مع من يغوون الزوجات . لقد كان كمثل إنسان آخر يداهن الملك بعبارات
الزلى كما فعل في خاتمة طرطوف . وفي ملهاة أخرى مثلت أمام البلاط
في ١٥ يوليو ، واسمها « جورج داندان » أو الزوج المبلبل » تطالعنا
مرة أخرى قصة الزوج المبلبل ، الذى يتهم زوجته بالزنا ولكنه لا يستطيع
أثبات التهمة فياً كل قلبه بالشك والغيرة ؛ لقد كان موليير يسكب الملح
في جراحه .

وكان عاماً حافلاً بالعمل ، فبعد بضعة أشهر لا أكثر (٩ سبتمبر)
أخرج واحدة من أشهر تمثيلياته وهى « البخيل » . وقد اتخذت موضوعها
وجزءاً من حبسكتها من مسرحية بلوتوس « أولولاريا » ولكن بلوتوس
كان قد نقل مسرحيته عن « للمهاة الجديدة » عند اليونان . وأغلب الظن
أن البخيل وهجوه قديمان قدم للمال ، ولكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع
بحيوية وقوة أكثر من موليير . فترى آرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على
ترك خيله تنمضور جوعاً وتسير بغير حوافر ، وهو يسكره العطاء كراهية
تجمله لا « يعطيك » نهراً سعيداً (أى بقرائك التحية) بل « يقرضك نهراً
سعيداً » . وحين يرى شبعين موقدين استعداداً للعشاء يظنهما أحدهما .

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهرآ ، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله (٤٠). والمجوهنا ، كما هو في موليير عادة ، يقرب من السكاريكاتور . ولم يسخ الجمهور الصورة ، وبعد أن مثلت المسرحية ثمانى مرات سحبت ، ولكن ثناء والو عليها أعان على نفخ الحياة فيها ، فعرضت سبعة وأربعين مرة في سنواتها الأربع الأولى ، ولا يفوقها في عدد عروضها غير طرطوف .

أما مسرحية « البورجوازي مدعى النبى » فكانت أقل جودة وأكثر توفيقاً . وقصتها أنه في ديسمبر ١٦٦٩ قدم إلى فرنسا سفير تركى . واتخذ البلاط كل أبهته ليقع من نفس السفير ، ولكن السفير استجاب في جهود وصالف . وبعد رحيله دعا لويس موليير ولوى إلى تأليف كوميديا تجمع بين الباليه والمهابة وتحاكى الأتراك محاكاة ساخرة . ووسع موليير الخطه جعلها هجائية تزدم العدد المتعاضم من فرنسيين الطبقة الوسطى الذين يجاهدون للبس والحديث كما يلبس ويتحدث الأرستقراطيون بالمولد . ومثلت المهابة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور في ١٤ أكتوبر ١٦٧٠ . ولما عرضت بالباليه — رويال في نوفمبر ، عرضت الخسارة للمالية التي الحقها بالفرقة عروض « البخيل » . ومثل موليير دور مسيو جوردان ، ومثل لوى دور المفتى . ورغبة في خلع النبالة على مظهره ، يستأجر مسيو جوردان معلما للموسيقى ، وآخر للرقص ، وثالثا للمبارزة . ورابعا للفلسفة . ويتعارك هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم — فأياها أهم ، تحقيق التناغم ، أم الخطو الموقع ، أم القدرة على القتل المحكم ، أم الحديث بالفرنسية الرشيدة ؟ ونلاحظ في مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لوى المتفاخر المتسلق . ويعرف نصف العالم ذلك المشهد الذى يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر وإما شعر :

مسيو جوردان : ماذا ؟ إذا قلت « إيتني تخفى يا نيكول » ، و « ناولي طاقتي » أيسكون هذا نثراً ؟ .

معلم الفلسفة : نعم يا سيدى .

مسيو جوردان : يميناً ، لقد ظلمت أربعين سنة أتكلم النثر وأنا لا أدري . إنني والحق مدين لك جداً يا نبأى بهذا (٤١) .

على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدى العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم للقصودون بهذا الطهجا ، فسخروا بالتمثيلية زاعمين أنها لغو فارغ ، ولكن الملك قال لموليير ، مؤكداً « أنك لم تكتب في حياتك شيئاً أمتعنى كهذا » . يقول جيزو « إن البلاط تملكته نوبة من الأعجاب بمجرد سماعه هذا الثناء (٤٢) » .

وتعاون موليير ولولى ثانية ومثلاً أمام البلاط (يناير ١٦٧١) « بسيشيه » ، وهى مزيج من الباليه وللأساة ، شارك بيير كورنبي وكنو بأكثر أبياتها . وكان لولى يسكسب المعركة ضد موليير ، فالملهاة تخلى مكانها للأوبرا ، والحوار للآلات ، وكان لزاماً إزال الأرباب والربات من السماء أو رفعهم من الجحيم واقتضى الأمر إعادة بناء المسرح فى الباليه - رويال لهذه التمثيلية ، وكلف هذا ١٩٨٩ جنيهًا . ولكن الأخراج حقق نجاحاً مالياً .

بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب موليير ، وكان أكثر اطلاقاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله . وقد خيل إليه أن المرأة المتعلمة شذوذ متعب وعقبة فى طريق الزواج . ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ ، ويناقشن دقائق النحو ، ويقتبسن من الآداب القديمة ، ويتكلمن فى الفلسفة ، ووقر هذا فى إذن موليير كآله انحراف جنسى ، أضف إلى ذلك أن رجاليز - هما الأب كوتان والشاعر ميناج - كانا يهاجمان بعنف مسرحيات موليير ، فها هى ذى الفرصة قد لاحت لوخزهما . وعليه فى ١١ مارس ١٦٧٢ قدم مسرحية « النساء العالمات » . ففيلامنت تطرد خادمة لا تستعاملها لفظاً رفضه المجمع اللغوى ، وابنتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزوز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول ! ويقرأ تريسوتان شعره الكريه على هاتين

١٣ — قصة المضارة

للرأتين المتكافئتين المعجبتين . ويملاً فاديوس الشعر بالألغاز والمعميات ، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان . ويدافع موليير عن هنرييت ضد هؤلاء جميعاً ، لأنها تستهجن أبيات الشعر (السداسية) وتريد زوجاً ينحها الأبناء لا الإيجرامات . ترى هل أصبحت أرماند ييجار إحدى المتحذقات ؟ أم أن موليير كان يعرض عصره ؟

٧ - ستار

إنه لم يجاوز الخمسين الآن ، ولكن حياته المحمومة ، وتدره ، وزواجه ، وأحزانه لفقد أحبائه ، استنزفت حيويته . إن مينار رسمه في ريعان شبابه : أرف كبير وشفتان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك ، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجعدة وعينين حزينتين . ذلك أن انهماكه في دوامة المسرح من بلد إلى بلد ، يوماً بعد يوم ، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب ، ومع زوجة منعمة بالحياة ، ومع ملك حساس ، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان — كل هذا لم يكن طريفاً مفروشاً بالرياحين إلى التفاؤل ، بل طريفاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر . لا عجب إذن أن يصبح موليير « بركانا يلهتهم ذاته (٤٣) » ، إنسانا مسكتئباً ، حاد الطمع ، نقاداً في غير مجاملة ، ولكنه رغم ذلك كريم النفس عطوف . وقد فهمته فرقة وأخلصت له الود ، موقنة أنه ينفى نفسه ليوفر لها القوت ويسكفل لها النجاح . وكان أصدقاؤه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعاً عنه — لا سيما بوالو ، ولا فونتين ، الذين كتبوا مع موليير ، بمشاركة راسين أحياناً ، « الأصدقاء الأربعة » المشهورة . ولقد وجدوا فيه التعاليم الحسن والاطلاع الواسع ، وعرفوه ذكياً ظريفاً وإن قن مرحه ؛ لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح ، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزناً من جاك (في مسرحية شكسبير « كما تشاء ») .

ويعد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصفاً عاد إليها (١٦٧١) .
ومات الطفل الذي أثمره هذا التصالح بعد شهر من ولادته . وكان يعيش في
أوتوى قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه ، فعاد الآن إلى شرب النبيذ على
عادته ، وحضر مهرات المشاء المتأخر ارضاء لأرماند . وقرر أن يمثل الدور
الأول برغم تفاقم سعاله ، دور أرجان ، في آخر تمثيلياته « المريض بالوهم »
(١٠ فبراير ١٦٧٣) .

وأرجان هذا يتوهم أنه مصاب بالعديد من الأمراض ، وينفق نصف
ثروته على الأطباء والعقاقير . ويحتقره أخوه بيرالد :
« أرجان : فما الذى يجب أن نصنعه حين نعرض ؟

بيرالد : لا شيء يا أخى . . . علينا أن نحفظ بهدوئنا لا أكثر .
والطبيمة ذاتها إذا تركناها وشأنها ، كقيلة بأن تخلص نفسها بلطف من
الخلل الذى وقعت فيه . إن الذى يفسد كل شيء هو سكراننا لصنيعها ونفاد
صبرنا ، وكل الناس تقريبا يموتون بالدواء لا بالداء (٤٤) » .

ولمزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن فى استطاعته هو نفسه
أن يصبح طبيباً بإجراء مختصر ، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على
الاجازة الطبية . وبلى ذلك الامتحان المزيف الذى تسأل فيه اللجنة
أرجان (*) .

وكاد موت مولير أن يكون جزءاً من هذه التمثيلية . ففي ١٧ فبراير

(*) يحاول بيرالد فى هذا الفصل الأخير من الملمة أن يسلى الأسرة ، فيكاف أصحابه
المثلين بغامبل يمثل قبول أرجان طبيباً فى الفيزياء على أنغام الموسيقى والرقص ، ويقترح
اشتراك الجميع فى المهرلة ، وأن يمثل أرجان الدور الرئيسى فيها . ويدخل موكب الصيدلة
والجراحين والأطباء ، ويجلس أرجان عند قدمى الرئيس الذى يخاطب لجنة الامتحان
بخطب لغوى هازل طالباً إليهم أن يوجهوا استلثهم لأرجان . فيسألونه عن العقاقير
والأمراض وعلاجها ، وهتب كل جواب يبدى الخورس استحسانه وجدارة أرجان
بالمهنة ، فيعلقه الرئيس ويميزه ، ويهتف الخورس بحياته داعياً له بطول العمر . (المترجم)

١٦٧٣ طلبت إليه أرماند وغيرها ، حين رأوا اعياءه ، أن يغلق المسرح أياما حتى يتماثل ك صحته . فسألهم ، ولكن كيف أصنع هذا ؟ إن هنا خمسين حاملا فقيرا ينقدون أجرهم يوما بيوم ، فإذا هم فاعلون إذا توقعنا عن التمثيل ؟ انني لألوم نفسي على اني أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام في طاقتي أن أمثل (٤٥) . وفي الفصل الأخير من التمثيلية ، وبينما كان مولير ، في دور أرجان (الذي تظاهر بالموت مرتين) يلغظ بكلمة Juro (أحلف) وهو يقسم بين المهنة ، أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات . فداراها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية . وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته . وطلب كاهنا ، ولكن أحدا لم يحضر . واشتد سعاله ، وانفجر فيه عرق ، فاختنق بالدم في حلقة ومات .

وقضى آرلى دشانفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن مولير في أرض مسيحية مادام لم يتب توبته النهائية ويتلقى غفران الكنيسة . أما أرماند ، التي كانت تحبه على الدوام حتى وهى تخدعه ، فذهبت إلى فرساي ، وارتعت عند قدمى الملك ، وقالت فى غير حكمة ، ولكن فى شجاعة وصدق « إذا كان زوجى مجرما ، فان جلالتهكم باركتكم جرائمه بشخصكم (٤٦) » . وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سرا ، ولان آرلى ، وأمر ألا يؤخذ جنمائه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية ، ولكنه سمح بدفنه فى هدوء بعد الغروب فى ركن قصى من جبانة سان جوزيف فى شارع مونمارتر .

ومازال مولير بإجماع الناس علما من أعظم أعلام الأدب انفرنسى ، لا بكمال تكنيكة المسرحى ولا بأى روعة تميز بها شعره . فأكثر حبيباته مستعارة ، ومعظم نهاياتها مفتعلة وغير معقولة ، وجل شخصياته صفات مجسدة ، والعديد منها كبار باجون مبالغ فيه إلى حد السكاريكاتور ، وكثيرا ماتمبسط ملاهيه إلى درك الفارص (الهزلية الصاخبة للمهرجة) .

وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر ما أحبوه حين يفرق في هذا القارص ، ولم يستطيعوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التي يشارك فيها الناس موما . وأغلب الظن أنه كان مفضلاً هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرته فرغمه على الوفاء بديونها .

وكما أسف شيكسبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجاً للناظرين كتب موليير يقول : « أرى أن من العقوبة الفادحة في الفنون الحرة أن يعلم الفنان عن نفسه للحمقى وأن تعرض ثمرات أفلامنا للحكم الهمجى الذى يحكم به عليها الأغبياء (٤٧) » . وقد حز في نفسه أن يطالب على الدوام بإضحاك الناس ، فهذا كما قال أحد شخوصه « مطلب غريب (٤٨) » . وكان يتطلع لكتابة المأسى ، ومع أنه قصر دون هذا الهدف ، فإنه وفق في أن يضفى على أعظم ملاحيه مغزى وعمقا مأساويين .

إذن فالفلسفة التي تنطوى عليها تمثيلات ، وفكاهتها وهجوها اللاذع - هذه هي التي تجعل كل قارئ فرنسى تقريباً يقرأ موليير (٤٩) . وهي في صميمها فلسفة عقلانية ، أبهجت قلوب « فلاسفة » القرن الثامن عشر . « فليس في موليير أثر لمسيحية الخوارق » و « الدين الذى عرضه لسان حاله كليات (في طرطوف) يمكن أن يصدق عليه فولتير (٥٠) » . إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية ، وقد سلم بفضل الدين في حياة الكثيرين جداً ، واحترم التقوى الصادقة الخالصة ، ولكنه احتقر الورع السطحي الذى يخفى أنانية أيام ستة وراء نفاق اليوم السابع (يوم الأحد) .

وكانت فلسفته الأخلاقية وثنية بمعنى أنها أباحت اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة . كان فيها رائحة أبيقور وسنيكا لا القديس بولس أو أوغسطين ، وقد انسجمت مع تحمل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور - رويال . وكان يستنكر الغلو حتى في القضيلة . كان يعجب بـ « الرجل الفاضل » ، رجل الدنيا المقول الذى يسلك باعتدال طافق

وسط السخافات المتعارضة ، ويوائم في غير ضجة بين نفسه وبين
نقائص البشر .

ولم يبلغ موليير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال . فقد أكرهته مهنته
مسرحيا هازلا على الهجو ، وعلى المبالغة أحيانا كثيرة . وقد عنف على
النساء المتعلمات ، وغلا في هجومه على الأطباء دون تفريق ، ولعله كان
يخلق به أن يبدي احتراما أكثر للحقن الشرجية . ولكن الغلو كائن في دم
الهجو ، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونه ، ولعل موليير يكون أجل
وأعظم قدرا لو أنه وجد سبيلا لهجو الشر الأساسى الذى لوث ذلك العهد -
ونعنى ذلك الجشع الحربى والاستبداد المدمر الذى ابتلى به لويس الرابع
عشر ؛ ولكن هذا المستبد المنعم هو الذى حماه من أعدائه ويسر له أن
يشن الحرب على التعصب . وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده
أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميرا !

إن فرنسا تحب موليير ، وما زالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجائرا
شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولا نستطيع كما يريد بعض الغالين (الفرنسيين)
المتحمسين أن نسوى بينه وبين شاعر إنجلترا ، فلقد كان جزءا فقط من
شيكسبير ، الذى كان جزءا من الآخرين راسين ومونتيني . كذلك لا نستطيع
كما يفعل الكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسى . لا بل إننا لسنا على
يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن «وايير كان
أعظم شعراء عهده ، حين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب « فيدر »
ولا « آتالى » . ولكن فى موليير ، ليس السكائب فقط هو الذى ينتمى
لتاريخ فرنسا ، بل الإنسان : مدير الفرقة المرهق الوفى ، والزوج المخدوع
الصنوج ، والمسرحى الذى يخفى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى
يواصل حتى الموت حربه على الفقر ، والتعصب ، والخرافة ، والنفاق .

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي

١٦٤٣ - ١٧١٥

١ - جو الكلاسيكية

لم يسكن أوج الأدب الكلاسيكي الفرنسي دواكباً تماماً لعصر لويس الرابع عشر ، بل جاء إبان وزارة مازاران وفي الربيع المشرق لهذا العصر (١٦٦١ - ٦٧) ، قبل أن ينحى مارس (إله الحرب) ربات الفنون إلى المؤخرة . أما أول حافظ للتفجير الأدبي فقد انبعث من أشجع ريشليو للدراما والشعر ، وجاء الثاني من الانتصارات الحربية التي حققها الفرنسيون في روكروا (١٦٤٣) ولنز (١٦٤٨) ، وانساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية في معاهدتي وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩) ، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبل والمتنفقات من النساء في الصالونات ، والحافز الأخير فقط هو الرعاية التي حظي بها الأدب من الملك والحاشية . وكثير من روائع ذلك العهد - كرسائل بسكال (١٦٥٦) وخواطره ، وطرطوف موليير (١٦٦٤) ومسرحية وليمة التمثال الجبري (١٦٦٥) ومبغض البشر (١٦٦٦) ، وأمثال لاروشفوكو (١٦٦٥) وهجائيات بوالو (١٦٦٧) وأندروماك راسين (١٦٦٧) - هذه كلها كتبت قبل ١٦٦٧ بأقلام رجال ثموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران .

ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله . فامضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم (١٦٦٢ - ٦٣) - أي قبل هذه الآثار

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها — حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يسكفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أى بلد، ممن يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة . ومن هذه القوائم تلقى خمسة وأربعون فرنسيًا وخمسة عشر أجنبيًا معاشات ملكية (١) . وأدهش الأدبيين الهولنديين هاينسيوس وفوسسيوس ، والفزيائي الهولندي كريستيان هويجنس ، والرياضي الفلورنسي فيفيانى ، وكثيراً غيرهم من الأجانب ، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسي أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم . وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات في العام . فعاش بوالو صعيد الشعر غير الرسمي ، على معاشاته كأنه إقطاعي كبير ، وترك لورنته ٢٨٦.٠٠٠ فرنك نقداً ، وتلقى راسين ١٤٥.٠٠٠ فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكي (٢) . ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة في كسب أرباب الأقلام خارج فرنسا ، أما الهبات في الداخل فهدفها إخضاع الفكر ، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين . وتحقيق هذا الهدف ، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة ، وأذعن الذهن الفرنسي للإشراف الملكي على تعبيره المطبوع ، باستثناء مقاومة متفرقة ضئيلة . يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقلام المأجورة ستتمنى بمديحه ثراً وشعراً وتحلف للتاريخ صورة مشرقة له . وقد بذلوا في هذا قصاراهم .

ولم يسكتف لويس بعرف المعاشات للأدباء ، بل إنه حماهم واحترمهم ، ورفع مقامهم الاجتماعي ، ورحب بهم في القصر . قال مرة لبوالو « تذكر أنني سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتي (٣) » . وربما كان ذوقه الأدبي مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية ، خصائص النظام ، والوقار ، وجمال الشكل ؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن في رأيه معينة على توطيد الحكم فحسب بل على إضفاء النبل على فرنسا . وكان من بعض الوجوه

متقدما على شعبه وبلاطه فى أحكامه الأدبية . وقد رأيناه يحمى مولير من غدر النبلاء ورجال الدين ، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين .

وعلا باقتراح آخر من كولير ، وترسما لخطى ريشليو مرة أخرى ، أعلن لويس أنه الراعى الشخصى للأكاديمية الفرنسية ، ورفعها إلى مرتبة المؤسسات الحكومية الكبرى ، ووفر لها الأموال الكافية ، وهيا لها مكانا فى اللوفر . وأصبح كولير نفسه عضوا فيها . ولما أمر عضو ، كان إقطاعيا كبيرا فى الوقت ذاته ، بأن يوضع له مقعد وثير فى الأكاديمية ، أرسل كولير فى طلب تسعة وثلاثين مقعدا على شاكلته حفاظا على المساواة فى الكرامة قبل القوارق الطبقية ، وهكذا أصبحت « المقاعد الأربعون » مرادفا للأكاديمية الفرنسية ، وفى ١٦٦٣ نظمت أكاديمية فرعية للنقوش والمسائل لتسجل أحداث العهد .

واستوثق كولير من أن « الخالدين الأربعين » يسكبون رواتبهم بالانتظام فى الحضور وبالجهد فى تصنيف القاموس . وكان مشروع هذا القاموس الذى بدأ فى ١٦٣٨ يتقدم فى ببطء شديد ، حتى استطاع بواروير أن يعبر أبجديا عن أمنيته فى طول العمر ، « لقد أنفقوا ستة شهور وهم مشغولون بحرف F ، فليت قد رى يعملنى حتى حرف G (٤) » .

كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل ، فقد رأت تتبع كل كلمة مسموح بها طوال تاريخ استعمالها وهجاءاتها ، ويشفع هذا بالكثير من الشواهد التوضيحية ، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء المشروع ، ونشر القاموس لأول مرة (١٦٩٤) . ولقد أسرف فى فحص لغة الشعب ، والمهن ، والغنون ، وشذب رابليه ، وآميو ، ومونتيني ، ورفض مئات التعبيرات التى تمين على الحديث الحى . فذات المنطق ، والدقة ، والوضوح الذى جعل من الهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته ، وذات السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولير على الاقتصاد ولبرون على

الفنون ، وذات الوقار والتألق اللذان سيطرا على بلاط الملك ، وذات التشبث الكلاسيكي بالقواعد الذي شكل أسلوب بوسويه ، وفينيلون ، ولاروشفوكو ، وراسين ، وبوالو — كل أولئك أملى قاموس الأكاديمية .

ولقد نقح وأعيد نشره دورياً ، وكافح للاحتفاظ بالنظام في جسم نام حي ، وبما جت قلعته الكلاسيكية المرة بعد المرة ، وكثيراً ما افتحمتها ، أخطاء الشعب ، ومصطلحات العلوم ، وورطاة الحرفيين ، وعامية الشوارع ، واقاموس ، شأنه شأن التاريخ والحكومة ، مزاج من القوى بين ثقل الكثرة وقوة القلة . وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية ، وكسبت الكثير من حيث النقاء ، والدقة ، والأناقة ، والمكانة . أنها لم تنسجب شيكسبيراً هائجاً مائجاً ، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوروبا احتراماً ، وغدت أداة الدبلوماسية ، ولسان الارستقراطيات . وظلت أوروبا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية .

٣ - تذييل لكورني : ١٦٤٣ - ٨٤

بلغت اللغة أوجها في السهولة المرنة التي اتسم بها حوار موايير ، وفي بلاغة كورني الطنانة ، وفي تألق راسين الشعبي .

أما كورني فكان يبدو في ربيع أدبه — وهو في السابعة والثلاثين — حين اعتلى لويس العرش : وقد بدأ العهد بملهاة « السكذاب » التي رفعت نبرة الملهاة الفرنسية كما رفعت « السيد » نبرة المأساة . ثم راح يدفع إلى المسرح بالمأسى كل طام تقريباً بعد ذلك ، رودجون (١٦٤٤) ، وتيودور (١٦٤٥) ، وهيراقليوس (١٦٤٦) ودن سانشو الأراجوني (١٦٤٩) وأندروميد (١٦٥٠) ويسكوميد (١٦٥١) وبرتاريت (١٦٥٢) . ولقى بعض هذه التمثيليات استقبالا حسنا ، ولكن حين تعاقبت كل منها سريما خلف سابقها ، وضع أن كورني يتمجّل الإنتاج ، وأن عصارة

عبقريته آخذة في النضوب . وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط محرم من الجدل . وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف . قال موليير « إن لصديقي كورني رقيقاً يلهمه أروع شعر في الدنيا . ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شؤونه ، وعندها يتعثر شعره (٥) . » وقد لقيت « بارتاريت » من سوء الاستقبال ما حمل كورني على أن يعتزل المسرح ست سنوات (١٦٥٣ — ٥٩) ، وتناول نقاده في سلسلة من « الفصوص » ، وفي ثلاثة أحاديث عن الشعر المسرحي . وقد دلت هذه الأحاديث على صمود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية ، وأصبحت يذبوطن للنقد الأدبي الحديث ، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة في نثر رائع .

وفي ١٦٥٩ ردت كورني إلى خشبة المسرح لفتة تلقاها من فوكيه . وظفرت مسرحيته « أوديب » ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها ، ولكن المسرحيات التي تلتها — سرتوريوس (١٦٦٢) ، وسوفونيسب (١٦٦٣) ، وأوتون (١٦٦٤) ، وأجيسيلاس (١٦٦٦) وأتيلا (١٦٦٧) — هذه كلها كانت قاصرة قصورا لم يستطع فونتنبيل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورني ، وقال بوالو في بيت ساخر :

« بعد أجيسيلاس ، وا أسفاه ! ولكن بعد أتيلا ، فف ! » وزادت مدام هنرييتا الطين بلة ، مع أنها كانت عادة آية العطف والرفقة ، حين دعت كلا من كوزني وراسين ، بعلم من كل ، إلى أن يكتب تمثيلية في ذات الموضوع — وهو بيرنيس ، الأميرة اليهودية التي وقع في حبها تيطس الإمبراطور القادم . ومثلت بيرنيس التي ألّفها راسين في الأوتيل دبورجون في ٢١ نوفمبر ١٦٧٠ بعد خمسة أشهر تقريبا من موت هنرييتا ، ولقيت نجاحا كاملا . أما مسرحية كورني « تيطس وبرينيس » فقد مثلتها فرقة موليير بعد ذلك بأسبوع ، ولم تلق غير استقبال قاتر : وحطم فشلها روح كورني . وجرب حظه ثانية بمسرحيته « بولشيري » (١٦٧٢) وسورينا (١٦٧٤) ،

ولكن الفشل كان نصيبهما أيضا . وأنفق كورني بعد ذلك السنين العشر التي بقيت له من أجله في تقوى هادئة مكتتبة .

وكان متلافا ، مات فقيرا برغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفعه به من هبات ، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات ، فلجأ كورني إلى كولبير ، فأمر برده إليه ، ولكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير . فلما نعى الأمر إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر ، وعرض أن ينزل عن معاشه لكورني . ولكن الملك بادر بإرسال مائتي جنيه للشاعر العجوز ، الذي مات بعدها بقليل (١٦٨٤) بالغ الثامنة والسبعين . وأبنه في الأكاديمية الفرنسية مزاحمه الذي كان قد خلفه ، ورفض المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما ، والتأبين مازال مذكورا لما حوى من صراحة وبلاغة .

٣ — راسين : ١٦٣٩ - ٩٩

ولد مثل موليير في أسرة متوسطة . وكان أبوه مراقبا لاحتكار الدولة للملح في لافيرتي — ميلون ، على نحو خمسين ميلا شمال شرق باريس ، وكانت أمه ابنة محام في فيليه — كوتريه . وقد ماتت عام ١٦٤١ وجان لم يبلغ الثانية بعد ، وبعد سنة مات أبوه ، فكفل الصبي جده لأبيه . وكان في الأسرة نزوع قوى إلى الجانسانية ، فقد التحقت جدة وعمة لراسين بأخوات البور — رويال ، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى « المدرسة الصغيرة » التي يديرها « المتوحدون » . وقد تلقى عنهم تعليمًا مركزًا في الدين واليونانية — وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته . واستهوته تمثيليات سوفوكليس ويوريبيديس فترجم بعضها بنفسه . ثم تعلم شيئا من الفلسفة ومريدا من الثقافة الكلاسيكية في كلية آركور بباريس ، واكتشف المفتاح الخفية للألوانة الشابة ، الجديد منها

والمستعمل . وعاش طامنين على شاطئ « الجزائر » أوجوستان مع ابن عمه نيكولا فيتار ، الذى كان يتردد بين البور — رويال والمسرح . واستمع راسين إلى عدة تمثيليات ، وكتب تمثيلية ، وعرضها على موليير . ولم تسكن من الجودة بحيث تستحق الإخراج ، ولكن موليير نفحه بمائة جنيه ذهبى ، وشجعه على أن يعيد الكرة . واستقر رأى راسين على اتخاذ الأدب حرفة له .

وهال هذا الجنون أقرباه ، وراعهم ما نعى إليهم من أنباء غرامياته ، فأرسلوه إلى أوزيس بجنوبى فرنسا (١٦٥٩) مساعداً لهم له كان كاهناً لكتدرائية ، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قسا . أما الشاعر الشاب ، الذى مازال باطنه يضطرم بنار باريس ، فقد ظل طامساً يسدل على هذه النار عباءة سوداء ، وقرأ القديس توما الأكوينى . وقليلًا من أربوستو ويوربيديس بجانبه . وكتب الآن إلى لافونتين يقول :

« كل النساء رائعات ... لحلم غرض طرى ، ولكن بما أن أول شئ قيل لى هو أن آخذ حذرى ، فليست أريد أن أقول المزيد عنهن . أضف إلى ذلك أنه سيكون أمهانا لهيت كاهن ذى وقف أعيش فيه أن أخوض فى حديث طويل عن هذا الموضوع ، « بيتى بيت الصلاة يدعى » ... لقد قيل لى « كن أسمى » فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية ، فإنى أستطيع على الأقل أن أكون أبكم ... لأن على المرء أن يسكون راهباً مع الرهبان ، كما كنت ذئباً معك ومع غيرك من ذئاب قطيعك (١٦) » .

ولقى الكاهن شداً وأصبحت الوظيفة الكهنوتية الموعودة أملاً بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسية . فبدل ثوبه ، وطوى كتاب « خلاصة اللاهوت » وعاد إلى باريس (١٦٦٣) .

فلما بلغها نشر نشيداً أتاه بمائة جنيه من جيب الملك . واقترح عليه موليير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيليته الثانية « طيبة » (التيبايد) . وأخرجها

موليير في ٢٠ يوليو ١٦٦٤ ، ولكنه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض .
على أنها أحدثت من الضجة ما كفى لسماعها في البور — رويال — دوشان .
وأرسلت إليه صمته من هناك رسالة تستحق أن نوردتها باعتبارها جزءاً من
دراما تعدل في بلاغتها وتأثيرها في النفس أى شيء كتبه راسين :

« حين نجي إلى أنك تنوى الحضور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لي
برؤيتك ولكنني سمعت مؤخراً خبراً أثار في أشجاننا صمقة ، وإنني
أكتب إليك في مرارة قلبي ، وأذرف الدمع الذي أرجوان أسكبه غزيراً
أمام الله لأنال منه خلاصه الذي أتوق إليه أشد بما أتوق لأي شيء آخر في
العالم . فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أى وقت مضى معشراً
اصمهم بحق رجس عند كل من له أى نصيب من تقوى ، لأنهم محرومون
من دخول الكنيسة ، أو تناول الأسرار المقدسة . . فانظر الآن يا ابن أخى
إلى أى حال صرت ، لأنك لا بد عليم بما أشعر به نحوك من حنان ، وبأنه
لم يكن لي من سؤال إلا أن تتبع الله في وظيفة شريفة . لذلك أتوسل
إليك يا ابن أخى العزيز أن ترحم نفسك ، وتفحص قلبك ، وتأمل بمجد أى
هوة تردت فيها . أننى لأرجو ألا يكون صحيحاً ما أثبتت به ، ولكن إذا
كان سوء طالعك قد بلغ مبلغاً يجعلك على مواصلة تجارة تشينك أمام الله
والناس ، فعليك ألا تفكر في الهوى لرؤيتنا ، لأنك تفهم جيداً أننى لن
أستطيع في هذه الحالة أن أكلمك لعلنى بأنك في حالة مؤسفة جداً ،
مناقضة كل المناقضة للمسيحية . ولن أكف في الوقت نفسه عن التضرع لله
ليرحمك ، فيرحمنى برحمته إياك ، لأن خلاصك عزيز على جداً (٧) » .

فها هنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذى تسجله صفحاتنا عادة — عالم
من الإيمان العميق بالمقيدة المسيحية ، والولاء المحب لدستورها الأخلاقى .
ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تكتب بمثل هذا
الأخلاص في العاطفة ، ولم تخل من العذر لرأيها في المسرحية الفرنسية كما

كانت في شبابه . ولم تبلغ عبارة يسكول العلية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو ، وكان قد علم راسين في البور — رويال :

« كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب .. تمثيليات المسرح ... وهذه المهنة في نظر ذوي العقول الراجحة ليست في ذاتها مهنة شريفة جداً ، ولكن إذا نظر إليها في ضوء الدين المسيحي وتعليم المسيح كانت في الحق مهنة رهيبة . فالروائيون نجار مسموم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم (١) » .

واجاب كل من كورني وموليير وراسين على هذا الاتهام على حدة ، وكان في جواب راسين من العنف الغاضب ما جعله يندم عليه اشد الندم في سنوات لاحقة .

وتلا خصامه مع البور — رويال خصام مع موليير بعد قليل . ففي ديسمبر ١٦٦٥ قدمت فرقة موليير تمثيليه راسين الثالثة « الإسكندر » وكان موليير كريماً كما دته ، فهو عليم بأن راسين لم يعجب به مثلاً تراحيدياً ، وان المؤلف الشاب بهيم بأجل ممثلاته وإن لم تسكن اكتفاهن ، لذلك اخرج نفسه والمرأتين بيجار من شخصيات المسرحية ، واعطى الدور النسائي الأول لتريز دبارك ، ولم يرض بمال على الأخراج . وقد لقيت استقبالا حسناً ، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل . فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية ، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير واعطائها لهذه الفرقة المنافسة . وأقنع الأنسة دبارك التي أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتنضم إلى الفرقة الأقدم وعرضت المسرحية في مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة في أكثر قليلا من شهرين . ولم تسكن من روائع راسين ، ولكنها وطدت مكانته خلفا لسكورني ، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة . فحين قال له راسين مفاخرأ « اني أنظم شعري في يسر مدهش » أجابه بوالو « أريد أن أعلمك كيف تنظمه في عسر (١) » . ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكي .

ولا علم لنا بمدى العصر الذى نظم به راسين « أندروماك » ، على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسس لوبه الشعرى . وهو يذكر فى إهدائه المسرحية إلى مدام هنرييتا أنه قرأها عليها ، وأنها بسكت . ومع ذلك فهى مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة ، وفيها كل السكارنة المحتومة التى تتوقعها فى إسخيلوس أو سوفوكليس . والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغرامية . فأوريست يحب هرميون ، التى تحب بيروس ، الذى يحب أندروماك ، التى تحب هكتور ، الذى مات . وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى فى انتصار اليونان على طرواده : منح أبيروس ، مسكة له ، وأندروماك (أرملة هكتور) أسيرة له ، وهرميون (ابنة منيلاوس وهيلانة) زوجة له . أما أندروماك فلا تزال شابة جميلة ، وإن لم تكف عن المكاء ، وهى لا تحب إلا لتذكر زوجها النبيل ، وتخاف على طفلها أستيانا كس ، الذى ينقذه راسين — باتحراف مسرحى عن القاعدة — من الموت الذى كان يصيبه فى يوريبديدس ليستعمله هنا أداة فى يد القدر . ويفقد أوريست — بن كلينمسترا وقتلها — على أبيروس مبعوثا من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم أستيانا كس وموته باعتباره المنتقم المحتمل لطروادة فى المستقبل . ويرفض بيروس الاقتراح فى فقرة تمتنع موسيقاها على الترجمة . يقول ما معناه :

« إنهم يخشون أن تولد طروادة بهكتور من جديد ، وأن ابنه قد ينزع منى الحياة التى حفظتها عليه . سيئدى ، إن الأفراط فى التدبر يحرق أفراطا فى الحذر . إننى لا أستطيع أن أبصر المكاره من هذا البعد الكبير . وأنا أفسكر فجا كانت عليه هذه المدينة (طروادة) فيها مضى ، جبارة فى حصونها ، شديدة الخسوبة فى أبطالها ، سيدة على آسيا ، ثم أتأمل فى النهاية ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها — فلا أرى غير أبراج غطتها الرماد ، ونهر صبغت مياهه الدماء . وحقول هجرت ، وطفل مقيد بالأغلال ، واستظن أن طروادة تقوى على الثأر وهى على هذه الحال . آه ، لو كان ابن

هـكتور قدر عليه الموت ، فلم أبقينا عليه طاما كاملا ؟ ألم نكن قادرين على تقديمه قربانا على صدر يريام ؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى في طرواده ، يومها كان كل شيء مباحا ، وعبثا كانت تحتاج الشيوخ والطفولة بضعفهما في الدفاع عن نفسيهما ، فالنصر والقدرة - وهما أشد منا قسوة ، حرضانا على القتل وأفقدانا التمييز في ضرباتنا . إن غضبي على المغلوبين جاوز حد الصرامة ، ولكن يجب أن تبقى قسوتي بعد غضبي ؟ أ ينبغي أن أغتسل متلبسا في دم طفل برغم ما يتمسكنى من شفقة عليه ؟ لا يا سيدي ، فليبحث اليونان عن فريسة أخرى ، وليلاحقوا ما بقي من طروادة في غير هذا المكان . لقد بلغت نهاية الشوط في عدائي . ان ابيروس ستمتقذ ما أبتقت عليه طروادة » (١٠) .

هنا مأخذ واحد ، ذلك أن ييروس ، وربما راسين ، لا يدركان مبلغ ما تدين به شفقة الفاتح لغرامه بأم الطفل — إلى حد عرضه الزواج منها (مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له) ، واتخاذها أستياناكس ولدا ووريثا له . ولكنها ترفضه ، فهي لا تستطيع أن تنسى هكتور ، الذي قتله أبو ييروس . وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان ، فيروعها تهديده ، وترضى بالزواج منه ، ولكن هرميون — وهي في تصور راسين لها تضارع الليدي مكبث قوة — تشتعل غضبا لأنها نبذت ، فهي تعزم قتل ييروس رغم أنها لا تزال تحبه ، وتقبل ما يعرضه أوريسث من حب وولاء ، شريطة أن يقتل ييروس . فيوافق كارها . وفي كل خطوة وكل شخص من أشخاص هذه المسرحية صراع في الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروفة في الأدب . ويقتحم الجندي اليونان الهيكل ويقتلون ييروس عند المذبح الذي يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك . وتحترق هرميون أوريسث ، وتجرى إلى المذبح ، وتعتمد مدية في جسد ييروس الميت ، ثم تطعن نفسها وتموت . هذه أعظم مسرحيات راسين ، وهي خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شيكسبير ١٤ — قصة الحصار

أويوريبيديس : حبسكة متينة البناء ، وشيخوخ كشف عنها في عمق ، ومشاعر مدروسة في كل تعقيدها وحدثها (*) ، وشعر فيه من الروعة والتناغم مالم تسمعه فرنسا منذ رونسار .

واعترف الناس بأن دروماك للتو رائعة من روائع الأدب ، فوطدت مقام راسين خليفة لسكورني وربما متفوقا عليه . ودخل الآن أسعد عقد في عمره ، متنقلا من نصر إلى نصر ، بل متحديا مولير بملهاة من قلبه . والملهاة ، واسمها « المتخاصمون » ، وهي تقليد ساخر (برلك) للمحاميين الجشعين ، وشهود الزور ، والقضاة الفاسدين — هذه الملهاة كانت صدى لتجربة راسين مع القانون . ذلك أنه التمس دهنًا على دحل دير وحصل عليه ؛ ولكن راهبا نازعه دعواه ، وتلا ذلك دعوى قضائية امتد بها الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعا فتغلى عنها وتأثر لنفسه بكتابة المسرحية . ولم تسر النظارة في أول عرض لها ، ولكن حين مثلت في البلاط ضحك لويس الرابع عشر من قلبه على نكتها ضحكا جعل الجمهور يغير رأيه ، وأدت هذه الملهاة المتوسطة الجودة دورها في ملء جيب راسين .

على أن نعمة صغيرة قطعت عليه هناءه . ذلك أن خليلته دبارك ماتت في ظروف غامضة — سنفصلها في موضع لاحق — في ١١ ديسمبر سنة ١٦٦٨ . وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى ماري شانسلية . وكان لها زوج يقظ وصوت ساحر ، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر . واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فيدر ، وبعد ذلك اتزعا الكونت دكليرمون — تونير من جذورها (déracinée أي من راسين) كما قال أحد الظرفاء .

ومسرحية راسين « بريتايسكوس » (١٦٦٩) في رأيه أكثر أعماله اتقانًا ، وكثيرا ما تفضل على اندروماك ، شأنها شأن « فيدر » و « اتالي » .

(٥) انفجر عرق في مونفوري وهو يمثيها ومات بعد قليل .

على أن القاريء العصري لن يلتذها في أغلب الظن مهما كان غارقاً في تاسيتوس
ففيها أجربين السليطة ، وبريتانيكوس الشكاه وبوروس المتخبط ، ونارسيس
القذر ، ونيرون الممتلىء شراً — فما من شخص هنا يظهر لنا تعقداً أو تطوراً ،
أو يبدى لنا أنرا من نبل خليق بأن يخفف في موضع ما من أى مأساة
جديرة بقلم شاعر .

وكما أن بريتانيكوس فتشت عن قصتها في « قاعة القضاة » التي ذكرها
تاسيتوس ، فكذلك أخذت برينيس (١٦٧٠) قصة غرام امبراطور عن
سطر موجز لسويتون يقول فيه « فأرسل لتوه كارها برينيس السكرهة من
المدينة (١٢) » وتفصيل المسرحية أن تيطس الذي كان محاصراً أورشايم (٧٠ م)
كان قد أغرم بالأميرة اليهودية . ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات ،
إلا أنها تنبعه إلى روما خليعة له ، ولكنه حين برث العرش يدرك أن
الإمبراطورية لن تسمح بملكة أجنبية ، فيصرفها بمبارات ملكية متدفقة
تتميز بالإدراك السليم . وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت
برضاء الجمهور والملك ، الذي لا يدق استشف بسرور بلاطه وانتصاراته
في وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب :

« أرايت بهاء هذه الليلة ؟ ألا تمتلىء عيناك بعظمتها وأبهتها ؟ هذه
المشاعل ، وهذا الخطب ، وهذا الليل ذو اللهب المقدس ، وهاتيك النور ،
وتلك الشماعات ، وهذا الجمع من الناس ، وهذا الجيش ، وذلك الحشد من
الملوك ، هؤلاء القناصل ، وهذا السناتو — أولئك الذين قبسوا نورهم
الساطع من حبيبي ، وهذا الأرجوان والذهب الذي يزداد تألقاً بتجده ،
وهذا الغار الذي مازال يقوم شاهداً على انتصاره ، وهذه العيون التي تراها
قادمة من كل فج لتلتقي فيه وحده نظراتها الملهوفة ؛ هذه الطلعة الجليلة ،
وهذه الحضرة الحلوة . وحق السماء ! بأى اجلال وبأى رضى تؤكد له كل
القلوب سرائقها به ! تسكلم : أيستطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

كما يخطر لي ، أنه لو كان القدر قضيحاً ، بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده .
بمجرد النظر إليه (١٣) ٢ .

امن العجب إذن ان ترى راسين ، وهو على هذا الخلق في الرلني ، ينال
الخطوة السريعة عند الملك ؟

ونمر في احترام ببعض مسرحياته الأقل شأنًا ، وكلها ما يزال يحتل خشبة
المسرح الفرنسي : بايريد (١٦٧٢) ، ومتردات (١٦٧٣) التي فضلها لويس
على كل مسرحياته ، وإفجيني (١٦٧٤) ، التي وضعها فولتير في صف واحد
مع أثنائي باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر (١٤) . وقد عرضت أفجيني
أول مرة في حدائق فرساي على ضوء الشمعدانات البلورية المعلقة في أشجار
البرتقال والمان ، وعزف العازفون على السكمان وانعطفت قلوب نصف النخبة
للتفرجة ، وتقدم راسين ليشكر النظارة على أغلى تصفيق لقيه في حياته .
وحين أخرجت في باريس امتد عرضها أربعين مرة في شهور ثلاثة . وكان قد
انتخب أثناء ذلك عضواً في الأكاديمية الفرنسية (١٦٧٣) . وبدأ أن سمادته
قد اكتملت .

على أن السعادة لم تسكتب إلى الآن للشعراء ، إلا أن يكون الجمال
فرحة لا تنهى ، والثناء لا يقطعه صوت ناشز . قال راسين لابنه : لقد طالما
أبهجني جداً ذلك الاستحسان الذي قوبلت به ، ولكن أقل لوم ناقد . . .
كان يسبب لي دائماً من الضيق قدراً أكبر من كل السرور الذي يدخله على
المدبح (١٥) . فهو لم يكن شديد الحساسية لحسب ، كما لم يكن بد من أن
يكون ، بل ضيق الخلق ، يرد على كل كلمة نابية . وفي ذروة مجاحه وجد
نصف باريس تنتقده ، لا بل تعمل على إسقاطه . كان كورني قد صر فوق
ما ينبغي ، ولكن مريديه تذكروا ما التسمت به مآسيه الأولى من نبرة
بطولية وموضوعات ملحمية ، وما شاع في بلاغته من نبل ، وذلك المستوى
السامي الذي رفع إليه دواعي الشرف والدولة ، فوق أهواء القلب . واتهموا
راسين بتلوين المسأساة بمواطف نصف مجنونة تنفعل بها مخلوقات خسيسة ،

وبادخال مغازلات حب التصور إلى المسرح ، وإغراقه بدموع بطلاته ، فصمموا على إسقاطه .

فلما عرفت أنه يكتب « فيدر » أقنع فريق من خصومه نيكولا برادون بأن يكتب مسرحية منافسة في الموضوع نفسه . وكان للمسرحيتين نفس العنوان في الأصل — فيدر وهيبوليت — وابتثقتا من أسطورة رواها يوربيديس من قبل بما عهد فيه من قصص كلاسيكي في العاطفة . ففيدر ، زوجة ثيسوس ، تولى ولماً شديداً هيبوليت بن ثيسوس من زوجة سابقة ، ولكنهما تجده بارد العاطفة نحو النساء فتشنق نفسها بعد أن تترك خطاياها تهمة فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً منه ، ونفى ثيسوس ابنه البريء ، الذي لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطئ تروزين . ولكن راسين غير ترتيب الأحداث ، فجعل فيدر تنجرع السم بعد سماعها بموت هيبوليت . ومثلت مسرحية راسين في الأوتيل دبورجون في أول يناير سنة ١٦٧٧ ، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينيجو . ولقيت التمثيلتان نجاحاً متكاملاً إلى حين ، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان ، في حين تعتبر تمثيلية راسين عادة رائعته الكبرى ، ودور فيدر تصبو إلى تمثيله كل الممثلات الفرنسيات ، كما يستهوى دور هاملت للممثلين التراجيدين في المسرح الإنجليزي* . ولقد بارى راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحذى في الأسلوب الكلاسيكي ، في عاطفية غرام فيدر ، وجعل هيبوليت يتعرق شوقاً للأميرة أريسيا (وهذا مناقض الأسطورة) . وتعلم فيدر بنياً هذا الغرام ، ويمطينا راسين في تفصيل منمعل دراسة للمرأة إذا ازدرت . وهو يخفف من هذه التحليلات الرومانسية بوصف قوى تحليل هيبوليت المذمومة وهي تجرّه حتى يلقي حتفه .

وفي المقدمة التي يصدر بها راسين تمثيلته فيدر (إذ بدأ يشتد فيه

(*) هند آدم سميث أن فيدر « ربما كانت أروع مأساة في أي لغة » (١٦) .

الحافظ الدينى كلما ضعف الحافظ الجنىسى (يلوح بغصن الزيتون للبور —
رويال فيول :

« لست أجروء على أن أؤكد لنفسى أن هذه . . . خير مأسى . . .
ولسكنى وأثق أننى لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة فى ضوء أفضل .
فأنقذ الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً ، ومجرد التفكير فى الجريمة ينظر إليه
هنا نظرة الاستهجان التى ينظر بها إلى الجريمة ذاتها ، وعثرات الحب ينظر
إليها هنا كأنها عثرات حقيقية ، والمواطن المشبوهة لا تعرض على الأنظار
إلا لترى الخلل التى هى السبب فيه ، والرديلة مصورة فى المسرحية كلها بألوان
تتيح لنا أن نراها ونسكرها شكلها الشائى . وتلك هى الغاية الصحيحة التى
ينبغي أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب . ولعل هذه أن تكون
وسيلة المصالحة بين الدراما المأساوية ، وكثيرين من الأشخاص المعروفين
بتقواهم وتعاليمهم ، والذين أدانوها مؤخراً ، ولكنهم سيحكمون عليها حكماً
أكثر عطفاً لوعنى المؤلفون بتعليم جمهور النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم ،
ولو ترسموا فى هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة (١٧) » .

ورحب آرنو ، المعروف بتقواه وتعاليمه ، بهذه النغمة الجديدة ، وأعلن
رضاه عن فيدر . ولعل راسين وهو يكتب المقدمة ، وقد بلغ الثامنة
والثلاثين ، كان يتطاع إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة
بدل النساء الكثرات . فى أول يونيو سنة ١٦٧٧ تزوج زوجة أنه بمار
كبير . وقد اكتشف ما فى الحياة العائلية من أسباب الراحة ، ووجد من
البهجة فى ابنه البكر أكثر مما وجد فى أكثر مسرحياته توفيقاً . وكانت
غيرة مزاحمية ودسائسهم قد نفرت من المسرح ، فألقى جانباً الخطوط والمذكرات
التي كان قد أعدها لأربع مسرحيات ، واقتصر طوال اثني عشر عاماً على
كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين . لاسيما تأليف تاريخ للبور - رويال
طابعه التبجيل والولاء البنوى .

ونفس عليه هذا الهدوء المثالى حادث مؤسف أليم . ذلك أن الحكمة

الخاصة التي كانت تحقق عام ١٦٧٩ في تهم التسميم الموجهة ضد كاترين موفوازان استملت منها اتهاماً لراسين بأنه سمم خليلته تريز دبارك . وأدات «لأفوازان» بتفاصيل الاتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززه . وإذ كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالأعدام ، فأنها لم تكن تخسر شيئاً باتهام غيرها زوراً ، وقد لوحظ أن إحدى زبائننا وصديقاتها هي الكونتيسة سواسون ، وكانت عضواً في العصبة التي قاومت راسين في «غرام فيدر» (١٨) . ومع ذلك كتب لوفوا في أول يناير سنة ١٦٨٠ إلى المفوض بازان دبيزون يقول «إن الأمر الملكي بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه» ولكن حين تقدم التحقيق وبدأ أنه سيورط مدام دمونتسبان ، أمر الملك بحظر نشر سجل المحاكمة ، ولم يتخذ أى إجراء ضد راسين (١٩) .

وأظهر لويس ثقتَه المستمرة في الكاتب المسرحي . ففي سنة ١٦٦٤ رتب له معاشاً ، وفي سنة ١٦٧٤ خلع عليه وظيفة شرفية تغل له ٢٤٠٠ جنيه في العام في إدارة المالية ، وفي سنة ١٦٧٧ عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلاط ، وفي سنة ١٦٩٠ أصبح الشاعر موظفاً دائماً في معية الملك ، فأنته الوظيفة بمورد إضافي قدرة ألفان من الجنيهات . وفي سنة ١٦٩٦ بلغ من الثراء مبلغاً أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك .

وقد أتان أداءه النشيط لواجباته مؤرخاً ملكياً على مسرحه من المسرح . وكان يرافق الملك في حملاته ليسجل الأحداث تسجيلاً أدق . وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلاً نفسه بتربية ولديه وناته الخمس ، وكان يود أحياناً ، وسط صخبهم وضجيجهم ، لو أنه كان راهباً . وما كان ليكتب أى مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتون لجأت إليه في أن يكتب مسرحية دبلية بريئة ، من كل ما يتصل بالغرام ، تمثلها الفتيات اللاتي جمعتن في أكاديمية سان سير . وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل ، ولكن دمانتون الفاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة . ورغبة في ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته «إستير» .

ولم يكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل ، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة ، وأحاط بكل التاريخ المعقد المدون في العهد القديم . وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن ، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير اللابس الفارسية المطلوبة . فلما أخرجت (٢٥ يناير سنة ١٦٨٩) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة . واشتد الطلب على مشاهدتها ، من الكهنة أولاً ، ثم من الحاشية ، وعرضتها أكاديمية سان - سير اثنتي عشرة مرة أخرى . ولم تصل إستانبر إلى جماهير المتفرجين إلا سنة ١٧٢١ بعد موت الملك بست سنين ؛ وعندها (بعد أن فقد الدين الرماية الملكية) لم تلق إلا نجاحاً متوسطاً .

وفي ٥ يناير سنة ١٦٩١ أخرجت سان - سير أحدث مسرحيات راسين وهي « أتالي » . وأتاليا هي الملكة الشريرة التي ظلت ست سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية ، حتى عزلتها ثورة قام بها السكمان (٢٠) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس ، يدق صدورهم الإيمان اليهودي أو المسيحي الأصيل ، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القائمة مشبعة لهم . وبدأ أن التمثيلية صفت لطردها حيوات وانتصار الكهنوت الكاثوليكي ، ولسكنها من جهة أخرى حوت - - في إنذار رئيس الكهنة للملك الشاب جود - - تنديداً قوياً بالحكم المطلق :

« إنك وقد نشئت بعيداً عن العرش لم تشعر بمتنته السامة ، إنك لا تعرف الانتشاء بالسلطان المطلق ، وسحر المتملقين الجبناء . مما قليل سيقولون لك إن أقدم القوانين ٠٠٠ ينبغي أن تطيع الملك ، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته ، وأنه يجب أن يضحي بكل شيء في سبيل مجده الأعلى . . . وأسفاه ! لقد ضللوا أحكم الملوك (٢١) » .

وقد ظفرت هذه الآيات بالآلهة تحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر ،

ولعلها حدث بفولتير وغيره (٢٢) إلى اعتبار أثنى أعظم الدرامات الفرنسية .
على أن الآيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحتاج دفاعاً
عن خضوع الملوك للكهنة .

أما لويس ، الذى بز الآن راسين فى تقواه وورعه ، فلم ير بالثغيلية
بأسا . وواصل استقبال راسين فى انقصر رغم ما عرف عن الشاعر من
تعاطف مع البور — رويال . ولكن فى سنة ١٦٩٨ حجب الملك رضاه .
ذلك أن راسين ، بناء على طلب مدام دمانتون ، وضع بياناً بألوان المذاب
الذى ابتلى بها الشعب الفرنسى فى أواخر الحكم . وفأجأها الملك وهى تقرأ
الوثيقة ، وأخذها منها ، وانتزع منها اسم كاتبها ، وأخذته سورة الغضب
وقال « السكونه شاعراً خلا يحسب أنه يعرف كل شىء ؟ ألا أنه شاعر كبير
يريد أن يكون وزيراً أيضاً ؟ » أما دمانتون فقد أكدت لراسين وهى
تفيض فى الاعتذار له أن الزويعه ستمر سريعاً . ولقد مرت ، وما لبث راسين
أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالاً كريماً ، وإن بدا له أقل حرارة من
ذى قبل (٢٣) * .

أما الذى قتل الشاعر فلم يكن نظرة فائرة من الملك بل خراجاً فى
السكبد . وقد أجريت له جراحة ، وخف ألمه فترة ، ولكنه لم يكن واحداً
حين قال : لقد أرسل الموت لى كشف حسابه (٢٦) وجاء بوالو ، وهويشكو
المرض ، ليلازم صديقه العليل . وقال راسين « إنى معتبط لأنه منح لى أن

(*) يتولى ابن راسين : « لقد عاد إلى القصر غير مرة ، وكان على الدوام يشرف
بالحديث إلى حازم » (٢٤) أما سان — سيمون فيروى قصة غير هذه : فهو يزعم أن راسين
فقد الحظوة لأنه انتقد ملاهى سكارون فى حفرة مدام دمانتون والملك « وهنا اجر
وجه الأرملة المسكينه ، لا لانيل من سمه الرجل المشلول ، بل لسباعها اسمه ينطق به فى
حفرة خلفه . كذلك ارتبك الملك ... وانتهى الأمر بأن صرف الملك راسين زاعماً أنه
ذاهب إلى عمله ... ولم يكلم الملك لا مدام دمانتون بمداه راسين حق ولا نظراً إليه .
وهذا التعليل لسخط الملك على راسين مرفوض الآن صوما (٢٥) .

أموت قبلك (٢٧) » وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البور - رويال :

« أود أن تحمل جثتي إلى البور - رويال - دي - شان ، وأن تدفن في مقبرته .. إنني بكل تواضع التمس من الأم الرئيسة والراهبات أن يمنحنني هذا الشرف ، وإن كنت عليماً بأنني لا أستحقه ، سواء لما شاب حياتي الماضية من مخاز ، أو لتقصيري في الإفادة من ذلك التعليم الممتاز الذي تلقيته من قبل في ذلك الدير ، وما رأيت فيه من مثل رائعة في التقوى والتوبة ... ولكن كلما ازدادت إساءتي لله ازدادت حاجتي لصلوات هذه الجماعة العظيمة الورع (١٨) » .

ومات في ٢١ إبريل سنة ١٦٩٩ وقد بلغ التاسعة والخمسين . وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبنائه حتى مات آخرهم .

وتضع فرنسا راسين في صف أعظم شعرائها ، لأنه هو وكورنيي يمثلان أرقى ما وصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور . ولقد تقبل - بناء على حض بوالو - تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث : فبلغ بذلك تركيزاً لا يبارى للوجدان والقوة من خلال ممل واحد يقع في مكان واحد ويسكل في يوم واحد . وقد تجذب تطفل الحبكات الثانوية - وكل مزج بين المأساة والمهابة ، وأخرج العامة من مآسيه ، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات . وقد تقي لغته من كل الألفاظ التي قد تعد نابية في الصالونات أو البلاط ، أو تسكون محل استنكار في الأكاديمية الفرنسية . وشكا من أنه لا يجرؤ على أن يورد في تمثلياته عملية مبهتلة كعملية تناول الطعام ، وإن حفل بها شعر هو ميروس (٢٩) ، وكان الهدف هو بلوع أسلوب يعكس في الأدب حديث الأرستقراطية الفرنسية وطاقتها . وقد حدث هذه القيود من مجال راسين . وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير ، على شاكله سابقتها - وفي كل منها كانت العواطف واحدة .

على أن راسين شارف الرومانسية في طابع المشاعر التي عبر عنها وفي هدتها ، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية ، ففكرة العقل يطنى على الحياة ويضبط العاطفة والحديث . وبينما نجد العاطفة في كورنبي تؤكد على الشرف ، والوطنية ، والنبالة ، نجد هان في راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة ، ونحن نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه ، ومدام دسكوديرى ، ومدام دلافايت . وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة ، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس ، الذي تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى أفراط في الحماسة والوجدان . وفي هاملت أو مكبث من القصد في الحديث أكثر مما في أندروماك أو فيدر . وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه في أن « أول قاعدة » للدراما « هي أن تسر وأن تمس القلب » (٣٠) ، وقد فعل هذا بتعامله مع القلب ، وباختياره شخصه الرئيسيين من بين أفراد — كانوا عادة من النساء — مرهفي العاطفة ، وتحويله تمثيلياته إلى سيكولوجية العاطفة .

وقد وافق على الحظر الكلاسيكي للحركة العنيفة على المسرح ، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط . وألقى هذا عبئاً ثقيلاً على أسلوبه ، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب ، وكان استرساله في الآيات السكمدرية المتتالية — وهي ذات المقاطع الاثني عشر والقوافي المزدوجة — هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتبة المملة ، فنحن نفقد في راسين وكورنبي ما يطاق العنا في الشعر الإليزابيثي المرسل من مرونة ، وطبيعية ، وتنوع لا آخر له . وياله من جهد عبقرى ذلك الذي اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تماثله الممل ، بقوة الأسلوب وجماله ! أن راسين وكورنبي ينبغى ألا يقرأ ، بل يجب أن يسمعا ، وحبذا أن يكون ذلك ليلاً في فناء الأنفاليد أو اللوفر .

والمفاضلة بين راسين وكورنبي هواية قديمة لدى الفرنسيين . أما مدام دسفينيه ، فأنها بعد أن شهدت « بايزيد » وقبل أن تمثل — إفجينى

أو فيدر — انحازت إلى كورنبي بحماسة للألوفة . وقد تنبأت في تهور ،
ولكن ربما بحق ، بأن :

« راسين لن يستطيع أبدا أن يتجاوز .. أندروماك ... فتمثلياته مكتوبة
للانسة شانمسلية . . وسوف يتضح حين يكبر ، ويكف عن الحب ، هل
أخطاء الحكم أم أصبت . إذن فليعش صديقنا كورنبي طويلا ، واستغفر له
الآبيات الرديئة التي تصادفها في شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التي
كثيراً ما تنتشى بها » . . .

وهذا على العموم رأى كل ذى ذوق سليم^(٣١) . ولكن فولتير الذى
اضطلع بنشر أعمال كورنبي والتعليق عليها ، صدم الأكاديمية الفرنسية بنقده
لأخطاء المسرحى الكبير وفجائاته ولغته الطنانة . كتب يقول « أعترف
أننى بنشرى كورنبي أصبحت من عباد راسين^(٣٢) » وقد أقر الزمن بهذه
الأخطاء ، واغفرها لرجل لم يحفظ بما حظى به راسين من ميزة المجيء بعد
كورنبي . فالارتفاع بالدراما الفرنسية من مستواها السابق إلى مكانة « السيد »
« وبوليوكت » كان إنجازاً أشق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنغوم
الذى تجسده فى « أندروماك » « وفيدر » . إن كورنبي وراسين هما
الموضوعان الذكر والأنثى فى شعر القرن العظيم — التعبير القوى عن الشرف
والحب . . . وعلينا أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس بالتساع الدراما
الكلاسيكية الفرنسية وقوتها ، تماماً كما يجب ان نأخذ ميكلانجلو ورفائيل
معاً إن اردنا ان نحكم على النهضة الإيطالية ؛ او بيتهوفن وموتسارت إن
اردنا ان نفهم الموسيقى الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر .

قال ديفد هيوم ، وكان اسكتلنديا حكيما ، ضليعاً فى لغة الفرنسيين
وآدابهم ، « فى المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان ، الذين تفوقوا
كثيراً على الإنجليز^(٣٣) » وذلك حكم كان خليقاً بأن يدهش راسين ذاته ،
الذى عبس دسوفوكليس باعتباره السكال مجسماً ، وان جرؤ على منافسة

يوربيديس . وفي هذا نجاح ، وهو ما يستحق عليه الثناء حقاً . فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شيكسبير وكورنبي ، ولم بدن منه إنسان بعد ذلك سوى جوته .

٤ - لافونتين : ١٦٢١ - ١٦٩٥

في ذلك العصر ، عصر الخصومات الأدبية الصارخة ، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة ، نصف الأسطورية ، بين بوالو ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين — « شلة » الأصدقاء الأربعة .

أما جان دلافونتين فكان العضو المنمور بين الجماعة . ولد كأصحابه لأسرة متوسطة ، ولا غرو فالاستقراطية في شغل بفن الحياة عن الفن . وكان مسقط رأسه شاتو — تيمري في شمبانيا ، وأبوه المدير المحلي للمياه والغابات ، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به ، وعشق الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والأنهار ، وكل ما كمنها ، وتعلم حادات العشرات من أنواع الحيوان ، وتكهن في تعاطف بغاياتها ، وهوومها ، وأفكارها ، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجري الكلام على السنة هؤلاء الفلاسفة متعددي الأرجل ، وأصبح « إيزوبا » آخر مذاًباً بقصصه الخرافية في ذاكرة الملايين .

وكانت نية أبويه أن يعداه للكهانة ، ولكن لم يكن به ميل للخوارق . وحاول أن يمارس القانون ، ولكنه وجد الشعر أسيرهما . وتزوج فتاة غنية (١٦٤٧) وأنجب منها ولداً . ثم اتفق مع زوجته على الانفصال (١٦٥٨) وذهب الى باريس ، وأبهج فوكيه ، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشا قدره ألف جنيه ، شريطة أن يتعفه بأشعاره أربع دفعات في السنة . فلما سقط فوكيه وجه لافونتين الى الملك التماساً شجاعاً يرجوه فية الصفح عن رجل المال . وكانت النتيجة انه لم يصطل قط بعدها في شمس الملك . فلما جرد من

معاشه ولم يكن لديه اى فكرة عن كسب قوته ، آوته واطعمته الدوقة
دبويون التى التقينا بها من قبل فى صفوف الفرونديات . واصدر وهو مستقل
بجناحها (١٦٦٤) أول كتاب فى « حكاياته » وهو مجموعه من الأقاصيص
الشعرية ، مكشوفة على الطريقة البوكاشية ، ولكنها مروية فى بساطة ساحرة
مالبت ان جعلت نصف فرنسا ، حتى المذارى المحجولات ، يقرأنها (٥) .

وبعد قليل أسكنته مارجريت اللورينية ، دوقة أورليان الارملة ، قصر
اللكسمبورج بوصفه وصيفاً لها . وهناك كتب مزيداً من حكاياته ، ومن
هناك دفع الى المطبعة بالكتب الستة الاولى من قصصه الخرافية (١٦٦٨) .
وقد زعم انها صياغة جديدة لخرافات إيزوب اوفيدروس ، وكذلك كان
بعضها ، وبعضها اخذ عن قصص الهند الاسطورية Bidpai وبعضها من
خرافات فرنسا ، ولكن اكثرها خلق من جديد فى ذلك الغدير الذى
يتدفق فى ذهن لافونتين وشعره . وكانت اول قصة خرافية تاخيسا غير
مقصود لحياته الخلية الطروب :

« بعد أن أنفقت الجراداة الصيف كله غناء ، ألقت نفسها حين أقبل الشتاء
مملقة لاتهلك ذبابه ضئيلة ولادودة حقيرة ، فضت تشكو جوعها لجارتها
التملة وتسألها ان تقرضها شيئاً من الحب تقنات به حتى يقبل الموسم الجديد .
وقالت « سأرد لك دينى قبل الحصاد ، واقسم على ذلك بدين الحيوان
ومصلحته ومبدئه . اما التملة فلم تسكن بمن يقرضون ، وهذا اقل عيوبها .
لذلك قالت للسائلة « أو ماذا كنت تفعلين فى الصيف ؟ » (٥)

(٥) خذ مثلاً قصة « صانع الأذان » . قالسبر ولیم يذهب لغناء مملحة فى المدينة
ويترك زوجته أليكس حبل . ويقلدها قريماً أندريه بأنه يستنتج من لون وجهها أن
هلدها سيولد ناقساً أذناً . ويمرض عليها أن يكون جراحاً لها ، ويفهمها أن نوبة حرام
كفيلة بتزويد الطفل بالأذن النافسة . وتقبل الوصفة ، وتتناول منها عدة جرعات ، حتى
يلطخ لها أن الطفل سيكون له من الأذان أكثر من اثنين . فاذا طاد ولیم صحح التوازن
الأحلافى بأهوائه . زوجة أندريه (٣٤) .

« كنت أغنى ليل نهار لكل وافد ، فلا بسوك هذا » . « كنت تغنين : يسمدنى
أن أسمع هذا . عليك اذن أن ترقصى الآن » .

كان لافونتين أحكم من ديكارت ، الذى ظن أن كل الحيوانات كائنات
آلية لا تفكر ؛ فقد أحبها الشاعر ، وأحس بتفكيرها ، ووجد فيها كلها دروس
الفلسفة العملية . وافتتنت فرنسا بتلقى الحكمة فى جرعات سهلة الهضم كهذه .
وأصبح كاتب هذه الخرافات أكثر المؤلفين قراء فى بلاده . واتفق النقاد مرة
فى حياتهم مع الشعب ، وأنشأوا عليه فيمن أنشأوا ؛ ذلك أنه برغم بساطته
الخالصة كان عليما بالفرنسية فى لونها الربى ورأيتها الترايبية ، وقد خلج
على شعره من الرشاقة الطيعة ، وطرق التعبير الحلوة ، والصورة الحية المحكمة ،
ما جعل كل البورجوازيين مدعى النبيل فى فرنسا يغتبطون لأن حيواناتهم ،
بل حشراتهم ، تنطق بالشعر طوال الوقت . قال فونتين « إنى استخدم الحيوانات
لتعليم الناس (٣٥) » .

وفى ١٦٧٣ ماتت مرجريت اللوريشية وألغى الشاعر نفسه غارقا فى الديون ،
وهو الذى كان يغنى فى غير تدبير للمستقبل ، ولم يحسن التصرف فى الأجور
المتواضعة التى أتت بها كتيبه . على أنه كان أكثر حظا من جرادته ، لأن
مدام دلاسا بليير ، المرأة المثقفة العطوف ، آوته وأطعمته ورعته بحمدب الآم
الرموم فى بيتها بشارع سانت - أوثرية ، وهناك طاش فى فتاعة هادئة الى أن
ماتت فى ١٦٩٣ . يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين : أولهما ينام فيه ،
والآخر لا يعمل فيه شيئا . ووصفه لايروبير بأنه رجل يستطيع أن ينطق
الحيوان والحجر بكلام رشيق أنيق ، ولكنه (٣٦) هو نفسه كان
« متبلدا ، ثقيلا » ، غيبا فى الحديث (٣٧) . على أن هناك روايات مناقضة زعمت
أن فى وسعه أن يكون محدثا مرحا إذا وجد آذانا تلائم مزاجه (٣٨) .
وقد أذاعت شروذذه عشرات النوادر ، الأسطورية الى حد كبير . من
ذلك أنه قال مرة معذرا عن وصوله الى العشاء متأخرا « عدت لتوى من جنازة

نعمه ، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة ، ثم رافقت الأسرة في رجوعها للبيت . (٣٩) »

وقد قام لويس الرابع عشر بانتخابه عضوا في الأكاديمية بحجة أن حياة الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذي يحتذى ، ثم لانت قنائه في النهاية (١٦٨٤) ، وقال ان لافونتين وعد بأن يصلح من سلوكه . ولكن الشاعر الهرم لم يعرف فرقا بين القضية والخطيئة ، انما عرف الفرق بين الطبيعي وغير الطبيعي ، فقد تعلم أخلاقياته في الغابات . وكان كموليير لا يشعر بأي انجذاب للبور — رويال ، هؤلاء « المجادلون البارعون » كما وصفهم ، الذين « تبدو لي دروسهم باعثة على الغم بعض الشيء » (٤٠) . وانضم حيناً إلى « شلة » أحرار الفكر في « التامبل » ، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على الطريق ، لاح له أن قد آن الأوان ليصليح ما بينه وبين الكنيسة ، ومع ذلك فقد تساءل « أكان القديس أوغسطين حكيماً حكمة رابليه (٤١) ؟ » ومات في ١٦٩٥ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وكانت ممرضته على ثقة من خلاصه الأبدي ، لأنه على حد قولها « كان فيه من البساطة ما يجعل الله يتردد في الحكم عليه بالهلاك » (٤٢) .

٥ ... هو الو : ١٦٣٦ - ١٧١١

في اللقاءات التي جمعت الأصدقاء الأربعة في شارع فيو كولومبييه كان نيقولا بوالو المسيطر عادة على الحديث ، وهو الذي وضع قواعد الأدب والأخلاق بكل سلطان الدكتور جونسون وثقته في حانة « رأس التركي » بحى سوهو . وكان كجونسون محدثاً أهم منه مؤلفاً ؛ وخير أصداله شعر وسط ، ولكن أحكامه كان لها في ميدان الأدب أثر أبقى مما كان لأحكام لويس الرابع عشر في السياسة . وقد أعادت صداقته وتقريظه الناقد لموليير وراسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لهما .

كان الطفل الرابع عشر لكاتب في برلمان باريس • وإذ كان منذور
للكهانة فقد درس اللاهوت في السوربون • ولكنه تمرد ، ودرس القانون
وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه (١٦٥٧) ، غلغلا
ميراثا يكفيه وهو يقرض الشعر • وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه ، ثم راح
يصدر أحكامه على زملائه في اثنتي عشرة هجية (١٦٦٦ وما بعدها) • ذلك
أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجياع (٢٣) روعه ، فهاجمه كأنه جيش من
الجراد ، وسمى بعضهم بأسمائهم ، فخلق له أعداء بقوافيه • وجر على رأسه
أيضا سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التي كانت السيدتان
سكوديرى ولافايت تضييعان بها ورق فرنسا ووقتها • وقد امتدح القدامى ،
وامتدح من بين المحدثين ماليرب وراكان ، وموليير وراسين • قال « أحسبه
من حقنا أن نسمى الشعر الرديء رديثادون أن تؤذى الضمير أو الدولة ، وأن
يكون لنا مطلق الحق أن نستشعر الضجر من قراءة كتاب غبي (٤٤) » • على
أن هذه الأهاجي تضجرناهي الأخرى لأن هدفها قد تحقق : فالشعراء الذين
أدانتهم هدموا هدمًا لم يبق على أنزلهم في ذاكرتنا أو في اهتمامنا ، يضاف
إلى هذا أن أصحاب العقول الغضة منا ، لاسيما إذا كنا مؤلفين ، يؤثرون
النقاد الذين يرشدوننا إلى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث •
وبعد أن ذهب بوالور في أهاجيه مذهب جوفينال الصارم ، خفف من
غلوانه بالتزام مذهب هوراس الأكثر اعتدالا ، ووصل إلى أسلوب ألين
في سلسلة من الرسائل (١٦٦٩ - ٩٥) • وهذه الرسائل الشعرية هي التي
أغرت لويس بدعوته إلى البلاط • وسأله الملك ما أفضل شعره في ظنه •
أما بوالوالذي كان يترقب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئا من شعره المنشور ،
ولكنه تلا بعض شعره في مدح الملك العظيم ، وكان أبياتا لم تطبع بعد قال
عنها إنها أقل شعره رداة • وأجازه لويس بمعاش قدره ألسان من
الجنهات (٤٥) ، وأصبح شخصا « مرضيا عنه » في البلاط • قال لويس
« أحب بوالوال أنه سوط تأديب ضروري نصلته على ذوق كتاب الدرجة
١٥ — قصة المضارة

الثانية السقيم (٤٦) . وكما أن لويس ساند موليير في حملته على المتعصبين ، كذلك لم يفه بأى احتجاج حين نشر بوالو ملحمة ساخرة سماها « لوتران » (١٦٧٤) ، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين النهمين . وفي ١٦٧٧ عين الشاعر الهجاء مؤرخا رسميا مسع راسين ، وفي ١٦٨٤ قبل نهائيا في الأكاديمية بأمر صريح من الملك ، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم .

أما القصيدة التي طفت به فوق دوامات الزمن فهي « فن الشعر » (١٦٧٤) التي ضارعت في تأثيرها النموذج الذي نسجت على منواله ، وهو كتاب هوراس *Ar poetica* ، ويستهل بوالو قصيدته بتنبيه شباب الشعراء الى أن « بارناس » جبل وعز ، فليستوثقوا اذن قبل أن يشرعوا في ارتقاء جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئا يستحق أن يقال ، شيئا يعزز الحقيقة ويعين على الادراك والذوق السليمين . وهو يقول لهم ناصحا : نوعوا حد يشكم ، فان أسلوبا بالغ التكافؤ شديد التماثيل (كأسلوب بوالو) يحملنا على النوم ، و « حبذا الشاعر الذي ينتقل ، بلمسة رقيقة ، من الخطير الى الخفيف ، ومن السار الى العنيف » (٤٧) . « وأرهبوا آذانكم لايقاع ألفاظكم . واتبعوا قواعد مايرب في اللغة والأسلوب . وادرسوا القدامى لا المحدثين : هومر وفرجل في شعر الملاحم ، وسوفوكليس في المأساة ، وتيرانس في الملهاة ، وهوراس في الهجاء ، وتيوقريطس في شعر الرعاة » . « اسرعوا في بطة ، وضعوا اتناجكم على السندان عشرين مرة دون أن يف ذلك في عضدكم . . . وأضيفوا اليه قليلا ، واخذفوا منه (٤٨) كثيرا . أحبوا من ينتقدونكم ، وصححوا أخطائكم دون تذمر وأنتم تنحنون لحكم العقل (٤٩) . واعملوا للمجد ، ولا تجمعوا السكسب الخسيس هدا لجهدكم (٥٠) . فاذا كتبتم درامات فراعوا الوحدات ، واجعلوا الفعل الواحد ، المكتمل في مكان واحد ويوم واحد ، يبق المسرح متمثلا بمجهوره الى النهاية (٥١) . ادرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة ،

فكلاهما غنى بالنماذج ، ولعل هذا هو السر في الفوز الذي حققه مولير
لفنه (٥٢) .

وانضم بوالو الى مولير في السخرية من « المتحذلقات » واحتقر شعر
الحب المتكلف الذي أضعف الشعر الفرنسي وقابل بين هذه العاطفية الكاذبة
وبين تمجيد ديسكارت للعقل وغرس الاداب القديمة لضبط المشاعر . وصاغ
مبادئ « الأسلوب الكلاسيكي » وأجملها في بيتين شهيرين « أحبوا العقل اذن ،
ولتقبس كتاباتكم منه بهاءها وقيمتها (٥٣) » فلازيف في العاطفة ،
ولا انفعال ، ولا كلام طنان ، لا تحذلق ، لا تكلف ، ولا غموض التباهي
والغرور . فالمثل الأعلى في الأدب ، كما في الحياة ، هو ضبط رواق للنفس ،
و « لا تزيد أو افراط » .

وقد أحب بوالو مولير ، ولكنه أسف على هبوطه الى درك المسلاة
« الفارص » . وأحب راسين ، ولكن يبدو أنه لم يفتن الى تمجيده
الرومانسي للوجدان ، ولم يلحظ بطلاته المتفجرات بالانفعالات - هرميون ،
وبرينيس ، وفيدر . والمقاتل لابد مبالغ في نصيبه من الحقيقة . ولقد
كان في بوالو من قوة المحارب ما أعجزه عن فهم ما قاله بسكال من أن للقلب
دواعيه التي لا يفهمها الدماغ ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملاسة
الرخام وبرودته . لقد سمح هوراس بالوجدان فقال « إن أردتني أن أبكي »
أي أن أحس مما تكتب ، « فعليك أن تبكي أنت أولا » أي عليك أن
تحس أنت بالأمر . ان فن العصور الوسطى وأدبها ظلا محجوبين
عن عين بوالو .

وكان اثر تعليمه هائلا . فقد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام
قواعده الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة . وشاركت هذه القواعد في تشكيل
أسلوب الأدب الانجليزي في « العصر الأغسطي » الذي قلد شاعره بوب
في صراحة « فن الشعر » في كتابه « مقال في النقد » . وكان تأثير
بوالو ضارا ونافعا . فهو باستنكاره الخيال والوجدان ، وضع صامما

على الشعر في فرنسا بعد راسين ، وفي إنجلترا بعد درايدن . واتخذ الشعر في أفضل نماذجه شكل النحت بالازميل ، ولكنه فقد دفء التصوير ولونه . ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل الى ساحة الأدب المحض ، فقد كتب الكثير جدا من اللغو عن الحب والرعاة ، واحتاجت أوروبا الى احتقار بوالو الغاضب حتى تظهر ذلك الجو الأدبي ، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية . وربما كان الفضل لبوالو في ارتفاع موليير من « الفارص » الى الفلسفة ، وفي محاولة راسين البلوغ بغيره الى مرتبة الكمال .

وكان مما يتلاءم وطبيعة بوالو تماما مسلكه بعد أن اشترى بيتا وحديقة في أنوى بفضل نفحة من نفحات الملك (١٦٨٧) ، فهو لم يذكر شيئا في كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم الا أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم « دسبريو » . هناك عاش أكثر ما بقي له من أجل في هدوء بسيط ، لا يزور البلاط إطلاقا ، ويرحب ترحيبا حارا بأصدقائه . وقد لاحظ الناس ان « له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل انسان (٥٤) » . وكان فيه من الشجاعة ما جعله على الإعراب عن عطفه الى البور رويال ، وعلى أن يخبر يسوعيا بأن رسائل بسكال الاقليمية احدى روائع النشر الفراسي . وقد صر بعد موت جميع أفراد الجماعة التي كان منظرها المرموق : فولبير لقي ربه منذ أمد بعيد ، ثم لحق به لافونتين في ١٦٩٣ ، ثم راسين في ١٦٩٩ ، وتحدث الهجاء المعجوز العليل بتأثر عن « الأعراء الذين فقدناهم ، والذين اختفوا كأنهم حلم انسان استيقظ من نومه (٥٥) » وحين دنت منيته غادر أوتوى وذهب لموت (١٧١١) في مسكن كاهن اعترافه بصومعة النوتردام ، مؤملا ألا يجروا الشيطان على أن يمسه بسوء هناك .

٦ - الاحتجاج الرومانسى

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية — قواعد العقل ، والاعتدال ، وضبط النفس — إقبال كورنې العجوز وراسين الشاب . ذلك أن طامهن كان عالم الوجدان والرومانس ، وقد حفزت « زيجات المصلحة » التى كن يعقدنها أو هام الغرام أكثر مما صلتها . ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو — جنباً إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية — حتى تنضج حجمها وتلقى استحساناً واسماً وتؤثر تأثيراً دولياً . ولم تكن سيدات المجتمع فى فرنسا ليشبعن من مثل هذه الروايات ، ولا كن يجدنها مفرطة فى الطول ، وآية ذلك أنه حين توقف « جوتييه دلا كالبرويد » عن المضى فى روايته « كليو بطرة » بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء (١٦٥٦) ، رفضت خطيبته أن تزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين (٥٦) .

وقد استقرت الآنسة مادلين دسكوديرى قلوب نصف فرنسا بروايتها « آرتامين أو كورش الكبير » (١٦٤٩ - ٥٣) ، و « كليلى » (١٦٥٤ - ٦٠) وكلاهما فى عشرة مجلدات . وأشبع غرور المجتمع الفرنسى أن يجد الشخص فى هذا الإنتاج الرومانسى الغزير ، تحت أسماء مستعارة ، تصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتميط اللثام عنهم . وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات ، وتعلموا فنون التهنيد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم ، وأصبحت الآنسة دسكوديرى نفسها تسمى « سافو » ، وكذلك كانت تنادى فى الصالونات إلى نهاية عمرها الذى بلغ أربعة وتسعين عاماً . وقد كتبت لتسرأخاها جورج ، ونشرت كتبها تحت اسمه ؛ وآثرت أن ترعاه على أن تزوج . وظل سلطانها على النساء المثقفات والرجال للمطربين إلى أن غيرت مسرحيتها مولير « المتحذلقات اللضحكات » و « النساء العالمات » من انجاء الأفواق الأدبية ، وهنا حبست مادلين فى سجناءة آخر مجلد . من مجلداتها التسعين عن النشر ، والذين يشكون

القراغ قد يمدون إلى اليوم في صفحات « كورش الكبير » الخمس عشرة: ألف ، أو صفحات « كليلى » ، العشرة الآلاف ، فقرات تتميز برفقة العاطفة ، أو تنفرد بتحليل الخلق . كذلك تستحق لا سكو ديرى أن تتذكرها لما قامت به من جهد فى سبيل النهوض بتعليم النساء فى فرنسا .

وأما « ماري مادلين بيوش دلافيرن » ، التى أصبح اسمها بعد الزواج الكونتيسة لافايت ، فهى شخصية أكثر فتنة ، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب ، بل عاشت أيضاً قصة أشهر . وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة ، ثم ذهبت لتعيش فى أوفرن بعد زواجها (١٦٥٥) . ولسكنها حين وجدت الحياة هناك عملة اتفقت مع زوجها على الانفصال (١٦٥٩) ، وذهبت إلى باريس ، وانضمت إلى الجماعة التى تلتقى فى قصر رامبوييه . ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا ، وخلدتها بعد حين فى مذكرات تفيض محبة . وكانت قريبة وصديقة لمدام دسفينييه التى كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً « لم تحجب منى صداقتنا أقل سحابة ، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها فى نظرى ، فقد كان شذاها على الدوام نضراً جديداً (٥٧) » . وتلك تحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً ، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسى . وسنلتقى بمزيج نادر من الحب والصداقة فى علاقات مدام دلافاييت بلاروشفوكو .

وقد وقعت على الجديد الثورى حين قررت أن تبارز بقلمها الأنسة دسكو ديرى . ذلك أنها كتبت رواية فى مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتى صفحة . واعتنقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما فى نصه الأسمى ، فكل جملة تحذف تضيف جنبها ذهباً لقيمة الكتاب ، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً . وبعد أن نشرت أعمالاً صغيرة ألفت (١٦٧٢) ونشرت (١٦٧٨) رائعتها للسهم « أميرة كليف » . وحبكة الرواية (إن شئنا أن نخلط بين الاستعارات) هى .

مثلث ذوماس . فالآنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن في تواضع يجعل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة . وتنزوجه عملاً بنصيحة أمها ، ولكنها لا تشمر نحوه شعوراً أحر من الاحترام . وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهم بها لنوه ، وتصده هي في إحساس بالفضيلة ، ولكن الحاحه المحموم يحس قلبها ، وشيثاً فشيثاً تتحول الشفقة فيها حباً . وتعترف بهذا التطور لزوجها ، وتتوسل إليه أن يبعدها عن القصر وعن التجربة ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أنها وفية له ، فيخذلها الهوى حتى يقتله ، وكأن قرنيه الوهميين خرقتا حلقة . أما الأميرة فتصعد الدوق وضميرها يبكتها على موت الأمير ، وتكرس ما بقى لها من عمر لأعمال البر . وقد علق « بيل » الشكاك على القصة بقوله : لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت في فرنسا لمشي ألفاً ومائتي ميل . ليراهها (٥٨) .

ونشر الكتاب غفلاً من اسم المؤلفة ، ولكن سرعان ما استقر رأى الأوساط الأدبية على أنه إحدى ثمرات علاقة حميمة مشهورة آنذاك . قالت الآنسة سكوديرى : (لقد كتب مسيو دلاروشفوكو ومدام دلافاييت رواية ٠٠٠ قيل لي أنها كتبت على نحوينير الأعجاب (٥٩)) ، ولكنها أضادت « أنهما لم يعودا في سن تسمح لهما بالاشتراك معاً في أى عمل غير هذا (٦٠) » . ولكن كلا المؤلفين المزعومين أنكر تأليف الزواية . وكتبت لاسكوديرى تقول « إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرا منها أبوها وأمها » . أيا كان الأمر ، فقد أجمع الكل على أنها أروع رواية كتبت في فرنسا إلى ذلك الحين . واعترف فونتنيل بأنه قرأها أربع مرات ، وكان رأى يوالو ، عدو الرومانس ، في مدام دلافاييت أنها « ابداع عقل وافضل كاتبة بين نساء فرنسا » . ويقر التاريخ لأميرة كليف بأنها من اول الزوايات السيكلوجية وما زالت من أفضلها . وهى الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التى ما زال فى الإمكان قراءتها دون ما ألم .

٧ - مدام دسفينييه

١٦٢٦ - ٩٦

ولكن بقي من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات — من تأليف امرأة أيضا — في الامكان قراءتها في بهجة مستسلمة حتى في نبض زماننا السريع . والمؤلفة ، وهي ماري رابوتان — شانتال ، فقدت أبويها في طفولتها وورثت ثروتهما الكبيرة . وقد شارك في تعليمها نفر من خيرة العقول في فرنسا ، ونشأتها خيرة الأسر في فرنسا على فنون الحياة . فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنري ، مركيز دسفينييه ، ولكن هذا الزير كان يحب مالها أكثر من شخصها ، وبدد بعضه على خليلانه ، وبارز خصما بسبب إحداهن ، وقتل في المبارزة (١٦٥٩) . وحاولت ماري أن تنساه ، ولكنها لم تتزوج بعده ، بل فرغت لتربية ابنها وابنتها . ولعلها كما ألمح ابن عمها الحقود بوسى — رابوتان كانت ذات مزاج بارد ، (٦١) أو لعلها تعلمت أن المجلس يستنزف الذات أما الامومة فتحققها . وخطاباتها تفيض سعادة ، كلها تقريبا سعادة الامومة .

ولقد أحبت المجتمع بقدر ما تشككت في الزواج . وكان لها ، وهي الارملة الشابة التي تملك ثروة بلغت ٣٥٠.٠٠٠ جنيه (٦٢) ، خطاب كثيرون من النبلاء — تورين ، وروهان ، وبوسى . . . ولم ترحب بطردم جميعا الا واحدا ، ومع ذلك لم تلوث سمعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة . وكان اصداؤها يحبونها باخلاص أكثر صدا — ومنهم دريتز ، ولا روشفوكو ، ومدام دلافايت ، وفوكيه . أما الأول والثاني فقد أقصيا عن القصر لا اشتراكهما في حرب الفروند ، واما الأخير فلثروته التي لم يستطع تعليمها ، ولم تلق مدام دسفينييه ، الوفية وفاء حارا للاربعة على السواء ، ترحيبا في الرحاب الملكية المقدسة وإن نالت كلمات متفضلة من الملك في حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان - سير . اما في خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

تبتهج بصحبتها ، لأنها كانت تملك كل مفاتيح المرأة المنقفة ، كانت تتكلم بنفس الحيوية التي تكتب بها ، وذلك اطراء يناقض إطراء ألفناه أكثر منه ، فطالما يسدى إلينا النصيح ، ربما في غير تبصر ، بأن نكتب كما نتكلم .

وقد بقى من رسائلها أكثر من ألف وخمسمائة ، وجلها موجه لابنتها ، فرانسواز مارجریت . التي تزوجت الكونت دجربنيان (١٦٦٩) ، وسرعان ما رحلت الى بروفانس لتعيش معه ، وكان نائباً لحاكمها . فظلت الأم من ١٦٧١ الى ١٦٩٠ تبث بخطاب مع كل بريد تقريباً — وأحياناً مرتين في اليوم — الى هذه الزوجة الشابة التي فصلتها عنها ارض فرنسا كلها طويلاً . كتبت تقول لها « ان مراسلتى لك هي عافيتى ، ولذة حياتى الوحيدة ، وكل اعتبار آخر يتضاءل بالقياس الى هذا (٦٣) » . ذلك أن الحب الذى لم يجد رجلاً يشبعه أصبح غراماً مشوباً بآبنة أحست أنها غير جديرة به ، لأن فرانسواز كانت ذات خلق أكثر تحفظاً ، ولم تعرف كيف تعرب عن مشاعرها بحجارة . ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم ، وكانت أحياناً تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج ، ومع ذلك ظلت طوال خمس وعشرين سنة ، إلا في فترات مرضها ، تكتب لأمها مرتين في الأسبوع ، لا يفوتها بريد الانادرا ، حتى لقد أطلق لأم المتيممة بها ان تكون قد جارت على وقت ابنتها .

وأبلغ ما فى هذه الرسائل تأثيراً فى النفس ما روى حياة طفلة مدام جربنيان البكر ونهاية هذه الحياة فى الدير . ذلك أنها قدمت باريس لتلد فى كنف أمها . وما لبثت أن أرسلت الى زوجها اعتذاراً لأنها ولدت بنتاً — لا بد من تربيتها بجهد أليم ، ومهرها بمر غال ، ثم فقدها ، ولما طادت فرانسواز الى بروفانس تركت ماري بلانش الصغيرة حيناً مع جدتها التي افتتنت بها . وكتبت مدام دسغنييه للأب تقول « ان كنت تريد ولداً فاعكف على صنعه (٦٤) » كتبت للوالدين اللذين لم يقدر اطفالتهما تفاصيل نشوأة عن العجيبة التي أنجبهاها كارهين :

« ان ابنتكما الصغيرة تغدو محبة للنفس . . . بيضاء كاللؤلؤ ، ضاحكة على الدوام . . . ولون بشرتها ، وعنقها ، وجسدها الصغير - كلها عجيب . وهي تقوم بعشرات الحركات الصغيرة - تثرثر ، وتلاطف ، وتضرب ، وترسم علامة الصليب ، وتطلب العفو ، وتنحني ، وتقبل يدها ، وتهز كتفيها ، وترقص ، وتتملق ، وتشد الأذن . . . وأنا ألهو معها ساعات بطولها (٦٥) » .

وقد ذرفت الجدة دموعا كثيرة لتدع هذه العجيبة الريانة البدن تذهب الى بروكس ، ودموعا أكثر حين أودعها الأبوان ديرا وهي لم تتجاوز الخامسة . ولم تعد الطفلة بعدها ، ففي الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهبنة واختفت من العالم .

وكان نائب الحاكم رجلا متلافا ، يولم الولايم فوق ما يسمح به مكره . وكانت زوجته تبنى أمها بانتظام بما تتوقعه من قرب إفلاسهما ، أما الأم فكانت توبخهما في محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال وكيف ، بحق محبة الله والناس ، يستطيع انسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلى والأثاث وسط الفقر المدقع الذي ابتلى به من يحيط بنا من الفقراء في هذه الأيام (٦٦) . ورغبة في الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات ، كانت مدام دسفينيه تعنى بتفقد أملاكها في لي روشيه بإقليم بريتنى لتستوثق من أنها تلقى الرعاية الواجبة ، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة . ووجدت سعادة جديدة في الحقول ، والغابات ، وفلاحي بريتنى ، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التي كتبت بها عن المجتمع الباريسي الذي كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها .

وكان ابنها مشكلة من نوع آخر . فهي شديدة التعلق به لأنه فتى طيب ، يملك كما قالت « معنا من الذكاء وروح الفكاهة . . . وقد ألف أن يقرأ علينا فصولا من رابليه يسكاديموت السامع من الضحك عليها » (٦٧) . وكان شارل ابنا مثاليا ، الا اذا استثنينا ترممه خطي أبيه في التنقل من اغراء إلى اغراء ، الى أن - ولكن لندع مدام دسفينيه ، وهي تكتب

لابنتها ، تتحمل تبعه باقى القصة ، فلا شئ أ كثر ايضا حال الطابع العصر :
 « بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك . . . فبالأمس أراد أن يقص على
 نبأ حادث مروع وقع له . ذلك أنه صادف لحظة سعيدة ، ولكن حين
 وصل إلى بيت القصيد — كان شيئاً عجيباً ! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها
 أحد فى حياتها قط بمثل هذا أما الفارس فقد تقهر بعد أن هزم شرهزيمة
 وظن أن سحرا التى عليه ، وألطف ما فى القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد
 ان انبأنى بكارثته . وضحكنا عليه حتى استلقينا ، وقلت له اننى مغتبطة
 جداً لأنه عوقب حيث أنم لقد كان منظرا يستحق أن يسجله
 مولير (٦٨) » .

وأصيب الفتى بالزهرى ، فعنفته ؛ ولكنها مرضته فى حب . وحاولت
 أن تثب فيه شيئاً من الدين ، ولكنها نصيبها من الدين كان من الضلالة
 بحيث لم تستطع أن تعطيه الكثير منه . وقد تأثرت بمواعظ بوردالو ،
 وخبرت دفقات فجائية من التقوى ، ولكنها كانت تبتم حين ترى الموابك
 الدينية التى أبهجت أهل المساكن الفقيرة . وقرأت آرنو ، ونيكول ، وبسكال ،
 وتعاطفت مع البور — رويال ، ولكن صدها تركيزهم على تجنب الهلاك
 الأبدى ، ذلك أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بالإيمان بالجحيم (٦٩) . وكانت
 على العموم تجفل من التفكير الجاد ، فمثل هذه الأمور ليست للنساء ، ومن
 شأنها أن تمكر جمال الحياة الوداعة . ومع ذلك كانت ذواقة فى قراءتها —
 تقرأ فيرجل وناسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية ، ومونتيني بالفرنسية ،
 وتعرف مسرحيات كورنبي وراسين معرفة وثيقة . أما فكاهتها فكانت
 أعمق وأبهج من فكاهة مولير . فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمن
 للتأمل الشارد :

« انقلب برانكا قبل أيام فى مصرف وجد نفسه فيه مرتاحا جداً حتى
 لقد سأل من سارعوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته . وقد كسرت
 نظارته ، ولولا أن حظه كان خيراً من حكمته لكسر رأسه أيضاً ، ولكن
 هذا كله لم يقطع تأملاته قط . وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح . . . أثبتته

نغيبها أنه انقلب وكاد عنقه يندق ، لأننى اعتقدت أنه للشخص الوحيد الذى لم يسمع بالحادث فى باريس (٧٠) .

وهذه الرسائل فى مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كشفًا فى الأدب ، لأن المركيزة تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ . فهى الأم المحبة ، التى تجمد نفسها على سجيتهما سواء فى صالونات العاصمة أو فى حقول بريتنى ، وهى تكتب لابنتها عن ألق أحاديث الاستقراطية وقيلها وقالها ، ولكنها تقول ايضا « إن الليل ، والوقواق ، والهزار — كلها بدأت تصدح فى ربيع الغابات » ، وتندر أن تفوه بكلمة سوء عن مئات الأشخاص الذين يرفون خلال صفحاتها الألفين ، وهى على الدوام مستعدة لمديد المعونة للمكرويين ، مججلة حديثها بالرفيق من التحية والمجاملة ، مذنبية بين الحين والحين بالمرح القاسى (كضحكها على شفق بعض المتمردين المساكين فى برتنى) ، ولكنها مرهفة الاحساس بالآم الفقراء ، وهى تغضى عن فساد زمانها وطبقتها ، ولكنها بلا لوم فى سيرتها الشخصية ؛ إنها روح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة ، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب ، ولكنها تكتب أفضل فرنسية فى عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق .

ترى هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنشر يوما ما ؟ كانت أحيانا تسترسل فى تخليقات من البلاغة كأنها تشم مداد المطابع ، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل ، وبالمصارحات العاطفية ، والمكاشفات المخرجة التى لا يمكن أن تكون قصصت إذاعتها على القراء . كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها ، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة فى تلك الأيام ، حين كادت الرسالة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة ، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين ، التى منعتها من أن تدخل ديرا كما فعلت شقيقتها بلاش مارى ، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٧٢٦ ، بعد موت المركيزة بثلاثين عاما . وهى اليوم من أغلى هيون الأدب الفرنسى ، وكانها باقة زهر ضئيلة يزداد عبيرها انتشارا على الأيام .

وازداد تفكيرها في الدين كلما دنت نهايتها ، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب . وبين ضباب بريتنى ومطر باريس أصابها الروماتزم ، ففقدت فرحتها بالحياة ، وأدركت أنها بشر فان .

« لقد ولجت الحياة دون رضاي ، ويجب أن أخرج منها ؛ هذه الفكرة تطغى على . . . وكيف أخرج ؟ . . . ومتى ؟ . . . اننى أودن نفسي في هذه الأفكار ، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لا بغض الحياة لأنها تفضي بي إلى الموت أكثر من بغضى لها لما يملؤها من أشواك . يستقولين اننى أريد أن أحييا إلى الابد . ليس الأمر كذلك مطلقا ، ولكن لو أخذ رأيي لآثرت أن أموت بين ذراعى مربيتى ، فقد كان هذا خليقا بأن يوفر على اضطرابات الروح ويسكفل لى الجنة فى كل يقين ويسر (٧١) » .

وليس صحيحا أنها ابغضت الحياة لأنها تفضي إلى الموت ، إنما هى أبغضت الموت لأنها استمتعت بالحياة استمتاعا شديداً قرابة سبعين عاما . وإذا كانت أمنيته أن تموت فى بيت ابنتها الحبيبة ، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعمائة ميل فى رحلة عذاب إلى شاتو جرنيان . فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها ، ووجدت العزاء فى تناول الاسرار المقدسة ، وعلت نفسها بالخلود . ولقد وهب لها الخلود حقا .

٨ - لا روشفو كو : ١٦١٣-٨٠٠٠

شتان ما بين هذا الروح ، وروح أشهر الكليبيين المحدثين ، وأقصى من مزق القناع عن نقائسنا ، ذلك العليل المكتئب الذى شوه سمعة النساء وانقرى على الحب ، والذى أحبطته ثلاث نساء حتى الموت .

كان البيل السادس المسمى فرانسوا دلا روشفو كو ، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات ، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلى لأمملكة والوصية مارى دمديتشى .

وكان اسمه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه (١٦٥٠) . وقد تلقى التعليم في اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب واللايكيت . فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه دفيغون ، الابنة الوحيدة والوريثة لبازيار فرانسوا الكبير المتوفى . وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان ، وفي السادسة عشرة اشترى رتبة السكولونيل . وكان يختلف إلى صالون مدام درامبويه الذي هذب عاداته وفضل أسلوبه . ومع كل مثالية الشباب وإيمانه للنساء الناضجات نراه يعشق الملكة ، ومدام دشفروز ، والآنسة دهورتفور . وحين تأمرت آن المساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا ، ثم كشف أمره ، وأودع بالباستيل أسبوعاً (١٦٣٦) . فلما أفرج عنه سريعا نفى إلى ضيعة أسرته بغير قوى . وراض نفسه حيناً على العيش مع زوجته ، ولأعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل ، وتعلم أن للريف مباحج لا تستطيع فهمها غير المدينة .

في تلك الأيام لم يسكن ممسكنا فصح عرى الزواج الشرعى بين الطبقات العليا الفرنسية ، ولسكن كان من الممكن تجاهلها . وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات في زواج المرأة الواحدة الذى أضجره ، انطلق للمغامرة في الحب والحرب . وحين استهدفت عيناه مدام دلو نجفيل (١٦٥٦) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالى ، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة ، لأنه مما يرفع من قدره أن يغوى زوجة لدوق وأختا لكونديه العظيم . أما هى فلعلها ارتضته لأسباب سياسية ، فقد يكون حليفاً نافعا في التمرد الاستعراطى الذى اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطاً . ولما أخبرته أنها حبلى منه (٧٢) ، منح كل تأييده للفروند . وفي ١٦٥٢ نبذته واتخذت الدوق ليمور عشيقاً ، وحاول لاروشفوكوا قناع نفسه بأن ذلك ما كان يصبو إليه ، وكما قال بعد ذلك « حين نحب إنساناً إلى درجة الملل ... فإننا نرحب أشد الترحيب ... بفعل من أفعال الخيانة يبرر تحللنا من ذلك الحب » (٧٣) ، فى ذلك العام ، وفيما كان يحارب فى صفوف الفروند فى ضاحية

سامت أنطوان ، أصابه رش بندقية في عينيه وخلف به صمى جزئيا . فانسكفا راجعا إلى فيرتوى .

وكان الآن في الأربعين ، يحس بواحد النقرس ، ويشعر للمرارة من كوارث أكثرها من صنعه . أما مثاليته فماتت في إزمردام دلو نجفيل ، وفي مؤامرات الفروند الخداعة والهاية الحقيرة التي انتهت إليها . وقد أزعجى فراغه ودافع عن سيرته في « مذكرات » (١٦٦٢) دل فيها على عظيم تمسكه من الأسلوب الكلاسيكى . وفي ١٦٦١ سمح له بالعودة إلى البلاط ، ومنذ ذلك التاريخ قسم وقته بين زوجته في فيرتوى وأصحابه في صالونات باريس .

وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابليه . هناك كانت هي وضيو فيها يلعبون أحيانا لعبة « العبارات » . يعلق أحدهم بعبارة على الطبيعة البشرية أو سلوك الإنسان ، فتتقاذف الجماعة العبارة فيما بينها تأييدا واعتراضا . وكانت مدام دسابليه جارة وصديقة مخلصنة للبور — رويال — دبارى ، فاعتنقت رأيه في شر الإنسان القطرى وخواء الحياة الدنيوية ، ولعل تشاؤم لاروشفوكو الناجم عن خيبته في الحب والحرب ، وعن الخيانة السياسية والألم البدنى ، وعن خدعه غيره وأنخداعه بالغير — تقول لعل هذا التشاؤم وجد مساندة قليلة من جانيه مضيقته . وكان يجد لذة قائمة في تهذيب عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل ، وسمح لمدام دسابليه وغيرها من الاصدقاء بأن يقرءوا هذه الحكم ، وأن يعدلوا فيها أحيانا . وقد نسخها أحد هؤلاء ، وطبع ناشر لص هولندى ١٧٩ منها ، غفلا من اسم المؤلف ، حوالى سنة ١٦٦٣ ، وتبين فيها رواد الصالونات حكم لاروشفوكو ، ثم أصدر المؤلف نفسه طبعة أفضل اضاف إليها ٣١٧ مثلام ١٦٦٥ تحت عنوان « عبارات وأمثال اخلاقية » . وأصبح هذا السكتيب الذى اختزل الناس اسمه بعد قليل إلى « الأمثال » ، من عيون الأدب للتو تقريبا . ولم يعجب القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق فحسب ، بل إنهم استمتعوا بما حوى

من فضيح لآثرة الغير ، ولم يفتنوا إلى أن القصصة إنما تروى عنهم .
إلا فيما ندر .

ووجهة نظر لاروشفوكو أوردتها ثانياً أمثاله : « إن حب الذات هو حب الإنسان لنفسه ، ولأى شيء آخر لأجله . وحياة الإنسان كلها ليست إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضا قويا له ، وليس الغرور إلا شكلا من الأشكال الكثيرة التي يتخذها حب الذات ، ولكن حتى هذا الشكل يدخل في كل فعل وفكر تقريبا وقد تنام شهواتنا أحيانا ، ولكن غرورنا لا يبدأ أبداً » ان الذى يرفض الثناء أول مرة يرفضه لأنه يريد سماعه ثانية (٧٤) . « والتلطف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب والبطولات الواعية . « وكل الناس يستوون كبرياء ، والفرق الوحيد هو أنهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق في إبدائها (٧٥) » . « ان الفضائل تنضج في المصلحة الذاتية كما تنضج الانهار في البحر (٧٦) » . « ولو تأملنا أفكارنا الخفية لوجدنا في صدورنا بذرة كل الرذائل التي تستنكرها في غيرنا ، ولا استطعنا أن نحكم من واقع فسادنا الشخصى على الفساد المتأصل في الإنسان (٧٧) . وما نحن إلا عبيد شهواتنا ، وإذا قهرت شهوة منها فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى (٧٨) ، « والعقل يستغله الوجدان دائما ، « والناس لا يشتهون شيئا بلهفة إذا طلبوه انصياحا لاوامر العقل فقط (٧٩) » ، « وابسط الناس إذا أمانته العاطفة المشبوبة سينتصر أكثر من أفصح الناس بدونها (٨٠) » .

وفن الحياة يسكن في إخفائنا حب ذواتنا بقدر يسكني لتجذب إغصاب حب الغير لذواتهم . وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار « إن النفاق ضرب من الاحترام الذى تقدمه الرذيلة للفضيلة (٨١) » . واحتقار الفيلسوف للزعم للثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقته في الترويج لبضاعته . وما الصداقة « إلا تجارة لا يفتأ حب الذات يطلب الكسب من ورائها (٨٢) » وقد نقيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد في نكبات أصدقائنا شيئا ليس كله

مسيئاً (٨٣) . ونحن نبادر إلى الصفح عن أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا
عن أسأنا إليهم ، أو عن تفضلوا علينا — فأثموننا — بمخدراتهم (٨٤) .
والمجتمع حرب بين الفرد والكل . « والحب الصادق أشبه الاشباح — شيء
يتحدث عنه كل انسان ولكن نادرا ما رآه أحد (٨٥) » ، و « ما كنا
لنقع في الحب قط لولا سماعنا الناس يتكلمون في الحب (٨٦) » . ومع ذلك
فالحب إذا كان صادقا تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتي عرثن الحب
مرة ضحيات القدرة على الصداقة ، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى
الحب (٨٧) ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريبا إلا وهن في الحب « قد
تلقى نساء لم يسبق لهن غرام قط ، ولكن من العسير جدا أن تجد نساء لم
يقعن إلا في غرام واحد لا أكثر (٨٨) » . « وأكثر النساء المحصنات
كالكنوز المخفأة ، التي لم تكن في مأمن إلا لأن أحدا لم يفتش
عنها (٨٩) » .

وكان هذا السكبي العليل عليما بأن هذه الحكم البارة ليست وصفا
منصفا للبشر . لذلك راح يتجنب الجزم في الكثير منها بألفاظ مثل « تكاد »
أو « تقريبا » إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية ، وقد اعترف أنه « أسهل
أن يعرف المرء النوع الإنساني عموما من أن يعرف انسانا واحدا
بالذات (٩٠) » ، وسلمت المقدمة بأن أمثاله لا تصدق على « المحظوظين القلائل ،
الذين سرت السماء بأن تحفظهم . . . بنعمة خاصة (٩١) » . ولا بد أنه سلك
نفسه في زمرة هؤلاء القلائل ، لأنه كتب : « انني أخلص لأصدقائي إخلاصا
لا أتردد معه لحظة في التضحية بمصالحى في سبيل مصالحهم (٩٢) » . — ولو أنه
كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد في بذل مثل هذه التضحية لذة
أكثر مما يجده في منعها . وقد تحدث بين الحين والحين عن « عرفان الجميل ،
فضيلة العقول الحكيمة السمحة (٩٣) » ، و « الحب ، النقي الذي لا تشوبه
شهوة (إذا وجد إطلاقا) ، الذي يكمن في أعماق قلوبنا (٩٤) » . و « مع أنه
يمكن القول ، بقدر كبير من الصدق . . . ان الناس لا يفعلون شيئا دون
١٦ — قصة الحضارة

مراعاة لمصلحتهم ، إلا أنه لا يستتبع هذا ان كل ما يفعلونه فاسد ، وأنه لم يبق في الدنيا شيء اسمه العدالة أو الأمانة . فالناس قد يحكمون أنفسهم بوسائل شريفة ، ويختطون (لأنفسهم) مصالح كلها الخير والنبل (١٠) .

وقد ألانت الشيخوخة جاب لاروشفوكو ، حتى وهى زبده شجننا على شجن . ففي ١٦٧٠ ماتت زوجته بعد ثلاثة وأربعين عاما من الوفاء الصابر ، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال ، وقامت على تمرضه طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة . وفي ١٦٧٢ ماتت أمه ، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة . وفي تلك السنة جرح اثنان من أبنائه في غزوة هولندية ، ومات أحدهما من جروحه . كذلك سقط في نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعى الذى ولدته له مدام دلونجفيل ، والذى لم يؤذله بأن يطالب به ابنا برغم أنه أحبه حبا عميقا . روت مدام دسفينييه « رأيت لاروشفوكو يبكى فى حنان جميل أعبدته (١٩٦) » . ترى أكان حبه لأمه وأولاده حبا لذاته ؟ أجل ، إذا نظرنا إليهم على أنهم جزء من ذاته وامتدادا لها . وهذا هو الاتصال بين الإيثار والآثرة — فالإيثار توسيع للذات ، والمحبة الذات ، للأسرة ، أو الأصدقاء ، أو الجماعة . وفي وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمحة الشاملة .

ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكو سطحية قوله « ان فضل القليل من النساء يدوم أطول من جاهلن (١٧) » . لقد كانت أمه وزوجته استثنائين ، ولم يكن من الكرم تجاهل آلاف النساء اللاتي ضيعن جاهلن الجسدى فى خدمة الرجل والأطفال . وفى ١٦٦٥ بذلت له امرأة ثالثة معظم حياتها . ولا شك فى أن مدام دلافايت أرضت قلبها هى وهى تحاول أن تسرى عنه . فلقد كان يومها فى الثمانية والخمسين ، يشكو والنقرس ونصف العمى ، أماهى فكات فى الثالثة والثلاثين ، محتفظة بجمالها ، ولكنها عليله تشكو حتى الملاريا . ولقد روعها ما فى امثاله من كسبية ، ولعل فسكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقى والتسرية عنه خالطت رأيها فيه ، فدعته الى بيتها فى باريس ،

نجاه محمولا على حفرة ، فمصبت قدمه الموهجعة ووسدتها ، وأتت بأصحابها ، ومنهم مدام دسفينيه المتدفقة العاطفة ليساعدها في الترويح عنه . وطاد إليها ثانية ، وكثرت زياراته حتى لغطت بها باريس . ولا علم لنا هل دخلت في هذه الزيارات الألفة الجنسية ، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً في علاقة أصبحت تبادلاً بين الأرواح . قالت « لقد أعطاني الفهم ، ولكنني أصلحت قلبي » (٩٨) . ولعله ساعدها في روايتها « أميرة كليف » وان بعدت رقتها وحنانها عن قسوة « أمثاله » بعد السماء عن الأرض .

وبعد أن ماتت مدام دلا روشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية خراباً من الزواج الروحي ، وفي الأدب الفرنسي صور كثيرة لهذه المرأة القصيرة الضعيفة الجسد ، تجلس في هدوء إلى جوار الفيلسوف المعجوز الذي أقعده الألم عن الحركة . قالت مدام دسفينيه « لا شيء يمكن أن يقارن بسحر صداقتهما وثقتها » (٩٩) . وقال بعضهم ان المسيحية تبدأ حيث ينتهي لاروشفوكو (١٠٠) ، وقد تبينت صحة القول في هذه الحالة ، ولعل مدام دلافاييت المصادقة الورع أقنعت به بأن الدين هو السكفيل بالإجابة عن مشكلات الفلسفة . ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن يناوله الأسرار المقدسة الأخيرة (١٦٨٠) . وقد صمرت صديقته بعده ثلاثة عشر عاماً حامله بالألم .

٩ — لارويير ١٦٤٥٠ — ١٦

بعد موت لاروشفوكو بنمانية أعوام اكّد جان دلا بروير تحليله الساخر للآدميين من أهمل باريس . وكان جان ابن موظف صغير في الحكومة . درس القانون ، واشترى وظيفة حكومية صغيرة ، وأصبح معلماً خاصاً لحفيد كونديه العظيم ، وخدم أسرة كونديه وصيفاً ، وتبعها إلى شافنبي وفرساي . وقد ظل أعزب إلى نهاية حياته .

وقد عذبتة حدة الفوارق الطبقيّة في فرنسا لما فطر عليه من حساسية

وحياه ، ولم يستطع الاستماعة بمظاهر الغرور الطليقة التي ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفي البلاط ، وذلك رغم انتمائه الى الطيفه الوسطى . وقد لاحظ معرض الوحوش الملكى بعين مصادية نفاذه ، وانتقم منها بوصفها فى كتاب صب فيه كل عصارته الفكرية تقريبا ، وقد ممام « الاخلاق لتيوفرست مترجمة عن الاغريقية ، مع اخلاق أو طادات هذا العصر » . وأصبح الكتاب حديث باريس ، لانه صور تحت أفتنة شفافه أشخاصا مشهورين فى المدينة أو البلاط ، وجعل كلا منهم يجمد المتعة البالغة فى فضح الباقيين . ونشرت « مفاتيح » للكتاب تزعم انها تطابق الصور مع اصولها ، واحتج لاىروبير بأن أوجه الشبه طارضة ، ولكن أحدا لم يصدق ، وذاع صيته ، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف فى ١٦٩٦ ، وقد اضاف الى كل طبعة « أخلاقا » جديدة تبينت فيها باريس مرآة العصر .

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدولنا مادته هزيلة بعض الشيء ، وأفكاره قديمة مبتذلة ، وروحه يشوبها بعض الحسد ، وهجاؤه سطحيًا جدا ، كهجائه لمينا لكاس الرجل الشارد الذهن (١٠١) . ولا يطلب لاىروبير أى تغيير فى دين فرنسا أو حكومتها . وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء ، والا لكان الثور على الخدم عسيرا ، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض ، والخوف من الفقر لاغنى عنه لانتاج الثروة (١٠٢) . وكان يسلك بوسويه فى عداد أصدقائه منافرا بذلك ، وقد أجاد فى القسم الأخير من كتابه (« فى أحرار الفكر ») الحجج التى أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم افضل ونثر أرفع ، وردد البراهين التى ساقها ديكارت عن الله والخلود ، واستشهد بشيء من الحذق ، فى رده على اللاأدريين فى زمانه ، بنظام السماوات وجلالها ، وعلامات الهدف المرسوم فى الكائنات الحية ، والاحساس بتقرير المصير فى الارادة وباللامادية فى الذهن . وهاجم غرور النبلاء ، وجشع رجال المال ،

وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون الى لويس لا الى المذبح في كنيسة فرساي ، ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر يتقى بها غضبه (١٠٣) . وفي فقرة واحدة على الأقل ازاح الحذر جانبا وتسامى في جرأة ليصف درك الهيمية الذي تردى فيه «لاحو فرنسا من جراء حروب الحكم وضرائبه . يقول : « انتشرت في أرجاء الريف حيوانات ضارية ، ذكور واناث ، سوداء ، ممتعة ، أحرقها الشمس تماما ، والتصقت بالأرض التي تحفرها وتقلبها في اصرار لا يقهر ، ولها ما يشبه الصوت المنطوق ، فاذا انتصبت على قوائمها بدت في سحنة البشر ، والواقع انها ناس من الناس (١٠٤) » .

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب في عصر فرنسا الكلاسيكي .

١٠ — مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام ، بعد أن أصابنا الاعياء ، في ملحق هياب بعض الخالدين الذين بدأوا يموتون ؟

هناك جان شابلان ، الذي أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية ، واعتبر في زمانه (١٥٩٥ — ١٦٧٤) أشعر شعراء فرنسا . وهناك جان بايست روسو ، الذي كتب شعرا ينسى ، ولكنه كتب أيضا إنجازات مقذعة جرت عليه النقي من فرنسا (١٧١٢) عقابا على تشهيره بالأشخاص . وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات ، فرأينا مذكرات دريتز ولا روشموكو ، وسنرى في موضع لاحق مذكرات سان — سيمون . وبلى أولئك مرتبه تلك المجلدات الثلاثة التي سجلت فيها مدام دموثفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها اللنتين والبشرى التي قضتها في بلاط آن النمساوية . ونلاحظ أنها وافقت لاروشموكو على رايه اذ كتبت « ان تجربتي القاسية في صداقة البشر الوافقة أكرهتنى على الايمان بانه ليس في الدنيا شيء أندرج من الأمانة والاستقامة ، أو من

القلب الطيب القادر على عرفان الجليل (١٠٥) . « لقد كانت هي هذا الانسان النادر الوجود .

وقد حقق روجيه درابوتان ، كونت بوسى ، نجاحا في دنيا الفضايح بكتابه « تاريخ غراميات الغاليين » (١٦٦٥) الذى وصف غراميات معاصريه مستخفية وراء قدامى الغاليين . وغضب الملك لكونه سخر فيها من مدام هنرييتا ، فزج به فى الباستيل ، ثم افرج عنه بعد سنة شريطة أن يعتكف فى ضيعته ، وهناك ألف « مذكراته » النابضة بالحياة ، والفيظ يبريه إلى نهاية حياته . وأقل من هذا الكتاب جدارة بالتصديق كتاب « الأناضيد » الذى رسم فيه تلمسان دى ريو صوراً موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة فى الأدب أو الغرام . وقد جاهد كلود فلورى ، بكتابه الامين « التاريخ الكنسى » (١٦٩١) ، وسباستيان تيلون بكتابه « تاريخ الأباطرة » (١٦٩٠ وما بعدها) ، وكتابه « مذكرات ينتفع بها فى التاريخ الكنسى للقرون الستة الأولى » (١٦٩٣) ذى الستة عشر مجلدا — هذان جاهدان فى معاناة ، ودون وعى منهما ، ليمهدا الطريق وينقياه لكتاب جييون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦ وما بعدها) .

ثم هناك أخيرا شارل دماركتيل شريف سات — افريمون الذى كان ألطف تلك « العقول القوية » التى صدمت الكاثوليك والهييجونوت ، واليسوعيين والجانسين على السواء ، بالتشكك فى التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصا الماريشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقا لفوكيه وناقدا لمازاران . فلما نفى إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندا ، ثم إلى إنجلترا (١٦٦٢) . وقد جعلته عاداته المبهذية وذكاؤه الشكك أثيرا فى صالون هورتيزى مانشى بلندن ، وفى بلاط تشارلز الثانى . وكان كالماريشال دو كسكور ، فى واحد من أكثر حواراته مرحا (١٠٦) ، يحب الحرب أولا ، ثم النساء ، ثم الفلسفة . ولإذ رشف كل اللباهج التى فى مونتني ، ودرس أيتور مع جاسندى ، فقد

خلص مع الاغريقى للمفتى عليه إلى أن لذة الحس طيبة ، ولكن لذة السكر
أطيب ، وأنه لا داعى يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها
بنا . وقد بداله الأكل الطيب والكتابة الجيدة مزيجاً معقولاً . وفي ١٦٦٦
زار هولنده ثانية ، والتقى بسدينوزا وتأثر تأثراً عميقاً بالحياة المسيحية التى
كان يحياها اليهودى القائل بوحدة الوجود (١٠٧) . وقد أتاح له معاش أجرته
عليه الحكومة الإنجليزية ، بالإضافة إلى ما استمقذه من فضلات ثروته ،
أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة ، كلها بأسلوب خفيف رشيق
شارك فى تكوين فولتير . وقد أعان كتابه « تأملات فى مختلف أجناس
الشعب الرومانى » مونتكينييه ، وشاركت رسائله إلى نينون دلا نسكو بجزء
من ذلك العبير الذى يتضوع خلال الرسائل الفرنسية . ولما بلغ الثامنة
والخمسين ، ودون وعى منه بأنه سيعمر اثنتين وثلاثين سنة أخرى ، وصف
نفسه بأنه مقلقل بصورة لاشفاء له منها . « اننى لولا فلسفة مسيود يسكات
التى تقول أنا أفكر فإذاً أنا موجود لما صدقت اننى موجود ، وهذا كل
ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير (١٠٨) » وقد كاد ينافس فونتنيل
فى طول عمره ، إذ لم يمض إلا عام ١٧٠٣ بمعد ان بلغ التسمين ،
وقد نال تشريفاً ندر ان حظى به فرانسى ، وذلك هو دفنه فى دير
وستمنستر .

كتب فردريك الأكبر إلى فولتير : « بعد قرون سيترجون الكتاب
المجيدى فى عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركليس
وأوغسطس » . وقبل أن يموت الملك بسنتين طويلة شبه الكثيرون من
الفرنسيين فن العصر وأدبه بخير ما أنتج القدماء فى الفنون والآداب . وفى
١٦٨٧ قرأ شارل بيرو (أخو كلود بيرو الذى صمم من قبل واجهة الاوفر
الشرقية) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها « قرن لويس العظيم » رفع
فيها العهد فرق أى حقبة فى تاريخ اليونان أو الرومان . ولكن بوالو
الناقد المجوز ابرى للدفاع عن القدامى رغم ان بيرو سلكه فى زمرة للحاصرين

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى ، فقال الأكاديمية ان من العار الاستماع إلى هذا اللغو . وحاول راسين ان يخمّد النار بزعمه أن بيرو كان (١١٠) يمزح ، ولكن بيرو أحس أن لديه موضوعا مجزيا . فعاد إلى المعركة في ١٦٨٨ بكتابه « نظائر القدامى والمحدثين » وهو حوار طويل حتى يؤيد تفوق المحدثين في العمارة والتصوير والخطابة والشعر - وذلك باستثناء الاياداة ، التي هي في رأيه أروع من الالياذة أو الاوديسة أو أى ملحمة أخرى . وقد ناصره فونتنييل بذكاء وبراعة ، أما لا برويير ولا فونتنيين وغينييلون فوقفوا في صف بوالو .

لقد كان شجاراً صحيحاً ، عين نهاية نظرية « الانحطاط » المسيحية الوسيطة ، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة . وكان هناك اتفاق تام على أن العلم قد تقدم متجاوزاً أى مرحلة أدركها اليونان أو الرومان ، وحتى بوالو اعترف بهذا ، وسلم بلات لويس الرابع عشر في غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذي طور به في مارلي وفرساي . ولن نزعم أننا فاضلون في هذه المشكلة ، فلنتركها الآن حتى نعرض كل جوانب هذا المصير في أوروبا بأسرها . ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كوراي كان متفوقاً على سوفوكليس ، أو راسين على يوربيديس ، أو بوسويه على ديموستينيس ، أو بوالو على هوراس ، وماينبغى أن نسوى بين اللوفر والبارثينون ، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس . ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المقاضلات تقبل المناقشة ، وان تلك النماذج القديمة لا تمتنع على المنافسة .

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه « أكثر العصور التي شهدها العالم استنارة (١١١) » دون ان يتوقع أن عصره هو يسمى « عصر التنوير » . ولكن ينبغى أن نخفف من غلوهذا الاطراء . فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجهما في إلغاء مرسوم نانت الرحيم ، و « التنوير » كان وقفاً على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وطبها سرفها الابيقورى أحياناً . والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بمقيدة العصر

الوسيط ، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يسكد أحد بحلم بها ، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة . لقد كان في عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد المبقرية قسطاً كبيراً كان في عهد الملك العظيم . إن العصر لم يكن له ضريب في الرعاية الملكيه للادب والفن ، وفي خضوعهما للبليغ للملك . وقد بلغ الفن والادب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة اللوفر ومسرحية اندروماك ، ولكنهما انحدرتا أحياناً إلى المبالغة في الفخامة والابهة كما نرى في قصر فرساي أو في بلاغة كورني في آخر أنتاجه . وكان يشوب المسألة والفنون الكبرى في هذا العهد بعض التكلف والاقتناع ، فقد أفرط في الاتكاء على المماذج اليونانية أو الرمانية أو نماذج النهضة . واتخذوا موضوعاتهم من عصر قديم دخیل لامن قاريخ فرنسا ودينها وطابعها ، وعبرا عن التعليم الكلاسيكي الذي حظيت به طبقة خاصة لاعتن حياة الشعب وروحه . ومن ثم نجد مولير ولا فونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق ، لأنهما نسيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا . صحيح ان العصر الكلاسيكي نقي اللغة ، وصقل الادب ، وهذب الحديث ، وعلم العاطفة المشبوبة أن تفكر ، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسي (والإنجليزي) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم .

ومع ذلك كان عهداً عظيماً . فلم يشهد التاريخ من قبل حاكماً سخياً مثل هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون . لقد اضطلع لويس الرابع عشر الجانسينيين واليهجونات ، ولكن في عهده كتب بسكال ، ووعظ بوسويه ، وعلم فينيلون . ولقد جند الفن ليعخدم به مآربه ومجده ، ولكن هذا الفن منزع فرنسا بفضل تشجيعه روائع في العمارة والنحت والتصوير . ولقد حمى مولير من جيش من الخصوص ، وآزر راسين من مأساة إلى مأساة . ولم تسكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل ، ولا رسائل أفضل ، ولا نثراً أفضل ، مما كتبت في عهده . وهذا أعادت عادات الملك الملهبة ، وضبطه

لنفسه . وصبره ، واحترامه للنساء — أعانت كلها على انتشار الاداب المحببة
والمجاملات اللطيفة في البلاط ، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوربا . ولقد أساء
استعمال بعض النساء ، ولكن تحت حكمه بلغت النساء في الادب والحياة
مقاما اضى على فرنسا ثقافه ثنائيه الجنس يفوق جمالها أى ثقافه أخرى في
العالم . وبعد كل التحفظات ، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال
الكثير لوثته هذه القسوة السكثيرة ، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات
الفرنسيين في الأشادة بمصر لويس الرابع عشر بوصفه عمراً يقف على قدم
المساواة مع اليونان في أيام بركليس ، والرومان في أيام أوغسطس ، وإيطاليا
في أيام النهضة ، وإنجلترا في أيام اليزابيث وجيمس الاول . — يقف مع هؤلاء
جميعاً قمة شامخة بين الشوامخ في مسار الإنسانية المتعثر .

الفصل السادس

مأساة في الأراضي المنخفضة

١٦٤٩ - ١٧١٠ *

شهد القرن الممتد من ١٥٥٥ إلى ١٦٤٨ الدفاع البطولي الذي قامت به الأراضي المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية ، أما الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧١٥ فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترا وجيوش فرنسا التي لم يسبق لها مثيل . وفي كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوءا مكاناً مرموقاً في التاريخ . وقد واصلت وسط هذه الأعباء والهجمات تطويرها للتجارة والعلوم والفنون ، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد ، وتحدث نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحدقة بها تحدياً ملهماً .

١ - الأراضي المنخفضة الأسبانية

غلّت الأراضي المنخفضة الجنوبية ، أو الأسبانية ، حتى ١٧١٣ خاضعة للحكم الأسباني وكانت شعوبها المختلفة سلايماً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد آثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التي حل بها الضعف ، إعن أن تخضع للبروتستانت الذين في شمالها ، أو لجارتها فرنسا التي هددت بابتلاعها في أي لحظة . وقد أعطى صلح البرانس (١٦٥٩) معظم أرتوا لفرنسا ، وأعطاه صلح إكس لا شابل (١٦٦٨) دويه وتورنيه ، و صلح نيميغن (١٦٧٨) فالنسين وموبوج وكبرى وسانات أومير واير . ولم تسكن الجمهورية

(*) أرجأنا تاريخ الأراضي المنخفضة السياسي والحربي بعد ١٦٨٨ إلى فصل

ثال (الفصل ٢٤) .

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية . وبمقتضى معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) لم تكتف أسبانيا ، في حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا ، لم تكتف بأن تنزل الأقاليم المتحدة عن المناطق التي استولت عليها في فلاندر ، ولجيورج ، وبرابات ، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت في وجه التجارة الأجنبية . فأصاب هذا الإذلال الخائق أنتورب وكل اقتصاد الأراضي المنخفضة الأسبانية بالشال . « إن السياسة لا قلب لها » كما يقولون .

وفي داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التي نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة ، ورحبت باليسوعيين ، وتبعت قيادة لوفان الفكرية . ولما قصفت الفرنسيون بروكسل بمدافعهم (١٦٩٥) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا ، ودمر كل المعمار البديع الذي ازدان به الميدان الكبير ، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفييل البديع ، وقد أعيد بناء « الميزون دورا » (الذي كان يقرأ فيه الخطاب الملكي على مجلس الطبقات) بطراز قوطي كثير الزخرف (١٦٩٦) ، وهو والأوتيل دفييل من أجمل العمار في أوروبا اليوم . وقد أفاض النحاتون من فنهم على تجميل واجهات الكنائس والمباني المدنية ، والمنابر ، ومقاصير الاعتراف ، والمقابر التي بداخل الكنائس . وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع (١) .

واضمحل التصوير الفلمنكي اضمحلالا حادا بعد روبنز وفانديك ، وكان حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقرية التصويرية لقرن كامل . واجتذب نهوض الفن في فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين . ولكن فنانا اعظم منه ، وهو دافيد تنبيه الابن ، مكث في بلده . وكان أبوه قد تولى تعليمه ، فأصبح « معلما » في طائفة القديس لوقا الحرفية حين بلغ الثالثة والعشرين ، وبعد أربع سنوات (١٦٢٧) ضمن نجاحه بالزواج من آن بنت جان بروجل « الخملي » ،

والقاصر الموضوعة تحت وصاية روينزذاته . وفي ١٦٥١ دعاه الارشيدوق ليوبولد وليم من أنتورب الى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكي ، وترينا احدى لوحات تنييه الأشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف (٢) . وقد صور في براعة مترددة موضوعات قديمة كالابن الضال (٣) وتجربة القديس انطونيوس (٤) . ولكنه كما صوره الهولنديين آثر أن يلتقط داخل اطارات صغيرة حياة الفلاحين ، لاهابطاهم الى درك الأنعام كما فعل بيتر بروجل ، بل مشاركايهم في رياضاتهم وأعيادهم . وأظهرت لوحته « داخل كاباريه » المامه بتفاصيل موضوعه (٥) ، ولكنه كان يستطيع أيضا أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التي تغير هيئتها أسماء لاتسكف عن التغير . وقد أحب الضوء كما أحب رمبرانت الظل ، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفقها رقة .

٢ - الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن في جمهورية عزيزة ظافرة أثار غناها ونوسعها عجب جيرانها وحسد هم . فهنا أمة شذت على العرف ، إذ لم يكن لها ملك ، وكانت كل مدينة يحكمها في استقلال تقريبا مجلس من أعيانها ، وكل مجلس بلدى يوفد مندوبين لمجلس اقليمي ، وكل مجلس اقليمي يوفد ممثلين للمجلس التشريعى الذى يهيمن على ما بين الأقاليم . من علاقات وعلى شئونها الخارجية . وكانت الى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية . ولكن قوة ارستقراطية واحدة وقفت أمام أولجركيه التجار هذه : ذرية وليم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو ، الذى قاد البلاد فى أحلك ايام كفاحها ضد أسبانيا ، وكان المجلس التشريعى قد كافأه بلقب رئيس الدولة بقيادة جيوشها ، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة ، وكانت الهيمنة على رجال الجيش الآن قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الاولجركية الى ملكية .

ارستقراطية . وفي يوليو ١٦٥٠ حاول وليم الثالث أمير أورنج ، بوصفه رئيسا للدولة وقائدا عاما ، أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب . فقاومه عدة زعماء اقليميين ، واودع وليم وجنده ستة منهم في السجون ، ومنهم يعقوب دى ويت صمده دوردرشت . ولكن الجدرى هزم وليم في انتصاره ، فمات في ٦ نوفمبر ١٦٥٠ غير متجاوز الرابعة والعشرين : وبعد أسبوع ولدت أرملته ماري ستيوارت (ابنة حفيده آخر ملكة الاسكتلنديين) الطفل وليم أورنج الثالث ، الذى قدر له أن يحقق فوق ما حلم به أبوه ، اذا أصبح ملكا على انجلترا .

اما الزراع وصيادو الاسماك الأدنى من هذه الطبقات الحاكمة المتناقصة ، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب ، فلم يشاركوا الا في فضلات ثرائها التى لم يعبأ بالتهاهما التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض . واذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طحنا الملاحين بفقر كاد يقربهم من حياة البهائم ، فقر خففت منه الأعياد وخدره انشرب . وكان الحرفيون في حوائيتهم ، والعمال في مصانع امستردام وهارلم وليدن ، أعلى أجورا من نظرائهم في انجلترا (٦) ، ولكنهم قاموا باضراب عنيف في ١٦٧٢ . واترى المهاجرون الهيجونوت الوافدون من فرنسا الصناعية الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم . فلم تأت سنة ١٧٠٠ حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الامة الصناعية القائدة في العالم .

اما اعظم الثروات فجادت بها التجارة مسع أقطار ما وراء البحار وتطورها . ففي ١٦٥٢ استوطن الهولنديون أول مستعمرة لهم في رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينة الكاب . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع ارباحا لمساهميها بلغت نسبتها في المتوسط ١٨ ٪ طوال ١٩٨ عاما (٧) . وكان الوطنيون في المستعمرات الهولندية يبيعون او يشتغلون عبيدا ، أما المستثمرون في أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا الا قليلا ، وأخذوا ارباح أسهمهم بهندوه هولندي . وظلت التجارة

الخارجية الهولندية حتى ١٧٥٠ تفوق تجارة أى أمة أخرى (٨) ، ومن بين عشرين ألف سفينة كانت تنقل تجارة أوربا في ١٦٦٥ ، كانت خمسة عشر ألف هولندية (٩) . وأجمع الناس على أن تجار هولندا وماليها أكثر كفاً من انجبه ذلك العصر . وكان بنك أمستردام قد استنبط هلميا كل تقنيات المالية المصرية ، وقدرت ودائمه بما يعادل الآن مائة مليون دولار (١٠) ، وكان في الامكان أن تسوى فيه حسابات تصل الى الملايين في ساعة واحدة ، وبلغت الثقة بقدرة الهولنديين المالية وامكان الاعتماد عليهم مبلغا يسر للجمهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أى حكومة أخرى ، وقد تهبط الفائدة أحيانا الى ٤ ٪ (١١) . ولعل أمستردام كانت أكثر مدن أوربا في هذا العصر جمالا وتحضرا . وقد رأينا ثناء ديكرت عليها ، وكذلك نحدث عنها سبينوزا (١٢) . ويمثل هذه الحماسة تحدث بيبس عن لاهاي « مدينة غاية في النظافة من جميع الوجوه ، بيوتها أنظف ما يستطيع في كل أماكنها ومحتوياتها (١٣) » .

ولولا طبيعة البشر لكنت هذه الأقاليم الرخية جنة في الأرض ذلك أن نراها أغرى انجلترا وفرنسا بالهجوم عليها ، وقد أفضى الصراع على السلطة في الداخل الى مأساة جان دي ويت ، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينية شعبا لطيفا في غير هذا ، وبعثت الخصومات العنيفة . ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حيثما استطاعوا منعها . وفي ١٦٨٢ ، وضع مجمع دورت (الدوردريشت) اعترافا بالكلفنية القديمة — ربما انتقاما من الغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والا طرد ، وعين بيير جوريو وهو هيجونوتي فرنسي سابق — ايرأس محكمة تفتيش كلفنيه ، واستدعى المهرطقين ، وحاكهم ، وحرّمهم ، واهاب به « الذراع الديوية » (السلطة الزمنية) أن تزج بهم في السجون . ولكن هرطقة أرمينيوس نمت رغم ذلك ، واجتأرا الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على الكثرة من بنى البشر الهلاك في النار

الأبدية ، ووجدت المذاهب المنشقة — مينويين ، وكليين (ممن آووا سبينوزا) ولو سيائيين ، وتقويين ، وحتى التوحيديين — هؤلاء جميعا وجدوا أن في إمكانهم العيش في هولندا بين ثغرات القانون وغفواته . وكان السوسينيون قد التمسوا في الأقاليم المتحدة ملاذا من الاضطهاد في هولندا ، ولكن عبادة التوحيديين حرمت بقاؤون هولندا في ١٦٥٣ . ونشر دانيال زفيكر بأمر من مستر دام في ١٦٥٨ رساله تشككت في ألوهية المسيح ، وأخضعت الكتاب المقدس لـ « عقل البشرية العام » ، ومع ذلك استطاع أن يدوت في هدوء وسلام كما يموت الجزالات . على أن رجلا يدعى كيرباج حكم عليه في ١٦٦٨ بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كهنه ، ومات في سجنه . وقد سجن أوربان بيفر لاند لإلماعه الى أن خطيئته آدم وحواء الأصلية كانت الاتصال الجنسي ولم تمت للتفاح بسبب .

وازداد التسامح الديني قرب ختام القرن السابع عشر . ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، ويفتحون موانئهم وسوقهم الماليه لتجار يدينون بديانات كثيرة أو لا يدينون بأي دين ، هؤلاء الهولنديون وجدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضربا من التسامح كان ، رغم ما شابه من نقص ، أرحب بكثير منه في أي بلد مسيحي . ومع أن الكلفنتين كانوا الغالبين سياسيا ، إلا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغا جعل قمعهم امرا غير ممكن عمليا . أضف الى ذلك أن السيطرة الاجتماعية والسياسية التي كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس — كما قال أسروايم تمبل — أقل نفوذا بكثير من الإكليروس في الدول الأخرى . ومطالب الممارسون من أقطار أخرى ، الذين أسهموا بقسط في الاقتصاد أو الثقافة ، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به . وحين استولى كرومويل على السلطة في إنجلترا التمس أنصار الملكية فيها السلامة في هولندا ؛ ولما رد تشارلز الثاني الى العرش ، التجأ الجمهوريون الانجليز الى الجمهورية الهولندية . ولما اضطهد لويس الرابع عشر الهيجواوت فر بعضهم الى الأقاليم

المتحدة ، ولما خشى لوك وكولنز وبيل الاضطهاد في إنجلترا أو فرنسا ، وجدوا الملاذ في هولنده ؛ ولما حرم مجمع أمستردام البرتغالى (اليهودى) سبينوزا ، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون ، ورتب له جان دى ويت معاشا . وأصبحت هولنده الصغيرة « مدرسة أوروبا (١٥) » فى التجارة والمال والعلم والفلسفة .

ولولا ما أتيج لهذه الحضارة من حرية دينية ، ومن علم وأدب وفن ، لأصبحت حضارة مادية الى حد محزن . وسنلتقى فى فصل لاحق بهويجنس وغيره عن العلماء الهولنديين . وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون ، ولكن لغتهم حصدت من شهرتهم . وقد حفلت المدن الهولندية بالكتب والناشرين . وبينما لم يكن فى إنجلترا سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن واكسفورد ، وفى فرنسا باريس وليون ، كان فى الاقاليم المتحدة مراكز فى أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاى ، تطبع الكتب باللاتينية واليونانية والالمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية . وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمئة دار تطبع الكتب وتشرها وتبيعها (١٦) .

ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى . وطلع ساكنو المدن الهولنديون ، الذين عروا كنائسهم البروتستانتية من الزخرف ، خلعوا على نسائهم وبيوتهم الزينه التى انتزعوها من بيوت الرب . فاسترضوا زوجاتهم بالخمى والحريير والجواهر ، ونشروا على موائلهم صحاف الذهب والفضه ، وزينوا جدرانهم بالنسيج المرسوم ، ورفوفهم أوصواوينهم بالخزف أو الزجاج المحفور . وفى ديفات كان الخزافون الهولنديون بعد عام ١٦٥٠ ، الذين استوحوا الخزف الصينى واليابانى ، يصنعون فخارا مزججا . أكثره أزرق على قاعدة بيضاء ، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عاربه عرى الترهت الصارم . وقل أنهم وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور
١٧ . . . قصة الحضارة

الصغيرة التي جعلت حلم المسكن الهادئ التنظيف ، وبهجة الأشجار والأزهار والجداول ، قريبي المنال على جدران البيوت .

٣ - ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولي للتصوير الهولندي قد ولى . فالرأى الحددا أكثر نفرا ولكنهم أقل مالا ، لذلك طلبوا صورا صغيرة تتبجح لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية في خلاصة مقطرة مهيبة ، منقولة بواقعية تبعث لذة التعرف ، أو ملموسة بعاطفة رقيقة ولكنها مالوفة ، أو مغرية للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة . وقد لبى المصورون الهولنديون هذا الطلب في رهادة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق في حين صغير . وهؤلاء الفنانون معروفون في جميع أرجاء أوروبا وأمريكا ، لأن التنافس اليأس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلا متدفقا سريعا من الصور الصغيرة بضمن رخيص ، وهي صور لا تخلو اليوم منها جدران متحف . ونحن اذترك الشهادة على وفرة هؤلاء الرسامين لها مش سريع^(١) ، نراه لزاما أن ننظر نظرة أكثر تريثا الى جان ستين ، المرح رغم حفظه العائر ، والى أعظم مصوري الحياة اليومية جان فرمير ، والى أعظم مصوري الطبيعة الهولنديين ، يعقوب فان رويسدال .

* نيتولا هيرشيم : النلة في النافة (درسدن) . فريدناند بول : يعقوب أمام فرعون (درسدن) ، جبرارد دو : عجوز في النافة (فيينا) . بارنت فايريتوس : يعقوب وبينيامين (شيكاغو) . بارتليموس فان در هيلست : عمده هولندي ، (نيويورك) . بيترمي هوخ : داخل بيت هولندي (لندن) . فيليب دي كونيكنك : منظر طبيعي (فرانكفورت) . نيتولا ماييس : عجوز تغزل (أمستردام) . جابريل ميتسو : سوق الخضار (لندن) . فرانس فان ميريس الأول : صورة ذاتية مع زوجته (لاهاي) . وايم فان ميريس : التعرف على بريسورا (درسدن) . ايرت فان درنر : منظر معبر (برلين) . جيرار ترهورش : عشاق الموسيقى (لندن) . أدريان فان دورل : المزرعة (برلين) . وايم فان درفلد الثاني : زويدري (برلين) . جان فينكس الثاني : منظر صيد (لندن) . أدريان فان درفرف : طرد هاجر (درسدن) . فيليب فو فرمان : وقفة جاحة سيد (دولفسش) .

أما ستين فكان ابن صانع جمعة في ليدن ، واشتغل في لاهاي ، وديلفت ،
وهارلم ، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة في ليدن ، وخلال هذه الفترات
استطاع أن يجعل من نفسه أفضل مصور الأشخاص في الفن الهولندي
باستثناء رمبرانت . وحين بلغ الثالثة والعشرين (١٦٤٩) تزوج مارجريت
ابنة المصور جان فان جوين ، ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها ،
ولسكنهما أفداه بعض الوقت نموذجين ملهمن . وكان ينقد أجرا حقيرا
على صوره حتى أن صيدليا حيز (١٦٧٠) على كل الصور التي استطاع
أن يجدها في بيت ستين وباعها بالمزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدبنات .
وصوره الأولى تسجل لذات السكراء وعقوباته . وصورته « الحياة
المنحلة » (١٠) ، وهي مثال ممتاز من صوره ، فيها امرأة نعسانة وأخرى
نائمة من الشراب ، وطفل ينتهز الفرصة فيسرق من صوان ، وكلب يأكل من
المائدة ، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانة في غظة عن خطيئة شرب
الروم ، وكل شيء في الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن واستجابه رغم
أنه يصور الفوضى . وموضوع أجمل من هذا يبعث الحياة في صورة أخرى
له أسيئت تسميتها بـ « معرض الوحوش » (١٨) ، يرى فيها فتاة صغيرة
تطعم حملا باللبن ، ودجاج الحديقة يشب هنا وهناك ، وطاووس يدلى
ذيله من شجرة ذابله ، والحمام يحط في أعلاها ، ويتمامة تحلق قادمة من
الطريق . هذا كله لحن رعوى يجعل جميع معضلات الفلسفة تبدو تافهة
للامعنى لها . انه الحياة ، وكل جزء له مبرره الكافي الذي يتجاهل المطلقات .
وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية :
باطن بيوت مبهجة ، ودروس موسيقى ، وحفلات موسيقى ، ومهرجانات ،
وأمر سعيدة ، والفنان نفسه ، يدخل في « الصحبة المرحية » (١٩) ،
أو يعزف على العود (٢٠) . فلما فتت في عضده الأجور البهضة التي نقدها
على عمله ، طاد الى بيع الجمعة ، وراح يشرب لينسى ، ثم مات في الثالثة
والخسين خلفا أربعمائة صورة بائرة .

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا وممها « رأس فتاة » (٢١) تسكشف عن عالم وفن يكادان يناقضان عالم ستين وفنه . وهذه اللؤلؤة التي يفوق ثمنها اللالء بيعت بالمزاد عام ١٨٨٢ بمجولدين ونصف ، ويقدر ناقد قدير في أيامنا هذه أنها « واحدة من اثنتى عشرة صورة هي أروع صور العالم » (٢٢) ، وواضح أن الفتاة من بيت طيب وأسرة كريهة ، عيناها خاليتان من الخوف ، لا يغشاهما حتى دهش الشباب الطبيعي ، فهي سعيدة في هدوء ، متيقظة لموسيقى الحياة ؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنعة دقيقة في اللون والخط والضوء تجعل من الفرشاة أداة مذهشة للفهم والتعاطف .

وقد ولد فرمير في ديلفت عام ١٦٣٢ ؛ وحاش هناك على قدر علمنا طوأل حياته ومات فيها (١٦٧٥) بالغا الثالثة والأربعين ، وكاد يكون معاصرا لسبينوزا تماما (١٦٣٢ — ٧٧) . تزوج في العشرين ، وأنجب ثمانية أطفال ، وكان يتقاضى ثمننا طيبا على صورته ، ولكنه عكف عليها في عنايته مستنفدة للوقت ، وأنفق المال الكثير على شراء الصور ، حتى إنه مات مديونا ، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محكمة التفاليس . غير أن الأرمع والثلاثين صورة التي بقيت من صورته توحى بحج ومن رفاة العليقة الوسطى . وتظهره إحداها (٧٣) في رسمه لابسا طاقية رقيقة خفيفة ، « وجريئة » متعددة الألوان ، وجوارب طويلة متجمدة ولكنها حريرية ، وقد اشتفخ ردفاه من النعمة . ولا ريب في أنه سكن حيا راقيا في ديلفت ، ربما في مشارفها حيث استطاع أن يلقى « نظرة على ديلفت » (٢٠) ، وفي هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجمل لموطنه . ويبدو أنه راض نفسه على البقاء في بيته بقناعة أكثر مما نلاحظه في مصوري زماننا . خب البيت يتجلى في أكثر التصوير الهولندي ، ولكن البيت في فن فرمير يصبح معبدا صغيرا ، والزوجة معتزة بالخدمات التي تؤديها . وفي لوحته « للمسيح مع مريم ومريثا » (٢٥) تشارك مريثا مريم في الجلوس على المنصة . ولم تمد نساؤه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التي نراها أحيانا في الفن الهولندي ، ففهي شيء

من التهذيب والحساسية . بل لقد تجدهن — كما ترى في السيدة الجالسة في صورة « السيدة والخدمة » (٢٦) — غاليات اللباس ، رقيقات القمصان ، مصففات الشعر في عناية ، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى ، كما في صورة « السيدة الجالسة إلى العذراوية » (٢٧) (آلة موسيقية) . إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحة ، أو قصيدة غنائية ذات لحظات طائفة بسيطة طبيعية ، لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعدد ، بل — في أفضل مارسم من لوحات — امرأة واحدة فقط ، تقرأ رسالة في هدوء (٢٨) ، أو تكب على خياطتها (٢٩) أو تتحلى بقلادة ، أو تنام على خياطتها (٣٠) ، أو مجرد صبية وابتسامتها (٣١) . لقد سجل فرمير بغير كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد . ولكنه أوشك أن يكون نسياً منسياً في القرن الثامن عشر ، ونسبت روائعه الصغيرة إلى دى هوخ ، أو تيربورخ ، أو رمبرانت ، ولم يبعث من مثواه إلا في ١٨٥٨ . واليوم لا يعلمو على اسمه غير اسم رمبرانت وهالس في التصوير الهولندي .

بقي شيء واحد تفتقده في هؤلاء المصورين للحياة اليومية — هو حياة الطبيعة التي أحاطت بالمدن المتطفلة عليها . فإيطاليا ، وبوسان في إيطاليا ، كانا قد التقطا شيئاً من الهواء النقي والحقول الطليقة ، وستكتشفهما المجتررة في القرن التالي ، أما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنهم التنظيف أو المرح ، ووضعوا حواملهم ليقتنصوا سحر الغدران المتروقة ، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة ، والمزارع المزهرة ، والأشجار التي تخجل تعجلنا المحموم ، والمراكب الغربية تنهادى في الشهور المزدهمة ، والسحب التي تلون السماء بشتى الأشكال . والعالم كله يعرف لوحات « طارق ميدلهارنس » التي رسمها ماينديرت هويهما — وهي منظر يتلاشى في فضاء لانهايه له ، ولكن أجمل منها بكثير لوحته « طاحونة المساء ذات السقف الأحمر الكبير » (٣٢) . وقد وجد ألبرت كوبب الإلهام في الأبقار السمينة تخوض المستنقعات الوافرة الخضرة (٣٣) ، وأخيل تقف ظامئة عند خان ، وفلوع

المراكب تختفى فوق البحر (٣٤) . ومعجب سليمان فان رويسدال من ارتعاش المياه التي تمكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمعدية) (٣٥) ، وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه .

أما ابن أخيه هذا ، واسمه يعقوب فان رويسدال ، فقد ترعرع في هارلم ، وترك لنا « منظرا لهارلم (٣٦) » لا يقل وقعا في نفس الناظر عن لوحة فرمير « ديلقت » ، وبفضلها نقلا لتمقد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزخمة . ثم انتقل إلى امستردام واصبح عضوا في الاخوان المينويين ، ولعل تصوفهم أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوي للطبيعة التي أحب أن ينفى فيها . وعرف أن تلك الحقول ، والغابات ، والسموات التي تعدها السلام ، تستطيع كذلك أن تدمر ، وأن للطبيعة زروات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونة حتى أعتى الاشجار واصلها وتمزقها من جذورها ، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون في الارض الطيبة ، وأن البرق قد ينفث ناره القتله على كل شكل من أشكال الحياة في لامبالاة طابثة . قصورته « مسقط المساء على الجرف (٣٧) » ليست الشودة رعوية انما هي ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يمحطها ويفرقها أو يبربها ، ولوحة « العاصفة (٣٨) » هي البحر يلطم عدوه اليابس في غضب ، ولوحة « الشاطئ » (٣٩) « لا تصور شاطئاً للهو بل ساحلا كسدرته أمواج طالبة تحت سماء مكفهرة ، ولوحة « الشتاء (٤٠) » لا تعرض مريح الترحلق ، بل كوخا حقيقيا يرتجف تحت غيوم منذرة ، وحفره الرائع « اشجار البلوط » يجرد هامن وقارها ليرى أغصانها شعشاء أوطارية . وسبقانها وقد أنجزها الزمن القاسى بالجروح وشوه شكلها . ولوحة « جبانة اليهود (٤١) » هي ذاتها صورة للعوت — أسوار متهدمة ، وشجرة تموت ، ومياه فيضان تجرى فوق القبور . وليس مرد هذا كله أن رويسدال كان دائما مكتئبا ، ففي لوحة « حقل القمح (٤٢) » نقل باحساس عميق هدوء طريق ريفي ، وركة المحاصيل الوفيرة ، وفرحة الفضاء المترامى . ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم ومناخهم قد افترت عليهما صور رويسدال ، فلم ينقلوه عليها إلا أجرا يخسأ .

وتركوا صاحبها يموت في ملجأ للفقراء . واليوم يضعه بعضهم في مكان لا يفضل فيه غير بوسان بين مصورى الطبيعة في جميع العصور (٤٣) .

ثروة لا حـد لها في حجرة صغيرة — رمبرات وهالس ، فرمير ورويسدال ، سبينوزا وهويجنس ، ترومب ودرويتز ، جان دى ويت ووليم الثالث ، كلهم في زمن واحد داخل حدود ضيقة ، يكدهون غير آمنين خلف الكشبان ، يصرون فنون السلم وسط نذر الحرب . تلك هى هولندة في القرن السابع عشر . و « ليست العبرة بكبر الحجم » .

٤ — جان دى ويت : ٦٢٥ - ٧٢

بعد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال واللهو والحرب . كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاء بأنفسهم ، فحاصيل أرضها لا تقيم أكثر من ثمن سكانها ، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات ، وهذان يعتمدان على بحرية قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية . وكان تفوق أسبانيا البحري قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية ، ونشرت البحرية الإنجليزية التي ازدهاها النصر قلوبها فوق أرجاء مترامية من المحيط . ومالبث التوسع التجارى الإنجليزي أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية في الهند وجزر الهند الشرقية ، وأفريقيا ، وحتى في « استردام الجديدة » التي ستصبح نيويورك . وأحس بعض الانجليز ، الذين لم تهدأ فيهم بعد حمية هوكنز ودريك ، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغي أن يحل محلهم بريطانياون جبابرة ، وأن هذا ميسور بنصر أو بصرين بحريين . وقد ذكر إيرل كلارندون في تقرير له « أن التجار ألفوا الحديث عن الفائدة الكبرى التي يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين ، وعن سهولة قهرهم ، وعن حجم للتجارة التي يمكن أن ينقلها الانجليز بعد ذلك » (٤٤) وراقت كروموويل الفكرة .

ففي ١٦٥١ أقر البرلمان الانجليزي قانونا للملاحه يحظر على السفن الاجنبية أن تجلب لانيجلترا أى بضاعة إلا ما ينتجه بلدها . وكان الهولنديون يشحنون إلى انجلترا حاصلات مستعمراتهم ، فتوقفت الآن هذه التجارة الراجحة . وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل في القانون ، فلم يكتف الانجليز برفض الطلب ، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الانجليزية في «المياه الانجليزية» (أى جميع المياه بين انجلترا وفرنسا والأراضي المنخفضة) اعترافاً بسيادة الانجليز على تلك البحار . وعاد المبعوثون الهولنديون بخفي حنين إلى لاهاي . وفي فبراير ١٦٥٢ استولى الانجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدوها في «المياه الانجليزية» . وفي ١٩ مايو التقى أسطول انجليزي بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندي بقيادة مارتن ترومب ، ورفض ترومب خفض علمه ، فهاجمه بليك ، وانسحب ترومب . وهكذا بدأت «الحرب الهولندية الأولى» .

وأوشكت انفصالية الأقاليم ، المفروض أنها متحدة ، أن تخرج عليها الدمار . ذلك أن الزطامة الحربية الموحدة التي أتاحها لها من قبل أمراء أورنج كانت قد انقطعت ، وأصبح المجلس التشريعي للولايات جمعية للمناقشة والجدل بدلا من أن يصبح دولة . أما الانجليز فسكانوا يملكون حكومة قوية مرمزة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل ، وكان لهم بحرية أفضل ، وقد أوتوا جميع الميزات التي حبتهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة . فدمروا أساطيل الصيد الهولندية ، واستولوا على المراكب التجارية الهولندية ، وهزموا أمير البحر الهولندي درويتر تجاه ساحل كنت . وانتصر ترومب على بليك تجاه دنهينيس (٣٠ نوفمبر ١٦٥٢) ، ولكنه مات في المعركة في يوليو التالي . وكانت نتيجة سنة واحدة من الحرب إثبات تفوق انجلترا بالبرهان الدائم . وكاد حصار الإنجليز للساحل الهولندي يشل الحياة الاقتصادية في الأقاليم المتحدة . وأشرف الألوف سكانها على الهلاك جوعا وهددوا بالتمرد .

في هذه المرحلة الحاسمة التمسعة اضطلع جان دي ويت بزعامة البلاد ، وكان ينتمى إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق في التجارة والسياسة الهولنديتين . وقد انتخب أبوه يعقوب دي ويت عمدة على دوردرشت ست مرات . أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور ، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنياليس ، وانتقى بكرومويل في إنجلترا ، ثم استقر في لاهاى محامياً (١٦٤٧) . وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحداً من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن ولهم الثانى أمير أوريج ، رئيس الدولة ، رعية في توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم . فلما مات ولهم الثانى (١٦٥٠) رفض المجلس التشريعى قبول ابنه الذى ولد عقب وفاته خلفاً له ، ربما متأثراً في ذلك بإقامة إنجلترا حكومة جمهورية فيها (١٦٤٩) بصورة بدا أن التوفيق حالها ، وألغى منصب رئيس الدولة . وأصبحت المسرحية الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التى يمثلها دي ويت ، والروح الأرستقراطية العسكرية التى أزمع أن يحياها بعد قليل الشاب المتحمس ولهم الثالث .

وى ٢١ ديسمبر ١٦٥٠ ، انتخب جان دي ويت — وهو لا يزال في الخامسة والعشرين — كبيراً لولاية دوردرشت ، وممثلاً لها في المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة . وفى فبراير ١٦٥٣ عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية ، وناط به مهمة عسيرة هى مفاوضة إنجلترا المنتصرة على الصلح . وكان كرومويل قاسياً لا يرحم ، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الانجليزية ويحيوا العلم الانجليزى فى القنال الانجليزى ، وبأن يسلموا بحق القباطنة الانجليز فى تفتيش السفن الهولندية فى البحر ، وبأن يؤدوا رسوماً نظير امتياز الصيد فى المياه الانجليزية ، وبأن يدفعوا تعويضاً عن قتل الهولنديين للانجليز فى أمبوينا عام ١٦٢٣ ، وبأن ينحوا بصفة دائمة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أوريج — الذى قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسرة ستيوارت إلى عرش إنجلترا لما بينه وبينها من مصاهرة . وحذف

دى ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعى وكما تصدق عليها منه (٢٢ أبريل ١٦٥٤) ، ثم أقنع المجلس التشريعى لاقليم واحد — هو اقليم هولندة — بقبول المعاهدة بما فيها هذا البند . ولم يختفر له ولیم الثالث فعلته هذه قط .

ثم وطد دى ويت مركزه بالزواج من وينديلا بيكر الغنية ، وأصبح عن طريقها صهرا لأمرأء التجارة فى أمستردام ، وبتأييدهم شغل أهم المناصب فى هولندة هو وأبوه ، وأخوه ، وبنو عمومته ، وأصدقائه ، وسرطان ما قبض على زمام الحكم كله فى الاقليم . وقبالت أقاليم أخرى زعامته على مضض ، لأن هولندة التى أغنتها موانئها كانت تدفع سبعة وخمسين فى المائة من نفقات الاتحاد ، وتقدم معظم الاسطول الهولندى ، ولم يكن محبوبا من جماهير الشعب . ولكن حكمه كان مستنيرا وكفؤا . فقد حدد من النفقات الباهظة ، وخفض الفائدة على الدين القدرالى ، وأجرى خفصا شاملا للأسطول ، وبنى سفنا أفضل ، ودرب عاملين جددا فى البحرية . واذ كان يعكس مشاعر التجار ، فانه كافح فى سبيل السلام ولسكنه استعد للحرب . وفى ١٦٥٨ ، ثم فى ١٦٦٣ ، أعيد انتخابه حاكما اعلى للاقاليم المتحدة . وقد وقع من نفوس المراقبين باخلاصه لمهام الحكم ، وببساطة مسلكه وتواضعه ، وببقاء حياته العائلية . ويسرت له ثروة زوجته العيش فى منزل نفخ يستطیع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب فى جو مهيب ، ولسكن ذلك المنزل كان مركزا للثقافة الهولندية أكثر منه مركزا للمظهر المترف ، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة ، ونوقش العلم والفلسفة ربما بحرية لا بطيقها لاختبودى ويت السكفنيون . وحتى سبينوزا ، ذلك المهرطق للرهبوب ، وجد صديقا وفيئا وحاميا له فى الحاكم الأعلى .

لقد كانت مأساته دائما أنه أحب السلام أكثر من الحرب ، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قواما للقضاء عليها . وفى ١٦٦٠ رد شارل

الثانى الى عرش انجلترا ، فأوصى جان دى ويت مشدداً بأن يرضى عن ابن أخته ولیم أورنج الثالث ، وبعد قليل طالب بالغاء « قانون الإبعاد » الذى أقصى بمقتضاه ولیم عن المناصب ، ووافق دى ويت وهكذا مهد الملك الاستيوارتى لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه . وفى اكتوبر ١٦٦٤ ، استولت حملة انجليزية على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية ، وأطلقت عليها اسماً آخر هو نيو يورك تكريماً لدوق يورك (جيمس الثانى مستقبلاً) وكان يومها قائد البحرية الانجليزية . واحتج المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة ، ولم تبعاً إنجلترا بالاحتجاج ، وفى مارس ١٦٦٥ بدأت الحرب الهولندية الثانية .

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذ دى ويت من استعدادات . ذلك أن ضعف القيادة قد انتقل من المجلس التشريعى إلى حكومة تشارلز الثانى الغافلة العاجزة ، وبينما كان الملك المرح يرافق خليلته ، ظفردى ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلها لسكر نواحي التنظيم الحربى وتفصيله . فقد أبحر غير مرة مع الاسطول ، وعرض نفسه لسكر مخاطر المعركة ، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته . ولم تكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفواً للبحرية الانجليزية فى السفن أو الرجال أو النظام ، فأوقعت البحرية الانجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية فى أول لقاء كبير فى الحرب (لوفستوفت ، ١٣ يونيو ١٦٦٥) . على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم وولوا عليه رجلاً من أفدر وأجراً أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ . وفى يونيو ١٦٦٧ قاد هذا الرجل ، وهو ميشيل أدريانسون درويتر ، ستا وستين سفينة إلى نهر التيمز ، واستولى على قلعه شيرنيس (على نحو أربعين ميلاً شرقى لندن) ، وحطم الحواجز التى تعترض الدخول فى نهر ميدواى (الذى يصب فى التيمز عند شيرنيس) وأخذ ، أو أحرق ، أو أغرق ست عشرة سفينة حربية كانت راسية هناك دون تأهب لمثل هذا الزائر الوقع (١٢ يونيو ١٦٦٧) . وإذ

لم يكن بتشارلز الثاني ولع بالحرب ، فقد أمر دبلوماسيه أن يعرضوا على الهولنديين صلحاً مقبولا . وفي ٢١ يوليو ١٦٦٧ وقعت الدولتان معاهدة بريدا ، وبمقتضاها نزل الهولنديون لانجلترا عن نيويورك التي خالوها غير هامه ، ووافقوا على أن يحيووا العلم الانجليزى فى المياه الانجليزية ، ونزلت انجلترا للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية . وكانت المعاهدة نصراً معتدلاً لدى ويت وبلغت به قمة نجاحه .

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء القاتلة ، فقد زاد من تنفير مؤيدى ولیم الثالث بأن أجاز فى المجلس الإقليمى لهولندا (٥ أغسطس ١٦٦٧) « مرسوماً دائماً » يمنع أى حاكم لائى إقليم من تولى قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد . فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلوا من القواد المحنكين . ولسوء الحظ وقع هذا الحدث ، الناجم عن المنافسة بين أسرتين ، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضي المنخفضة الأسبانية ، فهددت بذلك المصالح الحيوية للأقاليم المتحدة . فلو أن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح الشك للتجارة الأجنبية من جديد ، فإذا انتعشت بذلك أنتورب تحدثت السيادة التجارية لأمستردام ، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله فى خطر . ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها ؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة ، ويستولى على مصاب الراين ، لما بقى للبلد فى الواقع وجود ، ولقضى على البروتستنتية الهولندية قضاء مبرماً .

وعرض دى ويت على الملك المعتدى سلسلة من الحلول الوسط ، ولكنه رفضها . فاتفق مع أنجلترا (٢٣ يناير ١٦٦٨) ، ثم مع السويد ، على حافز ثلاثى للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسى . ووافق لويس فى لباقة على إنهاء « حرب الأيلولة » (الورثة الأسبانية) شريطة أن يستبقى نطاقاً من المدن

والحصون التي استولى عليها في فلاندر وإيتو . وارتضت هذه الشروط
إنجلترا والسويد ، ثم الأقاليم المتحدة ، في معاهدة إكس - لا - شابل
(٢ مايو ١٦٦٨) . وبدأ أن دبلوماسية دى ويت جنبت البلاد الخطر ، وفي
يوليو انتخب للمرة الرابعة ليشغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة
خمس سنوات أخرى .

ولسكنه أخطأ استقراء سياسات ملكي فرنسا وإنجلترا . ذلك أن لويس
لم يغتفر للهولنديين قط تدخلهم في غزوه للأراضي المنخفضة الأسبانية .
فأقسم أنه « إن ضايقة هولنده كما ضايقة الأسبان فسيرسل رجاله بالجوارف
والمعاول ليقذفوا بها في البحر » (٤٥) ، ربما يفتح الجسور البحرية عليها .
كانت تغيظه الجمهورية ، وكان يطمع في الراين ، فمقد النية على تدمير تلك ،
والسيطرة على هذا . وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التي
نشبت بين الخصمين ؛ فقد فرض كولبير رسوما مانعة على البضائع الهولندية
التي تدخل فرنسا ، ورد الهولنديون عليها بمثلا . ولسكن الذخيرة الحربية
استثنيت استثناء بارعا من هذه القيود ؛ ذلك أن لوفوا ، وزير الحربية
الفرنسي ، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقادير هائلة من المتاد
الحربي (٤٦) ، وفي الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة
على الضرائب التي أراد دى ويت فرضها لتزويد الجيش بالأمداد والمؤن .
وأثبت السلك الدبلوماسي الفرنسي حذقه ، أو ثراه ، بهزله إنجلترا والسويد
عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة . فوافق تشارلز الثاني في معاهدة دوفر
السرية (١ يونيو ١٦٧٠) على التخلي عن الحلف الثلاثي والانضمام إلى لويس
في حربه مع الهولنديين . أما السويد فقد انسحبت من الحلف في ١٦٧٢
لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا ، ووعدت أسبانيا ،
والإمبراطورية ، وبراندنبورج ، الجمهورية بالمساعدة ، ولكن ما كان تحت
نصرفها من قوات كان أضال أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

القوات المجندة المضخمة التي أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة برآ وبحراً . وطاد
دى ويت يعرض الننازلات والحلول الوسط ، فرفضها لويس

وفي ٢٣ مارس ١٦٧٢ بدأت إنجلترا الهجوم على الجمهورية الهولندية ،
وفي ٦ أبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب . وسرطان مازحف نحو ١٣٠٠٠ ر١٣٠٠
مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين ، وكونديه ، ولكسمبور ، وفونان ،
ولويس نفسه . يقول فولثير « لم يشهد الناس من قبل جيشاً ضخماً كهذا
الجيش (٧) » ، واخترقت القوة الفرنسية الرئيسية ، باستراتيجية بارعة وغير
متوقعة ، الأراضي الألمانية — مهددة نائرة القرى بـ « الهدايا » — لتهاجم
النقط الأضعف تحصيناً . وفي ١٢ يونيو ، وتحت نيران الهولنديين وبصر
الملك ، عبر الفرنسيون الراين ، وهم يسبحون عرض الأقدام الستين التي لم
يسمح لهم عمقها أن يخوضوها ، وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور
والأيقونات الملكية . وزحفت الجيوش الملكية شمالاً إلى قلب الأقاليم
المتحدة ، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة . واستسلمت أوترخت
دون مقاومة ، وأذعن أقلباً أوفريسيل وجلدرلاند ، ولم يبق بعد قليل غير
أمستردام ولاهاي . ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التي أوقعتها درويتر في ٦
يونيو بالأسطولين الإنجليزى والفرنسى مجتمعين فى خليج ساوثولد .
ومطلب دى ويت الصلح ، فطالب لويس بتعويض ضخيم ، وبسيطرة الفرنسيين
على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية ، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء
الجمهورية . ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية ،
فلجأوا إلى دفاعهم الأخير : وفتحوا الجسور ، وأدخلوا البحر عدوهم القديم
صديقاً منقذاً ، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس ، وتقمقر الفرنسيون
حاجزين أمام هذا الفيضان الذى أخذهم على غرة .

ومع هذا فقد خربت البلاد ، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب
كولونيا ، المتحالفين مع لويس ، تزحف دون طائق على إقليم أوفريسيل ،

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم أنف درويتر ، وأشرفت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار . أما دى ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أى رجل قبله فى تاريخ هولنده — فجمع الأموال ، وجيز الأسطول وزوده ، ووقف إلى جوار درويتر فى معركة خليج ساوثوولد ، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه . وفى يونيو ١٦٧٢ عرض على لويس أن ينزل له عن ماسترشت واجزاء من برابنت الهولندية ، وأن يدفع كل نفقات الحرب . ولكن لويس ازدري هذا العرض أيضاً ، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض نددوا به رجلا يبيت استسلام الخيانة للويس^(٨) . وألقى عليه الشعب الآن كل تبعة ما أصابهم من نكبات . واتهموه بالنقمة الساذجة للمستهتزة فى وعود تشارلز الثانى ولويس الرابع عشر ، ورموه بتعيين أقاربه فى أكثر من عشر وظائف مجزية ، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يغتفروا له حرمان بيت اورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التى حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان . ثم لاموه على عجز قواده البورجوازيين وجبنهم . ورماء القساوسة الكلفنيويين بأنه ملحد مقنع ، وتابع لديكرت وصديق لسبينوزا^(٩) . وحتى طبقات التجار التى كانت من قبل سنده الأكبر انقلبت عليه الآن واتهمته بأنه منظم الهزيمة .

وشاركه أخوه كورنيليس فى تلقى بغض الجماهير وشتائمها ، وهو الذى قام به من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها . وفى ٢١ يونيو ١٦٧٢ بدلت محاولة فاشلة لاغتيال جان ، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس . وفى ٢٤ يوليو قبض موفغو لاهاي على كورنيليس بتهمة التآمر على أمير اورنج وفى ٤ أغسطس استقال جان من منصبه كما أعلى . وفى ١٩ أغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفى . وشق جان طريقه خلال المدينة الممادية الى سجن الجيفانجيبورن ليرى أخاه رغم أنه حذر بأنه يعرض حياته للخطر . ومالئ جمع من

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصائغ وحلاق .
وكان هناك حارس مدنى كلف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على
الأخوين دى ويت ، فلم يبد أى مقاومة حين حطموا أبواب السجن
واندفعوا الى داخله . وقبضوا على جان وكورنيليس ، وجروهما الى الليدان ،
وضربوهما حتى الموت ، وعلقوا جثتيهما على عمود نور ورأسهما من كسان
(٢٠ أغسطس ١٦٧٢) . وماتت الجمهورية الهولندية بموتهما ، وطاد بيت
أورنج الى السلطة من جديد .

ه - وليم أورنج الثالث

نشأت ماري ستيوارت ولدها على لون مكثث من ضبط النفس
يتقرب فى صمت فرصته حتى يأتى التجلد بالنصر ، وذلك بعد أن حطم
روحها إعدام أبيها تشارلز الأول (١٦٤٩) ، وموت زوجها الشاب وليم
أورنج الثانى (١٦٥٠) ، والغاء منصب رئاسة الدولة ، واقضاء بيت
أورنج عن الوظائف . هذا الصبي الهزيل الجسد ، الذى أحرق به فى نومه
الأعداء المكلفون بحراسته ، والذى ورث رغم ذلك عن وليم أورنج الأول
شعاره « سأقاوم » -- نقول انه شب فتى غليلا ينفى وراء وجهه الجلامد نارا
مستمرة من العزيمة والثأر . واذا كان صارما ، مؤدبا . مجاملا فى برود . فقد
زهد فى اللهو والمرح ، ومارس الرياضات الخلوية علاجا لصداعه المتكرر
ولتمرضه لنوبات الاغماء . لقد كان إناء ضعيفا لتلك الروح التى تستولى
على عرش انجلترا وتؤدب ملك فرنسا .

وذهبت أمه الى انجلترا فى ١٦٦٠ ابتهاجا بتتويج أخيها ، وماتت هناك
بالجدري فى ليلة عيد الميلاد . وفى ١٦٦٦ أعلنت حكومة انليم هولنده
الأمير ذا الستة عشر عاما قاصرا تحت وصاية الدولة ، واستبدل جان دى
ويت بأوسميائه ومعلميه المحبوبين اشخاصا اكثر استجابة لسياسة المجلس

الاقليمي (٥٠). وكان كره وليم لدى ويت يزداد على الايام . وفي قمة سلطان جان ، أدلت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جياده من لاهاي الى بيرجن أوب - زوم (١٦٦٨) ، ثم استقل زورقا الى زيلند ، وكانت اكثر الاقاليم ولاء لاجداده . وحياء سكان حاصمتها مدلبورج بمظاهرات كبيرة تقديس حبا واخلاصا . فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة المجلس الاقليمي لزيلندة . فلما جاء الى لاهاي أعلن انه بلغ الآن رشده في عيد ميلاده الثامن عشر (٤ نوفمبر ١٦٦٨) ، وأنه منذ الآن سيسمى عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولندة . ولكن المجلس رفض سميتهم ، فطردهم ، ولسكنهم بقوا . وترقب وليم فرسته . وقد واثته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية ، واستسلمت الجيوش الهولندية بلدا بعد بلد ، وبدا أن لاهاي ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وعين المجلس التشريعي وليم قائدا عاما للاتحاد (٢٥ فبراير ١٦٧٢) ، مدعنا لمطالب العسكريين ، ومؤملا أن تعود الى الأمة وحدتها ومعنويتها . برد بيت أورانج الى مكان القيادة . وفي ٢ يوليو انتخب مجلس زيلندة وليم حاكما لاقليمهم ، ضاربا بالمرسوم الدائم عرض الحائط ، وفي ٤ يوليو هذا المجلس هولندة وحذوه ، وفي ٨ يوليو عين قائدا أعلى لقوات الاتحاد المسلحة في البر والبحر . وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح نظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين ، والنزول عن مساحات كبيرة لفرنسا ، وموستر ، وكولونيا ، وقدم عرض سري بالاعتراف بوليم ملكا على الباقي . وأتمه اليه مجلس هولندة يطلب النصيحة فأجاب ، « خير لنا أن نقطع إربا من أن نقبل هذه الشروط (٥١) . » وحين حضر دوق بكنجهام الثاني من انجلترا ليبحث وليم على الصالح وقاله « ألا ترى أن وطنك قد ضاع ؟ » أجاب « ان وطني في خطر عظيم ، ولكن هناك سبيل مؤكد لمنعه من الضياع ، وهو الموت في آخر خندق (٥٢) » . ومع ذلك ففي حكمة تستغرب من قتي في الثانية والعشرين ، اشار بالمناوشات الصابرة المجاملة مع الانجليز ، ولعله رأى آثما أن في التعاون

بن الانجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا . واتخذ من التدايير ما يكفل توثيق الروابط بين الأقاليم المتحدة ، والامبراطورية ، وبرايدنبورج . وكانت الخطوط العريضة للحاف الأعظم تتشكل في ذهنه . ومضى الى المقر الرئيسى للجيش ، لذلك كان غائبا عن لاهاي حين قتل الأخوان دى ويت . والظاهر أنه لم يكن ضالعا في تدبير هذه الفعلة ، التي ربما لم يدبرها أحد ، ولكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنبيها ، وحى الرجال الذين قادوا العوغاء ورتب لهم معاشا (٥٣) . ثم حاول الآن أن يكون قائدا كنفوا ، فلم يوفق قط في محاولته ، غير أن المقاتلين المحنكين الذين انضوا تحت لوائه في حماسة أعادوا تنظيم الجيش والبحرية ، وبدأت الانتصارات ترجح الميزان ، وتفوق درويتر وكوريليس ترومب (بن مارتن) على الأسطولين الانجليزى والفرنسى في شونفيلت وكيسكدين (١٦٧٣) ، وصعد الغزاة الألمان عند جرونجن ، واستولى عليهم على . باردن ، وطهرت أقاليم جلدرلاند وأوترخت ، واوغريسيل ، من العدو . وراح الفرنسيون يتقهقرون في كل مكان تقريبا ، وأنقذت الأقاليم المتحدة ، مؤقتا على الأقل ، فهلت لوليم منقذاتها .

ثم أضاف الى هذه الانتصارات انتصارات دبلوماسية . ففي ١٩ فبراير ١٦٧٤ أوقع انجلترا بأن تبرم معه صلحا منفردا إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليون فلورين ؛ وفي ٢٢ أبريل و ١١ مايو وقع معاهدتين مع موستر وكولونيا ، ثم اكسد التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة ، وأسبانيا ، وبرايدنبورج ، والدنمرك ، والامبراطورية ، ضد فرنسا التي أصبحت الآن معزولة . وكانت الضربة الأخيرة ظفروه بيد مارى ، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك انجلترا . وتقاربت الآن الدولتان البروتستانتيتان السكبريان ، وراحت الشبكة تحسكم خيوطها حول فرنسا ، ولم يكن أمرا هيئا أن يكون لمارى حق في وراثة العرش الانجليزى لا يتقدم عليه غير حق أبيها فيه . وادرفى التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كوليم مثل هذه الخطط البعيدة النظر ، ولا حقق لها نجاحا كهذا النجاح .

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك ، فاستولوا على إيبروغنت ، وزحفوا نحو الحدود الهولندية . وهزم أسطول فرنسي درويتر نجاح شاطئ صقلية (٢٢ أبريل ١٦٧٦) ، وبعد أسبوع مات درويتر متأثراً بجراحه . وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحدة بشروط مغرية : أن يرد كل الأراضي الهولندية التي استولى عليها الفرنسيون ، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة على احتفاظه بفراش - كونييه والورين . واحتج الامبراطور ، وبراندينبورج ، والدنمرك على هذا الصلح ، وأيدهم وليم ، ولكن المجلس التشريعي الذي غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه ، وتخلي عن حلفائه ، ووقع مع فرنسا صلح نيميغن المنفصل (١٠ أغسطس ١٦٧٧) . أما وليم فقد نظر إلى الصلح على أنه مجرد هدنة ، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف . وكبح انتجار الهولنديون طبعه العسكري ، محتجين بأن الأقاليم المنهكة في حاجة لأن تستريح من النضال ، وأن الرخاء في طريقه إليها . على أن حدثين وقعا عام ١٦٨٥ فاستغلها وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم نانت ، فاحتشد الهيجونوت المضطهدون في الأقاليم المتحدة ، وتزعموا دعوة شبيطة لتوحيد الدول البروتستانتية ضد فرنسا . وفي إنجلترا كشف جيمس الثاني ، بعد أن تولى عرشها ، عن أهله في رد الأمة إلى الكاثوليكية ، فدبر البروتستانت الإنجليز عزله ، وبذلك يحل حق ماري زوجة وليم في العرش . وكان وليم قد عشق إليزابيث فيايميه ، صديقة ماري (٥٤) الحبيبة ، ولكن ماري فقرت له ، ووافقت على طاعة زوجها بوصفه ملكاً أن هي أصبحت ملكة على إنجلترا . وفي ١٦٨٦ أفلح وليم في تنظيم حلف مع الامبراطورية ، وبراندينبورج ، وأسبانيا ، والنسويد ، للدفاع المشترك . وفي ٣٠ يونيو ١٦٨٨ دعا الزعماء البروتستانت الإنجليز وليم وماري إلى دخول إنجلترا بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملكهم الكاثوليكي . وتردد وليم ، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش عرمرم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضي المنخفضة أو الامبراطورية . وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا ، فأطلق بذلك يد وليم . وفي ١ نوفمبر ١٦٨٨ أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش إنجلترا .

فرس

المجموع الأول

من المجموع ————— لد الثامن

١٧١٧ - ١٦٤٣

الكتاب الأول

فرنسا في أوج عظمتها ١٦٤٣ - ١٧١٧

صفحة

الفصل الأول

٧

المهمس تشرق : ١٦٤٣ - ٨٤

٢١ - ٧

١ - مازاران والفروند .

٣١ - ٢١

٢ - الملك .

٣٤ - ٢١

٣ - هولاء فوكية .

٣٤ - ٣٥

٤ - كيربير يعيد بناء فرنسا .

٥٢ - ٤٥

٥ - الآداب والأخلاق .

٥٧ - ٥٢

٦ - بلاط الملك .

٦٨ - ٥٧

٧ - - - - - أسماء الملك .

٧٤ - ٦٩

٨ - الملك يفضى إلى الحرب .

الفصل الثاني

٧٥

وثقة الإيمان ١٦٤٣ - ١٧١٥

٨١ - ٧٥

١ - الملك والكنيسة .

٨٦ - ٨١

٢ - البور - رويال ١٢٠٤ - ١٦٢٦

٩٠—٨٦	٣ — الجانسيون واليسوعيين
٩٠	٤ — إسكال .
٩٥—٩٠	(أ) إسكال الإنسان .
٩٧—٩٥	(ب) الرسائل الاقليمية .
١٠٧ ٩٧	(ج) في الدفاع عن الإيمان .
١١٠—١٠٧	٥ — البرور — رويال . ١٦٥٦ — ١٧١٥
١١٩—١١١	٦ — قلاك والهيجونوت .
١٢٨—١١٩	٧ — موسويه .
١٣٥ — ١٢٨	٨ — فنيالون

الفصل الثالث

١٣٦	١٧١٥ — ١٦٤٣ : قلاك والفنون
١٤٠—١٣٦	١ — تنظيم الفنون .
١٤٦—١٤٠	٢ — المهارة
١٤٩ — ١٤٦	٣ — الزخرفة .
١٥٥ — ١٤٩	٤ — التصوير .
١٦١—١٥٥	٥ — النحت .

الفصل الرابع

١٦٢	١٦٢٧ — ٧٣ : موليير
١٦٤ ٢٦٢	١ — المسرح الفرنسي .
١٦٧ ١٦٤	٢ — تلمذته
١٧٧—١٦٨	٣ — موليير وسيدات المجتمع
١٨٣ ١٧٧	٤ — غرام طرفوف
١٨٦ ١٨٣	٥ — الملحد العاشق .

- ٦ — مولير في أوجه . ١٨٦ - ١٩٤
٧ — ستار . ١٩٤ - ١٩٨

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي : ١٩٩

١٦٤٣ - ١٧١٥

- ١ — جو الكلاسيكية . ١٩٩ - ٢٠٢
٢ — تذييل لـ كورني . ٢٠٢ - ٢٠٤
٣ — راسين . ٢٠٤ - ٢٢١
٤ — لافونتين . ٢٢١ - ٢٢٤
٥ — بوالو . ٢٢٤ - ٢٢٨
٦ — الاحتجاج الرومانسي . ٢٢٩ - ٢٣١
٧ — مدام دسفيانييه . ٢٣٢ - ٢٣٧
٨ — لا روشفوكو . ٢٣٧ - ٢٤٣
٩ — لا برويير . ٢٤٣ - ٢٤٥
١٠ — مزيد من الأدباء . ٢٤٥ - ٢٥٠

الفصل السادس

مأساة في الأراضي المنخفضة : ١٦٤٩ - ١٧١٥ ٢٥١

- ١ — الأراضي المنخفضة الأسبانية . ٢٥١ - ٢٥٣
٢ — الجمهورية الهولندية . ٢٥٣ - ٢٥٨
٣ — ازدهار صور الحياة اليومية . ٢٥٨ - ٢٦٣
٤ — جان دي ويت . ٢٦٣ - ٢٧٢
• — وليم أورنج الثالث . ٢٧٢ - ٢٧٦

CHAPTER I

1. Motteville, Mme. de, *Memoirs*, I, 79.
2. Retz, Cardinal de, *Memoirs*, 103.
3. Motteville, I, 81.
4. Retz, 103.
5. Motteville, III, 232.
6. *History Today*, July 1959, p. 461.
7. Bishop, M., *Life and Adventures of La Rochefoucauld*, 149.
8. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 36.
9. Retz, 281.
10. Sainte-Beuve, *Portraits of the Seventeenth Century*, I, 335.
11. Retz, 55, 73.
12. Voltaire, *Louis XIV*, 67.
13. Michelet, *Histoire de France*, IV, 388; Acton, *Lectures on Modern History*, 235.
14. Motteville, III, 237.
15. Palmer, *Molière*, 15.
16. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 361.
17. Sainte-Beuve, I, 422.
18. *Ibid.*, 417.
19. *History Today*, March 1954, p. 149.
20. Voltaire, 256.
21. *Ibid.*, 69.
22. Rea, Lillian, *Countess of La Fayette*, 170.
23. Ferval, *Louise de La Vallière*, 55.
24. Saint-Simon, II, 369.
25. Sainte-Beuve, I, 413.
26. Saint-Simon, II, 361.
27. Sainte-Beuve, I, 423.
28. Louis XIV, *Mémoires*, 35.
29. In Sainte-Beuve, I, 417.
30. Boulenger, *Seventeenth Century*, 178.
31. Motteville, III, 248.
32. Lewis, W. H., *Splendid Century*, 30.
33. Voltaire, 257.
34. Barine, *La Grande Mademoiselle*, 117.
35. Louis XIV, 76.
36. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 63-65; Michelet, IV, 424-27.
37. Guizot, *History of Civilization*, I, 260.
38. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 533.
39. Louis XIV, 96.
40. King, J. E., *Science and Rationalism in the Government of Louis XIV*, 87.
41. Saint-Simon, II, 34.
42. Louis XIV, 68.
43. King, 95.
44. Saint-Simon, II, 106, 370.
45. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 153.
46. Louis XIV, 70.
47. France, Anatole, *Nicolas Fouquet*, 258.
48. Voltaire, 262.
49. Martin, H., I, 23, quoting de Choisi.
50. Louis XIV, 74.
51. Martin, I, 22.
52. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 93.
53. Martin, I, 34.
54. *Ibid.*, 33f.; Michelet, IV, 410.
55. Boulenger, 356.
56. Mousnier, R., *Histoire générale des civilisations*, IV, 148.
57. Voltaire, 324; Martin, I, 79.
58. Michelet, IV, 428.
59. Mousnier, IV, 148.
60. Voltaire, 273; Martin, I, 86.
61. Boulenger, 357; Lewis, *Splendid Century*, 81.
62. *History Today*, March 1954, p. 155.
63. Mousnier, IV, 252.
64. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 154.
65. Mousnier, IV, 250; *Cambridge Modern History*, V, 11.
66. Boulenger, 355.
67. Levasseur, *Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789*, I, 394.
68. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 366.
69. In Acton, *Lectures*, 326.
70. Martin, I, 489-90, 496.
71. Voltaire, 323.
72. Martin, I, 558.
73. Barine, 13.
74. Saint-Simon, I, 383; Voltaire, 288.
75. *Encyclopaedia Britannica*, XIII, 778c; Brereton, *Jean Racine*, 145-51.
76. Molière, *Théâtre: École des femmes*, I, i.
77. Sainte-Beuve, I, 250; Day, Lillian, *Ninon*, 34.
78. Sévigné, Mme. de, *Letters*, I, 98, April 1, 1671.
79. Day, *Ninon*, 141.
80. Parton, *Life of Voltaire*, I, 33.
81. Saint-Simon, I, 344.
82. Sévigné, I, 105, April 8, 1671; Day, *Ninon*, 241.
83. *Ibid.*, 80.
84. Saint-Simon, I, 344.
85. Day, 246.
86. *Ibid.*, 185.
87. Saint-Simon, I, 345.
88. Day, 160.
89. Sainte-Beuve, II, 199.

90. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 109.
 91. Michelet, V, 118.
 92. Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 74.
 93. Boulenger, 349.
 94. Bourgeois, 77; Guizot, *History of France*, IV, 587.
 95. La Bruyère, *Characters*, chap. "Of the Gifts of Fortune."
 96. Voltaire, 278.
 97. Saint-Simon, II, 11.
 98. Fülöp-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 415.
 99. Martin, I, 172.
 100. *Ibid.*, 171.
 101. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 942.
 102. Day, *Ninon*, 163.
 103. Cartwright, *Madame; A Life of Henrietta, Duchess of Orléans*, 89.
 104. Racine, *Oeuvres: Andromaque*, Dedication.
 105. Michelet, IV, 405.
 106. *Ibid.*, V, 158.
 107. Cartwright, 371; Voltaire, 284; Martin, I, 312.
 108. Ferval, *La Vallière*, 67.
 109. *Ibid.*, 302.
 110. Voltaire, 282.
 111. Michelet, IV, 437.
 112. Saint-Simon, I, 191.
 113. Boulenger, 192.
 114. Crutwell, *Mme. de Maintenon*, 29.
 115. *Ibid.*, 46.
 116. *Ibid.*, 53.
 117. Michelet, V, 69; Martin, I, 535.
 118. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 46.
 119. Crutwell, 89; Martin, I, 530.
 120. Boulenger, 195; Michelet, IV, 490; Crutwell, 118-19.
 121. Saint-Simon, II, 381.
 122. *Ibid.*, III, 15.
 123. Acton, 236; Ogg, *Europe in the 17th Century*, 231.
 124. Louis XIV, 122-25.
 125. Martin, I, 417.
 126. Voltaire, 260; Martin, I, 400; *Enc. Brit.*, XII, 682c; Acton, 243.
 127. *Camb. Mod. History*, V, 77.
 128. Lewis, *Splendid Century*, 139.
 8. Ranke, *History of the Popes*, II, 420.
 9. Fülöp-Miller, 105.
 10. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 74f.
 11. *Ibid.*, 83; Beard, Charles, *Port-Royal*, II, 30.
 12. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 89.
 13. Beard, Charles, I, 30.
 14. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 90.
 15. *Ibid.*, II, 407n.
 16. Beard, C., I, 52.
 17. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 94.
 18. Pascal, *Provincial Letters*, Introd., 97, and 421n.
 19. Voltaire, 419; Beard, C., I, 260.
 20. Pascal, *Letters*, Introd., 109.
 21. Mesnard, *Pascal*, 12.
 22. Mornet, Daniel, *Short History of French Literature*, 75.
 23. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 379; Mesnard, 40.
 24. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 748.
 25. Pascal, *Pensées*, Havet ed. Introd., p. civ.
 26. Mesnard, 57.
 27. *Ibid.*, 209.
 28. Pascal, *Pensées*, Introd., p. cxxiii.
 29. Pascal, *Provincial Letters*, 197.
 30. *Ibid.*, 417.
 31. *Ibid.*, 465; *Pensées*, II, 118.
 32. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 235.
 33. Mesnard, 92.
 34. Voltaire, 424.
 35. In Pascal, *Provincial Letters*, 127n.
 36. Fülöp-Miller, 195.
 37. Voltaire, 424, 358.
 38. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 118.
 39. Voltaire, 359.
 40. Sainte-Beuve, III, 173f.; Beard, C., I, 84.
 41. Pascal, *Pensées*, Introd., xxviii; Mesnard, 137-38.
 42. Cf. Rabelais, Book III, Ch. xiii.
 43. *Pensées*, Introd., p. xxv; text, 17bis.
 44. *Ibid.*, text, i, 1.
 45. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, 174.
 46. *Pensées*, Everyman's Library, No. 82.
 47. *Pensées*, Havet ed., Book III, No. 18.
 48. Everyman ed., No. 4.
 49. Havet ed., XVI, pt. 1bis.
 50. *Ibid.*, XX, p. 19.
 51. *Ibid.*, I, p. 1.
 52. Everyman ed., No. 349.
 53. *Ibid.*, No. 418.
 54. Havet ed., VIII, p. 1.
 55. *Ibid.*, II, p. 8.
 56. *Ibid.*, VI, p. 51; Everyman ed., No. 451.
 57. Havet, IV, p. 1.
 58. *Ibid.*, II, pp. 6, 20c, 3.
 59. Everyman, No. 402.

CHAPTER II

- Voltaire, *Age of Louis XIV*, 393; Guérard, 186-90.
- Mesnard, *Pascal*, 99.
- Campbell, *The Jesuits*, 259; Fülöp-Miller, 195.
- Voltaire, 430.
- Saint Simon, II, 84.
- Ibid.*, III, 17.
- Louis XIV, 119.

60. *Ibid.*, No. 397; Havet, I, p. 3.
 61. Havet, I, p. 6; Everyman, No. 347.
 62. Everyman, No. 277.
 63. Havet, XXIV, p. 52.
 64. *Ibid.*, X, p. 1; Everyman, No. 233.
 65. Everyman, No. 233.
 66. Havet, II, p. 8.
 67. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 508.
 68. Havet, IV, 7.
 69. *Ibid.*, XIV, 2.
 70. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 124.
 71. Owen, 800.
 72. *Ibid.*, 775.
 73. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 320.
 74. Beard, C., II, 75.
 75. *Provincial Letters*, 59.
 76. *Pensées*, Havet, *Introd.*, cxii.
 77. Beard, C., II, 352.
 78. Disraeli, Isaac, *Curiosities of Literature*, I, 97.
 79. Saint-Simon, II, 12.
 80. Boulenger, 284.
 81. Michelet, V, 298.
 82. In Martin, H., I, 231.
 83. Lewis, *Splendid Century*, 108.
 84. Sanders, *Bossuet*, 53.
 85. *Camb. Mod. History*, V, 12.
 86. Martin, I, 529.
 87. *Ibid.*
 88. *Ibid.*, 532.
 89. Michelet, IV, 520.
 90. Guizot, *History of France*, V, 23.
 91. *Camb. Mod. History*, V, 23.
 92. *Ibid.*
 93. Boulenger, 263.
 94. Martin, I, 552.
 95. Ogg, *Seventeenth Century*, 305.
 96. Martin, II, 33.
 97. *Ibid.*, 43.
 98. Buckle, H. T., *History of Civilization*, II, 492n., quoting Benoist, Élie, *Histoire de l'Édit de Nantes* (1695), V, 887f.
 99. Michelet, IV, 507.
 100. Voltaire, 409.
 101. Martin, II, 44.
 102. Robertson, J. M., II, 142.
 103. Saint-Simon, III, 14.
 104. Beard, Miriam, 173.
 105. Bacon, "Of Unity in Religion," in *Essays*.
 106. Sanders, *Bossuet*, 46.
 107. Bossuet, *Oraisons funèbres et sermons*, 69.
 108. *Ibid.*, 108.
 109. Eccles. xvii, 14.
 110. Romans xiii, 1.
 111. Isaiah xiv, 1.
 112. Sanders, 213.
 113. Bossuet, in Ogg, 102.
 114. Sanders, 260.
 115. Buckle, *Ib.*, 569.
 116. Faguet, *Literary History of France*, 446.
 117. Michelet, IV, 517.
 118. Martin, II, 268.
 119. Sanders, 280; Michelet, IV, 412.
 120. Fénelon, *Télémaque*, end of Book IX.
 121. *Ibid.*, Book XIII.
 122. Faguet, *Literary History*, 446.
 123. Hazard, *The European Mind: The Critical Years*, 108.
 124. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 191.
 125. Bayle, *Philosophical Commentary on . . . "Let Them Come in,"* in Robinson, H., *Bayle the Sceptic*, 73.
 126. Bayle, *Dictionnaire historique et critique*, s.v. "Xénophanes."
 127. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 302.
 128. Morner, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 24.
 129. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 35.
- ### CHAPTER III
1. Pradel, *L'Art au siècle de Louis XIV*, 101.
 2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 376.
 3. *Ibid.*, 325.
 4. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 583.
 5. Pradel, 96.
 6. *Ibid.*, 99.
 7. Boulenger, 365.
 8. Fergusson, *History of the Modern Styles of Architecture*, 236-8.
 9. Saint-Simon, I, 186.
 10. Martin, II, 212; Blomfield, *Three Hundred Years of French Architecture*, 86.
 11. Victoria and Albert Museum, London.
 12. Dillon, *Glass*, 210.
 13. Guizot, *History of France*, IV, 566.
 14. Stranahan, *History of French Painting*, 50.
 15. Louvre.
 16. Dimier, Louis, *Histoire de la peinture française* (Paris, 1927), II, 45.
 17. Versailles.
 18. Benoist, *Coysevox*, 115; the bust is in the Louvre.
 19. Louvre.
 20. Louvre.
 21. Louvre.
 22. Louvre.
 23. Louvre.
- ### CHAPTER IV
1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 258.
 2. Palmer, *Monette*, 46.

3. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, IV, 42.
4. Molière, *Le Misanthrope*, II, v, 711f.
5. Lucretius, *De rerum natura*, IV, 1155f.
6. Martin, I, 190, Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 95-97.
7. Palmer, 59.
8. Voltaire, *Life of Molière*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 628.
9. Palmer, 147.
10. *Les Précieuses ridicules*, scene iv, in Molière, *Plays*, Everyman's Library ed.
11. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 171.
12. Palmer, 145.
13. *Les Précieuses ridicules* (Everyman ed.), scene ix.
14. *L'École des maris* (Everyman), I, i.
15. *L'Impromptu de Versailles* (Everyman), I, i.
16. *L'École des femmes*, I, i.
17. *L'École des femmes* (Everyman) I, i.
18. *Critique de l'École des Femmes*, vi.
19. *Ibid.*
20. Michelet, IV, 419.
21. Molière, *Théâtre*, II, 40.
22. Palmer, 315.
23. *Tartuffe* (Everyman), I, vi.
24. *Ibid.*, III, ii.
25. III, vii.
26. IV, v.
27. *Le Festin de pierre* (Everyman), I, i.
28. *Ibid.*, III, i.
29. IV, ii.
30. Palmer, 380f.
31. As in the Everyman's Library edition.
32. *Le Festin de pierre* (Everyman), III, i.
33. Garrison, *History of Medicine*, 196.
34. *L'Amour médecin* (Everyman), II, v.
35. Palmer, 410.
36. *Le Misanthrope* (Everyman), II, i.
37. *Le Misanthrope*, I, i.
38. *Ibid.*, Classiques Larousse ed., 97-98.
39. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 126-27.
40. *L'Avare*, II, vi.
41. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), II, iv.
42. Guizot, *History of France*, IV, 560.
43. Michelet, IV, 421.
44. *Le Malade imaginaire* (Everyman), III, iii.
45. Edwards, *Idols of the French Stage*, I, 40.
46. *Ibid.*, 45.
47. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), I, i.
48. *Critique de l'École des femmes* (Everyman), vi.
49. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 140.
50. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 104.

CHAPTER V

1. Martin, I, 142; Boulenger, 360; *Camb. Mod. History*, V, 152; Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 93.
2. Guizot, *History of Civilization*, II, 231; Hauser, *Social History of Art*, I, 470.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e siècle*, III, 404.
4. Van Laun, *History of French Literature*, II, 184.
5. *Enc. Brit.*, VI, 441b.
6. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 293; Brereton, *Racine*, 29.
7. Racine, Louis, *Mémoires sur la vie . . . de Jean Racine*, in Racine, Jean, *Oeuvres*, I, 42.
8. Brereton, 29.
9. Guizot, *History of France*, IV, 539.
10. Racine, *Andromaque*, I, iii.
11. Brereton, 154; Martin, I, 170.
12. Suetonius, *De vita Caesarum: Divus Titus*, vii, 2.
13. Racine, *Bérénice*, I, v.
14. Desnoiresterres, VI, 96.
15. Guizot, *France*, IV, 541.
16. Smith, Adam, *Theory of Moral Sentiments*, I, 255.
17. Racine, *Oeuvres*, I, 765.
18. Brereton, *Racine*, 245-52.
19. *Ibid.*, 19.
20. 2 Kings xi; 2 Chronicles xii.
21. Racine, *Athalie*, IV, iii.
22. Parton, *Voltaire*, I, 591; Mme. du Defsand, in Strachey, *Books and Characters*, 99; Guizot, *France*, IV, 546; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 147; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 314.
23. Guizot, *France*, IV, 548.
24. Racine, Louis, *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, p. iii.
25. Saint-Simon, I, 155; Guizot, *France*, IV, 548-49; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 153; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 303.
26. Guizot, IV, 548.
27. *Ibid.*
28. Racine, L., *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, 113.
29. Babbitt, Irving, *The Spanish Character*, 98.
30. Brereton, 143.
31. Sévigné, Mme. de, *Letters*, II, 110 (Mar. 16, 1672).
32. Desnoiresterres, VI, 102, 281.
33. Hume, "Of Civil Liberty," in *Essays*, 52.

34. La Fontaine, *Choix de contes*, 151.
35. *Fables*, Preface.
36. Rea, *Life of . . . Countess of La Fayette*, 130.
37. Guizot, IV, 552.
38. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 148.
39. Guizot, IV, 553.
40. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, V, 24.
41. *Ibid.*
42. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 138.
43. Boileau, *Satire 1*, in *Poètes français*, VII, 21.
44. *Satire 1x*.
45. *Poètes français*, VII, 182-85; *Enc. Brit.*, III, 790d.
46. Day, *Ninon*, 211.
47. Boileau, *L'Art poétique*, 1, ll. 75-76.
48. *Ibid.*, ll. 171-74.
49. IV, 59-60.
50. IV, 125-26.
51. III, 45-46.
52. III, 391-94.
53. In Fischer, *Descartes and His School*, 511.
54. Guizot, *France*, IV, 551.
55. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 261.
56. Lewis, *Splendid Century*, 268.
57. Guizot, IV, 519.
58. La Fayette, Mme. de, *La Princesse de Clèves*, 104.
59. Rea, *Countess of La Fayette*, 184.
60. Bishop, *La Rochefoucauld*, 266.
61. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 27.
62. Sévigné, *Letters*, I, 170 (June 10, 1671).
63. Letter of Jan. 20, 1672.
64. In Boissier, 145.
65. *Ibid.*, 145-47.
66. *Letters*. Introd., xxxviii.
67. Letter of July 5, 1761.
68. Apr. 8, 1761.
69. Boissier, 201; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 232.
70. Apr. 10, 1671.
71. Guizot, IV, 516.
72. Bishop, *La Rochefoucauld*, 128.
73. *Moral Maxims and Reflections*, 84.
74. *Ibid.*, 150.
75. 84.
76. 122.
77. 178.
78. 11.
79. 471.
80. 9.
81. 119.
82. 82, 465.
83. In Bishop, 68.
84. *Moral Maxims*, 15.
85. *Ibid.*, 77.
86. 138.

87. 140.
88. 74.
89. 367.
90. 436.
91. Preface to the first edition.
92. In Bishop, 144.
93. *Moral Maxims*, 688.
94. *Ibid.*, 70.
95. *Ibid.*, 658-59.
96. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, I, 380.
97. *Moral Maxims*, 476.
98. Rea, *Countess of La Fayette*, 265.
99. Sainte-Beuve, *loc. cit.*
100. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 395.
101. La Bruyère, *Characters*, p. 173. Ch. xii, 7.
102. *Ibid.*, p. 492, Ch. xii, 7.
103. E.g., Ch. xi, 35, and Ch. xvii, 28, in La Bruyère, pp. 267, 469.
104. Guizot, *France*, IV, 528.
105. Motteville, *Memoirs*, I, 150.
106. French text in Fellows and Torrey, *The Age of the Enlightenment*, 35-39.
107. Hazard, *The Critical Years*, 127.
108. Saint-Evremond, Letter to de Créqui, in King, J., *Science and Rationalism*, 26.
109. Frederick II to Voltaire, Sept. 19, 1774, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*.
110. Lewis, *Splendid Century*, 282.
111. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 1.

CHAPTER VI

1. A good example in Metropolitan Museum of Art, New York.
2. Vienna.
3. Dresden.
4. Madrid.
5. Louvre.
6. Wolf, *History of Science . . . in the XVIth and XVIIth Centuries*, 626.
7. Beard, Miriam, 305.
8. Day, Clive, *History of Commerce*, 194; Marx, *Capital*, I, 826.
9. *Camb. Mod. History*, V, 12.
10. Adam Smith, in Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 72.
11. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 44.
12. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx.
13. Pepys, *Diary*, May 14, 1660.
14. Hazard, *Critical Years*, 93.
15. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 10.
16. Hazard, 88.
17. Vienna.
18. The Hague.
19. New York.
20. Baron Thyssen Collection.
21. The Hague.
22. Mather, F. J., *Western European Paint-*

- ing of the Renaissance*, 549.
23. Czernin Collection, Vienna.
 24. The Hague.
 25. Edinburgh.
 26. Frick Gallery, New York.
 27. London.
 28. Dresden.
 29. Louvre.
 30. New York.
 31. Washington.
 32. Chicago.
 33. Budapest.
 34. Frick Gallery.
 35. Brussels.
 36. Berlin.
 37. London.
 38. Louvre.
 39. The Hague.
 40. Amsterdam.
 41. Dresden.
 42. New York.
 43. Mather, 590.
 44. In Beard, Miriam, 288.
 45. In Browne, Sir Thomas, *Religio Medici*, 19.
 46. Voltaire, *Agé of Louis XIV*, 94; Martin, *Louis XIV*, I, 333.
 47. Voltaire, 93.
 48. Bowen, Marjorie, *William Prince of Orange*, 196.
 49. Martin, I, 347.
 50. Bowen, 92.
 51. *Camb. Mod. History*, V, 158.
 52. Burnet, Bishop, *History of His Own Times*, 117.
 53. *Camb. Mod. History*, V, 160; Acton, *Lectures*, 228.
 54. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 30.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كررنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

